

مكتبة دار العقيدة في بيروت
دار العقيدة

دار العقيدة

دار العقيدة

تحفة المولى العظمى في الحج والمولد العظمى

لحمزة فركاني



دار العقيدة

تحفة المطع

في

الحطاب والموعظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَحْفَتُ الْمَوْلَا عِظَا

فِي

الْحِطِّ وَالْمَوْلَا عِظَا

جَمْعٌ وَتَرْتِيبٌ

أَحْمَدُ فَرْكَانِي

الناشر

دار العقيدة للتراث

الإسكندرية

□ حقوق الطبع محفوظة □

الطبعة الثالثة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٥٩١٢ / ١٩٩٠

الناشر

دار الحقيقة للنشر

٨٣ ش الفتح - باكوس

الإسكندرية

ت/ ٥٧٠٦٠٨٢ - ٥٧٠٧٣٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمدُ لله الذي أَحْيَا قلوب المؤمنين بتبصرته ، وَزَجَّرَ الغافلينَ عن تذكُّرته بزواجِر موعظته .

والصلاة والسلام على البشير النذير ، والنبي الساطع هُدهاه كالصبح المستنير ، والرسول الذي غدت موعظته كيمياء السعادة وامثال أوامره والاجتناب عن نواهيه موصلين إلى الحُسنى وزيادة ، وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأحبابه ، المتخلقين بخلقه ، والمتأدبين بأدابه ، الذين بذلوا نفوسهم النفيسة في إظهار دينه القويم ، وجاهدوا بالقلم واللسان والسيف والسُّنان من حاد عن صراطه المستقيم ، ونشروا الكتاب والسنة ، وتمت بهم من الله على الناس المنة ، وعلى تابعيهم والأئمة المجتهدين ومتبعيهم . ما نقلت أخبارهم ودونت آثارهم .

أما بعد

فقد سألتني بعض الإخوان والأحبة والأخذان ، ممن له في العلم رغبة ، ومن خوف التقصير رهبة ، أن أجمع كتاباً في تذكير الخواص وتعليم العوام ، تنقشع به عن قلوب الغافلين الغموم ، ويشحذ همم السائرين إلى مجاورة الحي القيوم ، ويبين طريق السالكين من السابقين الأولين ، فاستعنت بالله في جمع مادة هذا الكتاب ، والله تعالى أسأل أن يوفقني للصواب ، وأن يعلمني ما لم أعلم وينفعني بما أتعلم ، ويجعلني ممن يتعظ بمواعظه ، ويعمل بفوائده ، وينال أجر روايته وخير جمعه وتفهمه ، وأن لا يجعلني ممن أمر الناس بالبر ونسي نفسه ، وأضاء القبور بمصباحه وأظلم رَمْسَه .

ومن أمانة العلم ينبغي أن يقال ، إن العبد الفقير أسير الذنوب الغافل عما في نفسه من العيوب ، ليس له في الكتاب فضل ولا اجتهاد ، وإنما كان الغرض من الكتاب أن أوفر على إخواني المشتغلين بالوعظ ومخاطبة الخواص والعوام ، تجهيز

الخطب المنبرية ، والمواعظ السلفية ، وبخاصة مواعظ المواسم والأعياد ، وقد أشرت في هامش الكتاب إلى مصادر كل خطبة لعل طالب المزيد ، يقف في هذه المراجع على ما يريد .

ورأيت من اللائق بهذا المجال ، أن أبدأ بذكر فضائل الوعظ وآدابه ، لئلا يزهد القادرون في ثوابه ، أو يذهل الغافلون عن آدابه ، وقد اشتمل الكتاب على خمس وعشرين خطبة أو موعظة ، في مسائل متباينة ، وأمور متفرقة مما يحتاج إليه الواعظ والعايد ، وربما تبادر إلى ذهن القارئ ، أنني قصرت في هذا الكتاب ، في المواعظ المشتملة على ذكر الموت وقصر الأمل والقيامة والجنة والنار ، خاصة وهذه الموضوعات من أقوى سياط الوعظ ، وإنني أحيل القارئ الكريم إلى كتابي (البحر الرائق في الزهد والرفائق) فقد أشبعت هذه الموضوعات بحثاً بفضل الله ومنه وكرمه ، ولا يستغني الواعظ المنتسب عن هذين الكتابين ، وفيهما من الفوائد والمنافع ما أرجو من الله عز وجل أن ينفع بهما النفع الكثير ، وأن يعود علينا وعلى من يشتغل بالوعظ منهما من الله الجليل الثواب الجزيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد بدأت كثيراً من الخطب بخطبة الحاجة ، كما هو الثابت عن النبي ﷺ ، وربما بدأت بمقدمات أخرى ، حتى أمتد الواعظ ببعض العبارات الفريدة ، والأساليب الجديدة ، وربما اختصرت خطبة الحاجة ، كما كان يفعل ﷺ .

وربما اعترض على المصنف معترض ، وله في السنة رغبة وغرض ، فقال لقد أطال المصنف في الخطب ، والجواب والله الهادي للصواب ، خير الهدى هدي محمد ﷺ ، فقد كان النبي ﷺ يقصر الخطبة أحياناً ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس ، كما قال ابن القيم رحمه الله في الزاد ، والطول والقصر أمر نسبي . كما أمر النبي ﷺ الأئمة بالتخفيف في الصلاة ، وصلي بالناس المغرب بسورة الأعراف ، وكان يصلي بالنظائر سورتين في كل ركعة من أواسط المفصل ، هذا ولا أنصح من اشتغل بالوعظ من هذا الكتاب ، أن يذكر ما في الخطبة كلها دون التفات إلى أحوال الناس ، ولكن أردت من كل خطبة أن تكون موضوعاً في بابها ، يتخير منه الناصح اللبيب ما يليق بمن تصدى لوعظهم ، فلا عتب على المصنف في ذلك ، وإنما على كل واعظ أن يراعي أحوال الناس ، ليس في الطول والقصر فحسب ، ولكن في موضوع الموعظة ، وطريقة عرضها ، وكثرة النصوص فيها ، مع موافقة شرحها لأحوال الناس ، فإن الناس يتفاوتون في ذلك تفاوتاً بعيداً ، فليتخير الناصح من هذا

الكتاب ما يلائم ظروفه وأحوال من يتصدى لوعظهم .

وقد بذلت جهدي في تحقيق مادته ، وتنقيح عبارته ، وتفسير مُغلقه ، خاصة
وهذا الكتاب يخص طلاب العلم الذين حملوا الدعوة إلى دين الله عز وجل ، وهداية
الناس إلى سنة رسول الله ﷺ .

وأسميته (تُحْفَةُ الْوَاعِظِ فِي الْخُطْبِ وَالْمَوَاعِظِ) والله تعالى المسؤول أن يجعل
هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم ، ومقرباً إليه وإلى داره دار السلام والنعيم المقيم ،
وأن ينفعنا به تَعْبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى ، ويختتم لنا بخير في
عافية ، فإنه أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ آمِينَ .

وهذا أوّلُ الشروع فيما أردناه ، والبداة بفضل الوعظ وآدابه كما شرطناه ، ولا
حول ولا قوة إلا بالله .



فَضْلُ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ

فإنه لا يشك عالم ولا جاهل ، في أن وظيفة الوعظ والتذكير ، من أشرف الوظائف ، فإنها وظيفة الأنبياء والمرسلين ، الذين اختصهم الله عز وجل بهذا الفضل المبين .

قال الله عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

قال سفيان الثوري :

(أشرف الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء) .

قال القاسمي رحمه الله^(١) :

(موعظة العامة والتصدي لإرشادهم في الدروس العامة ، من الأمور المهمة ، المنوطة بخاتمة الأمة ، إذ هم أمناء الشرع ونور سراجهم ، ومصاييح علومه وحفاظ سياجهم) .

وقال الشيخ محمد عبد العزيز الخولي^(٢) :

* بعث الله رسله عليهم السلام مبشرين ومنذرين ، فحاربوا الرذائل ، وأحيوا الفضائل ، وحافظوا على العقول ، وصانوا الأعراض وحملوا الأموال ، ومنعوا الاعتداء على الأنفس ، وردوا الغوي عن غيه ، والباغي عن بغيه .

وكذلك بعث الله محمداً خاتم النبيين فدعا الناس إلى الله وهداهم إلى الحق ورسم لهم الصراط السوي فتمم مكارم الأخلاق .

(١) موعظة المؤمنين (٢) المكتبة التجارية .

(٢) إصلاح الراعظ الديني (٧ ، ٨) يتصرف - طعة دار الفار .

تلك سنة الله أن يكون فيهم هاد مذكر ، ورسول مشر ، ولن تجد لسنة الله
تديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً .
وقال أيضاً :

« وما الوعظ إلا كلام يراد به التأثير في نفوس الناس ، بما يحب من تعزية
للمصاب ، وتسلية للحزين ، وشجاعة للجبان ، وقوة للضعيف وأمن لليائس ، وخرج
للمكروب ، وغنى للمحروم ، وصبر للفقير .

ولهذا كان الوعظ الديني حلل العانة ، يعيد المرمى ، أوجب الله على
المسلمين في المسجد كل يوم جمعة ، وكل يوم عيد ، وفي موسم الحج ، وعلمهم
حسن الاستماع والإنصات .

وقد دلت أدلة الكتاب والسنة المطهرة على فصل الوعظ والتذكير :

• قال الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة : ٢٤) .

• وقال الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢) .

• وقال الله عز وجل : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ﴾
(المائدة : ٦٣) .

• وقال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكْتُمُونَهُ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) .

• وقال ﷺ : «نُضِرَ الله امرأً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، قرب
حامل فقه ليس بفقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(١) .

فقوله ﷺ : «نُضِرَ الله امرأً» قال الرامهرمزي في (المحدث الفاضل) :
يحتمل معناه وجهين :

أحدهما : ألبسه الله النظرة وهي الحسن وخلوص اللون فيكون تقديره جَمَلَهُ
الله وَزَيَّنَهُ .

(١) رواه أحمد (١٨٣/٥) ، والدارمي (٧٥/١) ، وابن حبان في الموارد ، وابن عبد البر في الجامع وقال
الوصيري في الزوائد ، هذا إسناد صحيح رجاله ثقات - الصحيحة رقم ٤٠٤ ، وقد أورده السيوطي في
الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة (٢٥)

والثاني : أن يكون في معنى أوصله الله إلى نضرة جنة ، وهي نعمتها ونصارتها ، قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (المطففين : ٢٤) ، وقال : ﴿ وَلَقَاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا ﴾ (الإنسان : ١١) .

وإنما دعا رسول الله ﷺ لسامع السنة ومبلغها بالنضارة ، جزاءً وفاقاً لما قام به في بثها ونشرها ، وجعلها بذلك غصة طرية ، ومن علة بذلك ، الملاءة علي القاري في المرقاة (١/ ١٨٨) حيث قال : (لأنه جدد بحفظه ونقله طراوة الدين ، فجازاه في دعائه بما يناسب عمله) .

وقال كذلك : (خُصَّ مُلْغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء ، لأنه سعى في نضارة العلم وتحديد السنة فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله)

وقال أيضاً (١/ ٢٨٨) : (قيل وقد استجاب الله دعاءه فلدلك تجد أهل الحديث ، أحسن الناس وحوماً وأحلمهم هيئة) .

وعن سفيان من عيينة قال : (ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة . وقال ابن العربي في شرحه لجامع الترمذي : (هذا دعاء من رسول الله ﷺ لحامل علمه ولا بد بفضل الله من نيل بركته) (١) .

• وقال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ» (٢) .

قال ابن قدامة رحمه الله (٣) :

فإن قيل : ما وجه استغفار الحوت للمعلم ؟ .

فالجواب : أن نفع العلم يعم كل شيء ، حتى الحوت فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل وما يحرم ، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء ، فآلهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لحسن صيغهم .

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الدنيا

(١) شرح الحديث بفتح عن كتاب دراسة حديث (نصر الله امرأة) سمع مقالتي رواية ورواية للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد (١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥) يتصرف .

(٢) رواه الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة ورواه الترمذي مختصراً بلفظ «معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى

حيات في سحره» صحيحه في صحيح جامع (٣٧١) في ٧٩٠٧٨

(٣) مختصر مباح القاصدي (١٤٤) .

ملعوناً ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله ، وما والاه وعالمًا ومنعلمًا»^(١)

والمراد بالدنيا كل ما يشعل عن الله عز وجل ، ويبعد عنه
ولعمدته عن نظره ومعنى (إلا ذكر الله وما والاه) أي ما أحبه الله تعالى مما
يجري في الدنيا فطاعته واتباع أمره واحتساب بهيه كلها داخلة فيما يوافق ذكر الله .
* وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في
اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة
فهو يقضي بها ويعلمها »^(٢) .

والحسد يطلق ويراد به تمني زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام ويطلق
ويراد به الغبطة ، وهو تمني مثل ماله وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا .
والحكمة كما قال محمد حبيب الله الشنقيطي^(٣) : (المراد بها القرآن وكل ما
منع من الجهل وينهى عن القبيح والعمه والقصاء بالعدل ، وهي المذكورة في قوله
تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .
* وعنه ﷺ قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، أو
علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »^(٤) .
ولذا قال السلف : علمك هو ولدك المخلد .

* وعن سهل بن سعد قال . قال رسول الله ﷺ لعلي : « لأن يهدي الله بك رجلاً
واحداً ، خير لك من أن يكون لك حُمْر النعم »^(٥) .
* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا إلى هدى
كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى
ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم »^(٦) .

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والبيهقي وقال الترمذي حسن وحسنه لأبي

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم (١/١٦٥) ، ومسلم في فضائل القرآن وما يتعلق به والسائي في العلم
وابن ماجة في الزهد .

(٣) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

(٤) رواه مسلم (١١/٨٥) الوصية : باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، والمراد بالصدقة الجارية
الوقوف على وجوه الخير .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٦) رواه مسلم (١٦/٢٢٧) العلم : باب من شئ من حسنة أو سيئة يؤمن دعا إلى هدى أو ضلالة

- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله تعالى من موعظة يعط بها قومه ، فيفترقون وقد نفهمهم الله عز وجل بها .
- وقال الحسن : اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن رابعاً فتهلك .
- وقال سفيان الثوري : لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يُعلِّمَ الناس العلم .
- وعن معاذ رضي الله عنه قال : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، وبذله لأهله قرية ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة .
- وقال الحسن : لولا العلماء لصار الناس مثل السهائم .

أحوال الوعاظ^(١)

جاء في المؤيد عدد ٤٣٩٧ في ٧ شعبان سنة ١٣٢٢ لأحد علماء الأهرار:

لو كان بي من الفصاحة والبلاغة، ما أشرح به أحوال الوعاظ، الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنيت لكم بالعجائب التي يتبرأ منها الدين، ولأعنت على براءة الدين منها الأدلة الموصلة إلى اليقين، ولكني والحمد لله لا أحرم بفضل حل وعلا أن أقضي بعض الواجب عليّ نحو الإسلام والمسلمين، بلا ميل مع الشيع والوُصّاعين، مستنداً فيما أقوله من الأدلة والبراهين إلى الكتاب القويم، وسنة النبي الكريم، وهدى الصحابة والتابعين والعلماء الراشدين «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

ومن المعلوم أن وظيفة هؤلاء الوعاظ تنحصر في أمور :

- ١ - إرشاد العامة إلى معرفة الله تعالى ، وما يجب أن يثبت له من الصفات العلية ، وما يستحيل عليه . وما يجوز في حقه تعالى ، وما للرب والالياء من مثل هذا عليهم الصلاة والسلام .
- ٢ - تعليمهم أركان الدين من صلاة وصوم وحج وزكاة ، وبيان فائدة آدابها لهم ، ومنافعها العائدة عليهم في الدنيا والآخرة .
- ٣ - دعوتهم إلى الخير وصرفهم عن ناحية الشر ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

(١) نقلاً عن كتاب إصلاح المساجد من الدع والفتاوى (١٢٢/١١٩) للفاقي

(٢) رواه مسلم (٥٠/١) وأبو داود (١١٤٠) والبيهقي (٢٧٠/٢) والترمذي (٢٦/٢) وابن ماجه (١٢٧٥)

وأحمد (١٠٠٣ ، ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري وقال الترمذي حسن

صحيح

المنكر، وحثهم على التمسك بالدين وآدابه وفضائله، وما أمر الله به
ورسوله ﷺ .

٤ - تحريضهم على العمل والاجتهاد، ونقير أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما
اكتسبت ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾
(الزلزلة : ٤) .

٥ - حضهم على التعاون في المشروعات، وتربية السين والسنات، وعلى الدحول
إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغبة من أسبابها، وحفظ الأمانة واستشعار
الأخوة التي هي مصدر حياة الأمم، ومشرف معادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة،
﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ (آل عمران : ١٤٥)

٦ - تطهير قلوبهم من الأوهام الفاسدة التي قد تحر إلى الاعتقادات الباطلة، حتى
يخضعوا لخالق السموات والأرضين، وقاهر الناس أجمعين، وحتى يقولوا كما
قال إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
خَافِئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ٧٩) وكما أمر رسول الله ﷺ أن يقول :
﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٣) .

ثم قال . يعلم الله أنهم يقوموا بهذه الأمور الواجبة عليهم، ولكنهم تعلفوا
بحيال الأباطيل، والحرافات والأوهام والموضوعات، فأحدوا يفتشون السم في
مجالسهم ويدسون الأحاديث الموضوعة في محافلهم، ويحتلقون على النبي ﷺ
على حسب ما تسول لهم أنفسهم، ويركون الأسانيد الملققة ثم يسبون لسيد
الخلائق ما هو بعيد عن الحقائق، ويبالغون في التحذير والترعيب ويطشون
ويسهلون ويشددون كما يشاؤون .

ثم قال : يا أهل الوعط القُثم الكذب على النبي سيد المرسلين، وادعينتم
أن هذا هو الحق المسين، وهو الإثم المبين، والمحرم بإجماع المسلمين
قال ﷺ . وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُنْعِدًا قُلْتِ بَوًّا مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ^(١) .

(١) حدث متواتر أخرجه الشيخان وغيرهما عن غير واحد من لصحابة وهو في البخاري (٢٠٠/١) العلم
باب إثم من كذب على النبي ﷺ وفي أحاديث الأئمة وفي مسلم (١٧٧، ١٨٠) في مقدمة صحيحه في
باب تعليق الكذب على رسول الله ﷺ .

وقال الإمام الموصي في شرح مسلم بتحريم رواية الأحاديث الموصوعة على من عرفها أو علم على طه وضعها فمن روى حديثاً علم وضعه أو ظن وضعه فهو مندرج في الوعيد ، ولا فرق في تحريم الكذب عليه عليه السلام بين ما كان في الأحكام وبين ما لا حكم كالترعيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك من أنواع الكلام ، فكله حرام من أكبر الكبائر ، وأقبح القبائح بإجماع المسلمين ، وقد أجمع أهل الحل والعقد على تحريم الكذب على آحاد الناس ، فكيف بمن قوله شرع وكلامه وحى ، والكذب عليه كذب على الله تعالى . ثم قال : يا أهل الوعد ناديتم بالتوسل بالصالحين والأولياء إلى الله الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، وقتلتم ما هذا كفراً إن هذا إلا توسط بيننا وبين الله تعالى في قضاء حاجاتنا وأمورنا ، والله جل شأنه قد صرح بأن تلك العقيدة من عقائد المشركين وقد نعاها عليهم في قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (يونس : ١٨) .

يا أهل الوعد : شاركتهم عبدة الأوثان في اعتقادهم ، فإن هؤلاء ما كانوا يعدونها لذاتها بل باعتقاد أنها تقرهم إلى الله تعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر : ٣) .

وقد جاء في سورة الفاتحة التي نقرأها ونكررها كل يوم في الصلاة ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة : ٥) . فلا استعانة إلا به جل شأنه .

يا أهل الوعد : جاءنا القرآن بأن لا يدعى أحد مع الله ، ولا يقصد أحد سواه فقال : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الحج : ١٨) وقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص : ١ ، ٢) . والصمد هو الذي يقصد في الحاجات ، ويتوجه إليه المربوبون في معونتهم على ما يريدون وما يحبون وما يطلبون ، والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر كما هو معروف عند اللعوبين فلا صمد سواه .

يا أهل الوعد : أرشدنا القرآن إلى وجوب القصد إلى الله وحده بأصرح عبارة ، في قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة : ١٨٦) .

يا أهل الوعد : جاءتنا الأخبار الصحيحة أن عمر رضي الله عنه حينما كان

في الاستسقاء قال : (إنا كما نتوسل إليك بنبيك ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا)^(١) .

قال ذلك رضي الله عنه والعباس بجاسه يدعو الله تعالى ، فإذا كان هذا حال البيس والصديقين فكيف بالأولياء والصالحين

يا أهل الوعظ : كأنكم تظنون أن في ذلك تعظيماً لقدر الصالحين والأولياء ، مع أن أفضل التعظيم والاحترام لهم لا يكون إلا باختيار ما اختاروه لأنفسهم ، ولا يكون إلا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ولا معنى للتوسل بهم إلا هذا الاقتداء ، كما أنه لا معنى للتوسل بالأحياء إلا طلب المشاركة في الدعاء كما ورد في الحديث .

يا أهل الوعظ : أي حالة تدعوكم إلى هذا الاعتقاد ، وبين أيديكم القرون الثلاثة الأولى ، لم يكن فيها شيء من هذا التوسل ، ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه ، وكتب السنة والتاريخ بين أيدينا ناطقة بذلك ، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه بدعة في الدين ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

يا أهل الوعظ : قوموا وانتهوا وانتظموا في سلك قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . (آل عمران : ١٠٤ - ١٠٧) .

لطائف الوعظ

قال الإمام زين الدين ابن رجب الحبلي^(٢) .

المواعظ سياط تضرب بها القلوب ، فتؤثر في القلب كتأثير السياط في البدن والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده ، لكن يبقى أثر التألم

(١) أخرجه البخاري عن أس بن مالك في الاستسقاء (٢/٤٩٤) باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء ، دا فخطوا .

(٢) لطائف المعارف (١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦) بتصرف

بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوي الضرب كانت مدة الألم أكثر

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكية والوقار ، فمهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاماً عقب ذلك ، ومهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة .

أفضل الصدقة تعليم جاهل ، أو إيقاظ غافل ، ما وصل المستقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الوعظ ليستيقظ .

إنما النأديب بالسوط من صحيح البدن ، ثابت القلب ، قوي الدراعين ، يؤلم صربه فيردع ، فأما من هو سقيم البدن ، لا قوة له ، فماداً يجمع تأديبه بالصرب .

كان الحسن إذا خرج إلى الناس ، كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها ، وكانوا إذا خرجوا من عنده ، كانوا لا يعدون الدنيا شيئاً قال بعض السلف . إن العالم إذا لم يرد سموعته وجه الله ، رلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر على الصفا .

المواعظ تريق القلوب ، فلا ينبغي أن يسقي الترياق إلا طبيب حادق معافي ، فأما لذيغ الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه

وغير تقي يأمر الناس بالسالتقى	طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
فابدأ بنفسك فانها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهاك يقبل ما تقول ويقتدى	بالقول منك ويتمع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

لما حاسب المتفون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير قال رجل لامن عباس : أريد أن أمر بالمعروف وأبهي عن المنكر فقال له ابن عباس إذا لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ثم تلا : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (البقرة : ٤٤) ، وقوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف : ٢، ٣) . وقوله حكاية عن شعيب عليه السلام . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود : ٨٨) .

قال النخعي : كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث .

ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد ، لأنه لا عصمة لأحد بعده .

لَيْتَ لَمْ يَعِظِ الْعَاصِينَ مَنْ هُوَ مُذْنِبٌ فَمَنْ يَعِظُ الْعَاصِينَ نَعَدَ مُحَمَّدٌ .

قال سعيد بن جبير : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ

قلت : ولعل العبد الذي يسعى لإصلاح نفوس الناس بدعوتهم إلى التوبة والاستقامة على طريق الله عز وجل ، أن يوفقه الله عز وجل لتوبة نصوح ، وأن يصلح له نفسه ، فالجزاء من جنس العمل ، فسأل الله أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا .

والعبد كذلك يجتهد في دعوة الناس إلى الله عز وجل وإصلاحهم ، ويجتهد كذلك في دعوة نفسه وإصلاحها والناس يطيعونه ويعصونه ، ونفسه تطيع وتعصى ، وقد قال بعض السلف : حق على شارب الكؤوس أن يعط بعضهم بعضاً

خطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله يوماً فقال في موعظته : (إني لأقول هذه المقالة ولا أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عدي ، فأستغفر الله وأتوب إليه) .

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً يعظه فيه ، وقال في آخره : (وإني لأعظك بهذه وإني لكثير الإسراف على نفسي ، غير مُحْكَم لكثير من أمري ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذا لتواكل الحير وإذا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا لاستحلت المحارم ، وقل الواعظون والمسارعون لله بالنصيحة في الأرض .

والشياطين وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن مكر ، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه بما فيه وبما ليس فيه)

وأعلنت المواحش في البوادي وصار الناس أعوان المريب

إذا ما عنهم عاشوا مقالي لما في الموم من تلك العيوب
وودوا لسو كفتها فاستويها فصار الناس كاشي، المشوب
وكما ستطرب إذا مرصبا فصار هلاكها بيد الطبيب

قال الإمام جمال الدين أبو الفرج ابن الحواري (١) :

لقد تاب على يدي في محاسن الذكر أكثر من مائتي ألف ، وأسلم على
يدي أكثر من مائتي نفس ، وكم سأل عن سحر وعصى ثم نكل سبل
ويحق لمن تلمح هذا الإيعام أن يرحو التمام ، وربما لاحت أسباب
الحروف بنطري إلى تفصيري وزللي .

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ، ما منهم إلا من قد
رق قلبه ، أو دمت عينه ، فقلت لنفسي كيف بك إن بحوا وهلكتي ، فصحت
لسان وجدي إلهي وسيدي إن قصيت عليّ بالعباد عداً ، فلا تعلمهم بعداي
صيانة بكرمك ، لا لأحبي لئلا يقولوا عذب من دل عليه ، إلهي قد قيل
لسيك عليه السلام اقتل ابن أبي المنافق ، فقال لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل
أصحابه .

إلهي فاحفظ حسن عقائدهم في كرمك ، أن تعلمهم بعدات الدليل
عليك ، حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي . زور رحل شفاعته إلى بعض
الملوك على لسان بعض أكابر الدولة ، فاطلع المُرور عليه على الحال ، فسمى
عند الملك في قضاء تلك الحاجة ، واجتهد حتى قضيت ، ثم قال للمُرور عليه
ما كنا نحيب من علق أمله بنا ورجا النفع من جهتنا .

إلهي فانت أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، فلا تحيب من علق أمله
ورجاء بك وانتسب إليك ، ودعا عبادك إلى بابك ، وإن كان متطفلاً على
كرمك ، ولم يكن أهلاً للسامرة بينك وبين عبادك ، لكنه طمع في سعة جودك
وكرمك ، فانت أهل الجود والكرم ، وربما استحبنا الكريم من رد من تطفل على
سماط كرمه .

قال في اللطائف (٢) :

(١) صيد الخاطر (٢٣٦ - ٢٣٧) المكتبة العلمية .

(٢) لطائف السمارف لابن رجب (٧٨) .

يا من ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده ، يا من مرض قلبه أحمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى ، مجالس الذكر مَارِسْتَانِ الدنوب ، تداوى فيها أمراض القلوب كما تداوى أمراض الأبدان في مَارِسْتَانِ .

الذكر نُورٌ لقلوب المؤمنين ، تنزه فيها بسماع كلام الحكمة ، كما تنزه أبصار أهل الدنيا في رياضها وبساتينها .

مجلسا هذا حصرة في روضة الحشوع ، طعامنا فيه الجوع وشرابنا فيه الدموع ، ونقلنا هذا الكلام المسموع ، تداوي فيه أمراضاً أعيت حاليُنوس وبحتيشوع ، نسقي فيه ترياق الدنوب وفاروق المعاصي ، فمن شرب لم يكن له إلى المعصية رجوع كم أفاق فيه من المعصية مصروع ، وبرىء فيه من الهوى مدسوع ، ووصل فيه إلى الله مقطوع ، ما عيه إلا أن الطبيب الذي له ، لو كان يستعمل ما يصف للناس لكان إليه المرجوع .

يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع .

يا حبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المنبوع .

آداب الوعظ

آداب الواعظ في نفسه^(١) :

* من آداب الواعظ في نفسه أن يقصد بوعظه وجه الله عز وجل ، ولا يقصد توصلاً إلى غرض دنيوي كتحصيل مال ، أو جاه أو شهرة ، أسوة بالأنبياء في قولهم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ (الشعراء : ١٠٩)

قال الشافعي رحمه الله : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ، على أن لا ينسب إلي حرف منه .

وعن أبي يوسف رحمه الله تعالى قال : يا قوم أريدوا بعلمكم الله ، فإنني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع ، إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أحلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح

* ومنها : أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها ، وحث عليها والحلال

(١) انظر المجموع بشرح القهد للووي (١/٥٣ - ٥٤ - ٥٥) ، وتذكره السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لاس جماعة الكاظمي (من ١٥ إلى ٣٠) ، والجمع لأخلاق الراوي وأدب السامع للخطيب البغدادي (١/١٥٠) مكتبة المعارف

الحميدة والشيم المرضية التي أوشد إليها ، من الترهّد في الدنيا والتقليل منها وعد
الملااة بهواتها ، والسحاء والجود ومكارم الأخارق وطلاقة الوجه من غير حروح إلى
الحلاعة ، والحلم والصبر والتره عن دنيء المكاسب ، وملازمة الورع والحشوع
والسكينة والوقار والتواضع والحضوع ، واجتناب الضحك والإكثار من المزاح ،
وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخبية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ وتطيف الإبط
وإزالة الروائح الكريهة واجتناب المكروهة وتسريح اللحية والتطيب .

* ومنها الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وإن كانوا دونه
بدرجات

* ومنها : دوام مراقبة الله تعالى في علاقته وسره ، والمحافظة على قراءة القرآن
وبوافل الصلوات والصوم وغيرهما .

* ومنها : مداومته على الأذكار الموظفة ، والدعوات ، وسائر الآداب
الشرعية

* ومنها أن يصون العلم كما صانه علماء السلف ، ويقوم له بما جعله الله تعالى
له من العزة والشرف .

قال الرهري . هوون بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم .

وقد رخص بعضهم إذا كان في ذلك مصلحة راجحة ، وعلى هذا يحمل ما جاء
عن بعض أئمة السلف من المشي إلى الملوك وولاية الأمر

* ومنها . أن يحتهد في العمل بما يعط الناس به ، حتى لا يدخل في قوله عروحن
﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف : ٢ ،
٣) .

كتب مالك إلى الرشيد رحمهما الله يقول : إذا علمت علماً فليز عليك علمه
وسكيتته ووقاره وحلمه .

وقال بعضهم : بهتف العلم بالعمل فإن أجهه حل وإلا ارتحل .

* ومنها : أن لا يزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم ، قراءة ومذاكرة ولا يقنع بالقبيل
إذا كان يمكنه أن يستزيد منه كما قال بعضهم :

فلم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرس على التمام

• ومنها أن لا يستكف من أن يتعلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة
عن مجاهد قال : لا يتعلم العلم مُسْتَحٍ ولا متكبر

• ومنها أن يفيد إخوانه بما يتعلمه بقدر طاقته عن زيد بن أبي الررقاء قال
أخبرنا سفيان الثوري - ونحن شباب على نابه - فقال «يا معشر الشباب، تعجلوا بركة
هذا العلم لعلكم لا تلعنوا ما تؤملون منه ، يُفد بعضكم بعضاً»

فصل في آداب الواعظ في مجلس الوعظ^(١)

• من آداب الواعظ في مجلس الوعظ أن لا يتصدر للوعظ حتى يصير أهلاً له ،
عن الشبلي قال : من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهواه
• ومنها : إذا عزم على مجلس الوعظ تطهر من الحدث والحث وتنظف وتنظف
وليس من أحسن ثيابه قاصداً بذلك تعظيم العلم وتحصيل الشريعة .

كان مالك رحمه الله إذا حاءه الدرس لطلب الحديث اغتسل وتنظف ، وليس ثياباً
جداً ، ووضع رداءه على رأسه ، ثم يجلس على منصة ولا يرال يخر بالعود حتى
يفرع ، وقال أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

• ومنها أن يجلس بارئاً للحاضرين ، ويوقر أفاضلهم بالعلم والسن والصلاح ،
ويتلطف بالباقيين ويكرمهم بطلاقة الوجه .

• ومنها ما استحبه بعض العلماء ، أن يبدأ بقراءة شيء من كتاب الله تعالى تيمناً
وتبركاً ، واستحب بعضهم كذلك أن يختم الدرس بالرقائق ، حتى يفيد الحاضرين
تطهير الباطن .

• ومنها : أن يصون يديه عن العث وعينه عن تفريق النظر بلا حاجة ويلتفت إلى
الحاضرين التفاتاً قصداً بحسب الحاجة للحطاب .

• ومنها أن يصون مجلسه عن اللغظ ، والحاضرين عن سوء الأدب في
المباحثة ، وإذا ظهر من أحدهم شيء في مبادئ ذلك ، قلطف في دفعه قبل انتشاره ،
ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى ، فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة ،

(١) المجموع شرح المهدب للووي (٦٢ : ٦٣) بوقد ذكره السامع لاس جماعة (٣٠ إلى ٦٣) والجامع لأخلاق
الراوى وآداب السامع (١٢٧/٢ إلى ١٣٣) .

من شأنا الرفق والصفاء واستفادة بعضنا من بعض واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة .

• ومنها إذا سأل سائل عن أعحوة فلا يسحرون منه ، وإذا سُئِلَ عن شيء لا يعرفه فليقل لا أعرفه أو لا أحققه ، ولا يستكف من ذلك ، فمن علم العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم أو الله أعلم ، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لبيبه ﷺ . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص : ٨٦) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نهينا عن التكلف^(١) .

وقالوا : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري ، معناه يكثر منها .

• ومنها : أن يتواضع مع كل مسترشد سائل ويحفض له جناحه ويلين له جانبه قال الله تعالى لبيبه ﷺ : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٢١٥) .

• ومنها : أن لا يطيل مجلس الوعظ ، بل يجعله متوسطاً ، ويقتصد فيه حذراً من سامة السامع وملله ، وأن يؤدي ذلك إلى فتوره وكسله ، عن شقيق قال : « خرج إلينا عبد الله فقال : أما أبي أحبر بمكانكم فأترككم كراهية أن أملككم . إن رسول الله ﷺ كان يتحولنا بالموعظة بين الأيام مخافة السام علينا ، أو قال السامة علينا »^(٢) .

وقال الرهري . « إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب »^(٣) .

• ومنها : إذا أحس الواعظ بملل الناس ، رَوَّحَ عنهم بالحكايات ومستحسن النوادر والإنشاءات .

قال علي بن أبي طالب : رَوَّحُوا القلوب ، وابتغوا لها طُرْفَ الحكمة ، فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان . وقال قسامة بن زهير : « رَوَّحُوا القلوب تَعِ الذِّكْر » .

(١) رَوَاهُ الْحَارِثِيُّ (١٣ - ٢٦٤ ، ٢٦٥) الاعتصام باب ما يكره من كثرة السؤال وتكف ما لا يعبه
(٢) رَوَاهُ الْحَارِثِيُّ (١٦٢/١) كتب العلم ما كان النبي ﷺ يتحولهم بالموعظة والعلم كي لا يملوا وأخرجهم مسهم (كتاب صفات السامقين وأحكامهم) إلا أحرفاً يسيرة ، وأخرجهم أحمد في المسد (٣٧٧/١) إلا أحرفاً يسيرة .

(٣) لأنه إذا ملَّ الناس من طول المجلس تئاموا وتمللوا وذلك من الشيطان

* ومنها . ما س في المجلس عند انقضاءه ، من الاستعفار وحمد لله على آلائه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ،
وقال قبل أن يقوم سبحانك ربنا بحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ،
إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » (١) .

(١) رواه ترمذي (٣١٥١٢) بحارحه . بواب الصلاة باب ما يقول بعد قيام من المجلس وقيل هذا حديث حسن عريب صحيح ورواه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني في تخريج المشكاة رقم (٢٤٣٣) واللفظ الأصوات المختلفة.

أدب الخطب والخطباء^(١)

قال بعض الفضلاء : أبلغ الخطب ما وافق الرمان والمكان والحال ، ففي زمن صيام رمضان مثلاً ، يبين الخطيب للناس حكمه وأحكامه والمقصود منه ، وينهاهم عن البدع التي تحدث فيه مبيناً ضررها ، وقبل عيد الفطر يبين أحكام صدقة الفطر ، ولا يحسن به أن يستدلها ببيان أحكام الأصحية أو غير ذلك ويتركها بتاتاً ، وفي مكان تفرق أهله (يحطّب بالاتحاد) ، أو تكاسلوا عن طلب العلم حثهم عليه ، أو أهملوا تربية أبنتهم (حثهم أيضاً عليها) ، إلى غير ذلك مما يوافق أحوالهم ويلائم مشاربهم ويناسب طباعهم .

يخطب في كل مكان بحسبه ، مراعيّاً أحوال العالم ، بصيراً بمقتطفاتهم الحاصلة في حلال الأسع فينهاهم عنها ، ويسهم عليها متى رقي منبر الخطابة ، وعسى أن يهتدوا طريقاً قوياً . ثم قال :

كيف كانت الخطب في الصدر الأول ؟ كانت الخطب في الصدر الأول لها المكانة العالية ، والمقام الأسنى ، كانوا يتقنون من جواهر الألفاظ أعذبها وأظرفها وأحلاها ، ومن المعاني أرقاها وأدقها وأغلاها ، ومع ذلك فكانوا يضمنونها آيات من كتاب الله تعالى لتزداد حلاوة وطلاوة ، حتى إنه ليعاب على خطبة ليس فيها آية من القرآن الكريم ، بلغت زمن الخلفاء الراشدين عنوان شبابها ، فإن القرآن بما اشتمل عليه من أبدع الأساليب أعانهم على الخوص في عباب التفنن في دائرة الإرشادات الحاذبة بمغاطيسها الأفتدة ، وكانوا لا يتقيدون بوقت ، بل كلما دعت الحاجة اجتمعوا ، فألقيت عليهم استشارة أو وعظ أو تذكير أو إعلان .

كان الخطيب إذا قام لأمر ما سحر الألباب بمرصعات المواعظ ، ما لا يملك

(١) نقله العلامة جمال الدين الفاسمي عن بعض الفضلاء ، وأوردناه بتصريف - كتاب إصلاح المساجد من البدع والعيوائد (٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩) .

بمرهفات السوف والرماح ، يؤلف بين من تفرق ، ويسكن القفر ، ويزيل
المخاضات ، وقطع المازعات ، يقيمهم إن شاء ويقعدهم إن أراد بقوة اقتداره
وشدة تأثيره

متى حدث لاحتطاط في الخطب ؟ إن الخطاة قبل ، كانت بيد الحلفاء
الراشدين والرؤساء العظام ، وكانت موضع احتراس وكان يحطب الخطيب قائماً (إلا
خطب الكاح) ، أحداً بيده عصا أو مخصصة أو قنطرة أو غير ذلك ، فلما جاءت الدولة
المروانية واستولى الترف وعم ، وتولى كرسي المملكة ، الوليد بن عبد الملك بن
مروان بدأ يخطب - وأسفاه - جالساً ترفعاً منه واستهانة بهذا الموقف الحليل ، ومن
ها أخذت الخطاة في الاصمحلال والتلاشي ، فكان آخر خطيب أجد من أئمة
الإسلام المأمون بن هارون الرشيد من خلفاء الدولة العباسية ، وترك الملوك
الخطاة ، ووكّلوا أمرها كغيرها من الأمور لغيرهم ، فصارت محطة القدر بعد
الرفعة ، وموضع الاستهانة بعد التحلة ، تولّاها أناس فما قدروها حق قدرها ، وما دروا
المقصود منها بحالهم المطبقة ، حتى إنك لو خاطبت أحدهم عن الخطبة المتعة
وتغييرها بما يستدعيه الزمان ، ما أحانك إلا بقوله لا يمكن للنفوس الآن أن تتزحرج
عن غيرها ، وإن الخطب الآن هي من قبيل الرسوم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

شرط الخطيب :

يشترط في الخطيب أن يكون عالماً بعقيدة السلف الصالح ، حتى لا يزيغ
ويؤدي الناس بسوء عقيدته في درك ظلمات الضلال ، فتسوء العقى .

• ومن شروطه أن يكون عالماً باللسة ، عارفاً بما صح فيها ما لم يصح ، حتى لا
يكون سبباً لإذاعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الناس ، فيصل ويصلوا به .

• ومن شروطه : أن يكون عالماً بالفروع ، كي يصحح العبادات بما علمه من علم
الفقه ولأنه عرضة يسأله المأمومون في الأحكام فيجيبهم عن حقيقة ويهديهم بسور
الشريعة إلى صراط مستقيم ، لا يهرف ويحبط خبط عشواء في أمور الدين بجهالاته
كأغلب الخطباء والأئمة اليوم ، فرحماك اللهم رحماك

• ومن شروطه أن يكون عالماً باللغة العربية ، وبالأخص علم الإشاء ، كي يقتدر
على تأليف كلام بليغ ، وتسيق درر مضيئة ، يشرق نور أسرارها على أفئدة
السامعين ، يسحرهم بديع لفظه ، ويختلب ألبابهم بجواهر آيات وعظه .

- * ومن شروطه أن يكون بيبها ، كي لا تعرب عليه شاردة إلا أحصاها ، ولا واردة إلا استقصاها ، وليطر بمطار تأمل ولا انتقاد ويعرض في بحر الشريعة ، فيستخرج لآلئ الأحكام ودررها من غير ما يعتريها تشويه ولا يشوبها كلل .
- * ومن شروطه أن يكون لساناً فصيحاً ، مطلق اللسان ، معبراً عما يخطر بباله ، من المعاني الكامنة في ضميره ويبرر ما انصرت عليه السريرة ، من جليل النصائح وجميل الإرشادات ، مما يكمل السعادة للعباد .
- * ومن شروطه أن يكون وحيها تهابة القنوب ، وتحله العيون وتعظمه النفوس ، بهابه الصغير ، ويوقره الكبير ، حتى يكون لكلامه تأثير ، ويجد له سميعاً ، يعي ما يقال ، ويعمل بما يسمع .
- * ومن شروطه أن يكون صالحاً تقياً مهذباً ورعاً قنوعاً زاهداً ، غير متجاهر بمعصية ، ولا متلصص بمخالفة ، يفعل ما يقول ، فإن ذلك أدعى إلى قبول الموعظة .

مقومات الخطيب الناجح^(١)

قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله : لا شك أن الخطاة مصب خطير ومرتقى صعب الصال ، لا يصل إليها طالبا يسر بل يحتاج متغيا إلى راد عظيم ، وصبر ومعاونة ، واحتمال للشاق ليصل إلى تلك الغاية السامية

والنبي ﷺ هو القدوة لكل ناصح وخطيب ، فمهما اقتدى الخطيب بهدي النبي ﷺ نال من النجاح بقدر موافقته وتوفيق الله عز وجل له

قال الجاحظ : أوتي المهابة ، وغشى الله كلامه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، فلم تسقط له حجة ، ولم تعثر له كلمة ، ولم يعليه خصم ، وإنما أوتي جوامع الكلم ﷺ

وقال الشاعر المصري أحمد شوقي في همزيته :
فإد حطت فللمسائر هزة تعرو الندي وللقلوب نكاء

يريد أن يقول إن الرسول ﷺ إذا حطت تكون للمناير هزة تحت قدميه ﷺ ، وبثأثير بيانه وقوة كلماته هزة تعرو الندي ، وتسيطر على الحاضرين أجمعين ، (وللقلوب نكاء) ، وهذا هو الأهم والأعمق في وصف بيان الرسول ﷺ لأن غاية ما يريد الخطيب أن يبلغه هو أن لا يسمع الناس كلماته فقط ، وإنما يغرس هذه الكلمات في القلوب فتأثر بها فتبقى فيها ، وهكذا كان ﷺ في خطبته وبيانه ، وهكذا ينبغي أن يكون الخطيب الناجح .

• من مقومات الخطيب الناجح الموهبة ، وهي فضل من الله عز وجل ، فليس كل

(١) انظر كتاب لخطبة للشيخ محمد أبو زهرة - ومجلة رسالة المحدث العدد الخامس في الدعوة والبرعة

مقال تعليمي (كيف يكون الخطيب الناجح) بقلم الدكتور عبد الصور مرروق

وكتاب العقد الفريد للفقير أحمد بن عبد ربه الأندلسي .

إنسان يصلح أن يكون خطيباً ، كما أن كل إنسان لا يصلح أن يكون شاعراً ، وقد يتعلم الإنسان الخطابة ، ويتدرب عليها ، لكن الموهبة ركيزة أساسية ذات أثر بعيد في الفشل أو النجاح .

* ومن مقوماته سلامة أدوات الكلام وهي أن يسلم الخطيب من عيوب الطلق المعروفة ، فلا يكون ألثغ ولا ألدغ ، وأن يكون فصيحاً طلق اللسان ، وأن يكون جهوري الصوت وإن كانت مكبرات الصوت الحديثة قد تعي الخطيب في هذه الأزمنة عن ذلك .

* ومن مقوماته السلامة من العيوب الجلقية ، فالوا : يحسن أن يسلم الخطيب من العيوب الجلقية ، فلا يكون أعرج أو ذا عين واحدة قلت وليس بشرط والعرة أولاً سلامة القلب وليست سلامة لحوارج والواقع شاهد بذلك .

* ومن مقوماته دراسة أصول الخطابة . وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين تعرف لدارس طرق التأثير ، ووسائل الإقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغي أن يتحذره من المعاني أو الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها وترتيبها ، وهو يهدد يبر الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة ليربي ملكاته ، ويُنمّي استعداداته ، وهذا العلم ينير الطريق ، ولا يحمل على السلوك ، فهو يرشد دارسه إلى مناهج ومسالك ، ولا يحمله على السير فيها ، وهو يعطيه المصباح ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينيه رمد ، وإن رُسّطوا صاع كتاب الخطابة لم يكن خطيباً ، بل قال فيه الحافظ إنه كان بكىء لسان .

* ومن مقوماته . سعة الثقافة فلا بد للخطيب من كثرة الاطلاع على العلوم المختلفة ، لأنه يواجه موسوعة من البشر فقد يخطب جماعة من الناس وبين يديه العالم والأديب والطبيب والتاجر والعسكري ، ولذا جعلت الثقافة عدة لازمة وضرورية لنجاح الخطيب ، وكان السلف رضي الله عنهم يقدرون ذلك حق قدره ، ويعتبرون صعود المنبر مهمة شاقة ، لا يقوى عليها إلا أولو العزم

وعد سئل أحد الخلفاء لماذا عجل عليك الشيب ؟

فقال : وكيف لا يعاجلني الشيب وأنا أعرض عقلي على الناس كل أسبوع

مرة ١١

• ومن مقوماته : الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب ، وذلك بحفظ كثير من حطب من اشتهر بالفصاحة والبيان ، بعد الكتاب الكريم وسنة النبي ﷺ .

• ومن مقوماته الارتياض والممارسة فلا بد مع توفر المقومات السالفة من المعاناة والممارسة والمران ، لكي يمي مواهبه ولو على شاطئ بحر . وقد كان شيشرون حطّاء الرومان يتمرّن على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها ، ومن الرياضة أن يتحدث بحيد الكلام أو يكتبه كثيراً ، وأن يكون في مرآة الخطابي مجاكياً اللعاء في ساليهم ، أو مقتساً منهم أو سائراً في مثل دربهم ، ومن الرياضة أن يعود نفسه إخراج الحروف من محارحها ، وأن يقرأ كل ما يستحسسه بصوت مرتفع .

• ومن مقوماته : المهابة . قالوا إن الخطيب لا بد أن يكون رجلاً عليه المهابة ، حتى يقع في أعين الناس وقلوبهم أحسن موقع ، والمهابة محة من الله عز وجل ، وبوسعنا أن نصل إليها إذا صلحت منا السرائر .

قال الحافظ . إن الله تبارك وتعالى ألقى على كلام الرسول ﷺ المهابة والحلاوة .

• ومن مقوماته : قوة الشخصية وهي هبة من الله يهبها بعض الناس ، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه وعظم نفسه ، فتستمد كلماته من نفسه قوة تنفذ بها إلى القلوب ، وإذا وهب الله خطيباً تلك الروح ، قاد الجماهير وساقها بعصا موسى ، فلا تشرد منه شاردة ، وبعض الناس تكون شخصيته ضعيفة فيصعد إلى المنبر فيفصد عرقه ، وتضمر سبخته ويصيه ما يصيه ، وهذا شر ما يتعرض له خطيب يواجه الناس .

• ومن مقوماته : حضور البديهة ، والقدرة على امتلاك المواقف المفاجئة ، والسيطرة عليها ، ولنفرص أنك كنت خطيب ، فخرج لك رجل من آخر الصف وقال لك : اسكت ، فإذا سكّت الناس كلهم وسكّت أنت أيضاً فقد انتهت وضاعت خطبتك ، ولكن إذا استطعت ببديهة حاضرة أن تتجاوز هذا الموقف ، فأنت خطيب مقتدر .

ويذكر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه صعد المنبر ، فشردت منه الكلمات ، ففتح الله عليه بما هو أحسن من الخطبة حيث قال : (أيها الناس أستم إلى إمام فعال أخرج منكم إلى إمام قوال) .

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي فحصر^(١) فقال : أيها الناس إني كنت أعددت مقالاً أقوم به فيكم فحجبت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه كما قال في كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله واستغفر الله لي ولكم .

• ومن مقوماته : قوة العاطفة فلا يؤثر إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقاداً بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب بغير استئذان ، وكما أن الماء الذي علا سطحه ينساب في المجرى المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية والحماسة الشديدة ، فلا بد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه ليفيض عليهم .

(١) الحصر : العي في الكلام

هدى النبي ﷺ في الخطابة

خطب ﷺ على الأرض ، وعلى المسر ، وعلى المعبر وساقه
وكان إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، وشدت عصاه ، حتى كأنه صدر
جيش يقول «صبحكم ومساكم» ، ويقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، ويفرن بين
أصبعه السان والوسطى ، ويقول «أما بعد» فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير
الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة^(١) .

وكان لا يحط خطبة إلا افتتحها بحمد الله ، وأما قول الكثير من الفقهاء به
يتمتع خطبة الاستسقاء بالاستعمار وخطبة العيدين بالتكبير ، فليس معهم فيه سنة عن
النبي ﷺ البتة ، وسنته تقتضي خلافه .

وكان يحطّب قائماً ، وفي مراسيل عطاء وغيره أنه كان ﷺ إذا صعد المنبر أقبل
بوجهه على الناس ، ثم قال «السلام عليكم» قال الشعبي (وكان أبو بكر وعمر
يفعلان ذلك)^(٢) .

وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت : (ما أخذت (ق) ، والقرآن
المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب
الناس^(٣) .

وكان مدار خطبه ﷺ على حمد لله ، والثناء عليه بآلاته ، وأوصاف كماله

(١) رواه مسلم في الجمعة (١٥٣/٦) والسنائي (١٨٨/٣ - ١٨٩) في صلاة العيدين باب كيف الخطبة
(٢) حديث صحيح أخرجه عبد الرزاق (٥٢٨١) ورواه أيضاً هو وإس أبي شبة عن أبي أسامة أنه سمع
إسحاقاً يحدث عن الشعبي قال : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر أقبل الناس بوجهه وقال «السلام
عليكم» قال فكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك بعد النبي ﷺ .

(٣) رواه مسلم (١٥٣/٦) في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة والسنائي (١٥٧/٢) في افتتاح الصلاة
باب القراءة في الصبح بـ (ق) .

ومحامده ، وتعليم قواعد الإسلام ، وذكر الجنة والنار والمعاد ، ولأمر بتقوى الله ، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه ، فعلى هذا كان مدار خطبه .

وكان يقول في خطبه : «أيها الناس إتكم لن تطيقوا - أولن تفعلوا كل ما أمرتم به ولكن سدوا وأبشروا»^(١) .

وكان يحطّب كل وقت بما تقتضيه حالة المخاطبين ومصلحتهم ولم يكن يحطّب خطبة إلا امتتحها بحمد لله ، ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة ، ويذكر فيها نفسه باسمه العلم ، وثبت عنه أنه قال : «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء»^(٢) .

وكان منبره ثلاث درجات ، فإذا استوى عليه واستقبل الناس أحد المؤذن في الأذان فقط ، ولم يقل شيئاً قبله ولا بعده ، فإذا أخذ في الخطبة لم يرفع أحد صوته بشيء إلا مؤذن ولا غيره .

وكان إذا قام يحطّب أخذ عصاً فتوكأ عليها وهو على المنبر كذا ذكره أبو داود عن ابن شهاب ، وكان الخلفاء الثلاثة بعده يفعلون ذلك ، وكان أحياناً يتوكأ على قوس ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف ، وكثير من الحيلة يظن أنه كان يمسك السيف على الممر + إشارة إلى أن الدين إنما قام بالسيف .

وكان إذا عرض له في خطبته عارض ، اشتغل به ثم رجع إلى خطبته ، وكان يحطّب فجاء الحسن والحسين يعثران في قميصين أحمرين ، فقطع كلامه فنزل فحملهما ثم عاد إلى منبره ، ثم قال : «صدق الله العظيم : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (التغابن : ١٥) رأيت هذين يعثران في قميصهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما » .

وجاء سليك الغطفاني وهو يحطّب فجلس ، فقال له . «قم يا سليك فاركع ركعتين وتجاوز فيهما» ثم قال وهو على المنبر : «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يحطّب فليركع ركعتين ولتجاوز فيهما»^(٣) .

(١) قطعة من حديث رواه أبو داود في الصلاة باب الرجل يحطّب على قوس وأحمد في المسند (٢١٢/٤) من حديث الحكم بن حزن الكفلي وسنده حسن

(٢) رواه الترمذي في النكاح وأبو داود في الأدب وأحمد وقال المحقق وسنده قوي وحسنه الترمذي وغيره .

(٣) رواه الترمذي في المواقف باب مناقب الحسن والحسين ، وأبو داود في الصلاة ، والسائي في الجمعة ، وابن حبان في الناس وقال المحقق وإسناده حسن ، وحسنه الترمذي .

(٤) رواه المحاري (٢/٣٣٦ ، ٣٣٧) في الجمعة ومسلم (٨٧٥) وأبو داود (١١١٥) في الصلاة والسائي =

وكان يعصر خطبته أحياناً ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس ، وكانت خطبته العارضة أصول من خطبته الراضية ، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد ، ويحرضهن على الصدقة^(١) .

وكان ﷺ إذا رقي المصير يوم الجمعة أخذ بلال في أذان الجمعة ولم يكن إلا أذان واحد ، فإذا أكمله أخذ النبي ﷺ في الخطبة ، ولم يكن أحد يركع ركعتين الستة ، ومن طرأ عليهم كانوا إذا فرغ بلال من الأذان قاموا جميعاً فركعوا ركعتين فهو أحهل الناس بالسنة ، وهذا الذي ذكرناه من أنه لا سنة قبلها هو مذهب مالك وأحمد في المشهور عنه وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي .

أما السنة بعدها فثابتة ، فقد كان ﷺ إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين وكانت خطبته ﷺ بياناً لأصول الإسلام ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره ، التي إنما تغيد أموراً مشتركة بين الحلائق ، وهي النوح على الحياة ، والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ، ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة ، ولا تذكيراً بأيامه ، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه . فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون وتقسّم أموالهم ، ويبلي التراب أحسامهم ، فياليت شعري أي إيمان حصل بهذا ، وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع استفاده السامعون ، ولكن طال العهد ، وحفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأمور رسوماً تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجييع والمقر وعلم البديع ، فنقص بل عدم حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .

١٠٣/٣) وابن ماجه (١١١٢) - زاد المعاد (١/ ١٩٠ ، ١٩١) .

(١) روى البخاري (٣٨٨/٢) من حديث جابر بن عبد الله قال : قام النبي ﷺ يوم المظفر صلى فبدأ بالصلاة ثم خطب فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن .

«من أسباب النصر والتمكين»^(٥)

إن الحمد لله ، نحمده وتستعينه ويستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليماً .

وبعد ، ، ،

مهر المحبة والحنّة ، بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين ، فما للجبان المعرض الممّلس وسوم هذه السلعة ، بالله ما هزلت فيستامها المبطلون ، ولا كسدت فيبيعها بالسيئة المعسرون .

لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد ، فلم يرض ربها لها بثمان دون بذل النفوس ، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن تكون نفسه الثمن ، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

لما كثر المدّعون للمحبة ، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يعطى الناس مدعواهم لا دعى الخلي حرقه الشجي ، فتنوع المدعون في الشهود ، فقبل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الرسول ﷺ في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة ، وقبل لا تقل العدالة إلا بتركية ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (المائدة : ٥٤)

(٥) راد العدد : لايس القيم حياة الصحابة يوسف الكاندهلوي - محاسن التأويل للقاسمي - السلسلة الصحيحة للألباني .

فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المحاهدون ، فقليل لهم إن نفوس
المحبين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد ، فإن الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الحنة ، وعقد التبايع يوجب التسليم من
الجانبين .

لما رأى التجار عظمة المشتري ، وقدر الثمن ، وجلالة قدر من جرى
عقد التبايع على يديه ، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد ، عرفوا أن
للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع ، قرأوا من الخسران البس والغبن
الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس ، تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تبعثها وحسرتها ،
وإن فاعل ذلك معدود من جملة السفهاء ، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان ،
رضاء واختياراً من غير ثبوت خيار ، وقالوا والله لا نقيلك ، ولا نستقيلك ، فلما
تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا ، والآن فقد
رددناها عليكم أوفر مما كانت وأضعاف أموالكم معها . ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦٩) .

فَقَدْ حَدَى بِكَ حَادِي الشُّوقِ فَاطُورَ الْمَرَاكِحِلَا	فَحَيَّهَلَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ
إِذَا مَا دَعَا لَيْبِكَ أَلَمًا كَسَوَامِلَا	وَقُلْ لِمُنَادِي حُبُّهُمْ وَرِضَاهُمْ
فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الْأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلَا	وَلَا تَنْظُرِ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ
وَدَعَا فَإِنَّ الشُّوقَ يَكْفِيكَ خَامِلَا	وَلَا تَنْظُرْ بِالسَّيْرِ رُقَّةَ قَاعِدِ
وَيُضِيحُ ذُو الْأَحْزَانِ فَرَحَانَ جَاذِلَا	فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي

لقد حرك الداعي إلى الله وإلى دار السلام ، النفوس الأبية والهمم
العالية ، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية ، وأسمع الله من كان
حيّاً ، فهزّ السماع إلى دار الأبرار ، وحذا به في طريق سيره فما حطت به رحاله
إلا بدار القرار .

قال رسول الله ﷺ : وما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة
إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث فإن لم يصيبوا الغنيمة ثم
لهم أجرهم ، (١) .

(١) روى مسلم (٥١٩٣ ، ٥٢) لإمامة وأبو داود (٣٤٨٠) جهاد وإسحاق (١٧٦ ، ١٨) جهاد وإس
ماجة (٢٧٨٥) جهاد ، وأحمد (١٦٩٢)

أولياء الله عز وجل موعودون بثلاثة ، بالأجر في الآخرة والعصمة وحلاوة النصر إن ظهروا ، وإن لم يظهروا تم له أجرهم في الآخرة ، فهم في الرشح دائماً كما قال الله عز وجل : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ (فاطر : ٢٩) .

وأعداء الله عز وجل في الخسارة دائماً قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٦) .

وقد وعد الله عز وجل أولياءه بالنصر الممين ، وبالعز والتمكين ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (غافر : ٥١) .

وقال عز وجل : ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴾ (الصافات : ١٧٣) .

وقال عز وجل : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ (المجادلة : ٢١) .

وقال عز وجل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (البور : ٥٥) .

وبشر النبي ﷺ أمته بالعز والتمكين ، رغم أنوف الأعداء والحاسدين فقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ رَوَىٰ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنْ أَمَتِي سَيَلِّغُ مَلَكَهَا مَا رَوَىٰ لِي مِنْهَا » (١) .

وقال ﷺ : « لَيُتْلَفَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا يَلُغُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يَعْزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يَذُلُّ بِهِ الْكُفْرَ » (٢) .

فما هي الأسباب عباد الله التي ينبغي علينا أن نأخذ بها ، حتى يتنزل علينا نصر الله ؟

(١) رواه مسلم (١٧١/٨) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢٧/٧) وصححه وابن ماجه (٢٩٥٢) وأحمد

(٢٧٨٥) من حديث ثوبان وأحمد أيضاً (١٢٣/٤) من حديث شداد بن أوس (صحيحه ٧١)

(٢) رواه أحمد (١٠٣٠٠) وابن بشران في لأمل (١٦٠) وصراي في الكبير وابن مده في كتب الإمام .

• أول ذلك عباد الله أن نتصر دين الله عز وجل بتطبيق شرعه على أنفسنا أولاً وذلك بتحليل حاله وتحريم حرامه وإقامة دينه .

قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد : ٧) .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٤٠) .

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما فقال : « لا يغررك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله ﷺ ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا قالزمه ، فإنه الأمر ، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » .

• ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله الثبات على دين الله عز وجل :

فقد مضت سنة الله عز وجل في خلقه أن أوليائه لا يمكنون في الأرض حتى يختبروا وهذا الاختبار والابتلاء قد يطول بهم .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد : ٣١) .

وقال عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

والحافظ عبد الغني المقدسي في ذكر الإسلام (١/١٦٦) وقال . وحديث حسن صحيح . وإلحاقه

(٤٣٠-٤٣٩) وقال . صحيح عن شريح شيخين ووافقه الذهبي وقال الألباني : هو على شرط

مسلم تحذير الساحد (١٨٩/١٨٨) ورواه أبو دود وشمس الدين والسياني وسألت في الموطأ وهو في

الصحيحة رقم (٣)

مَتَى نَصَرَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿ (البقرة : ٢١٤)

فالرسل هم أوثق الناس بنصر الله عز وجل ، ومع شدة الابتلاء وتأخر النصر يقولون استعجالاً لنصر الله عز وجل : متى نصر الله ؟ وقال الله عز وجل : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ (يوسف : ١١٠) .

وهذا الابتلاء عماد الله من أنفع الأدوية لأولياء الله عز وجل ، وقد ذكر سلطان العلماء العز بن عبد السلام من فوائد الابتلاء سبع عشرة فائدة منها :
• معرفة عز الربوبية وقهرها ، وأن الله عز وجل يتلى من يشاء من عباده بما يشاء ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

• ومنها : معرفه دل العبودية وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٦) . فلولهم : إِنَّا لِلَّهِ ، أي نحن ملك لله عز وجل ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء .

• ومنها : الإخلاص لله عز وجل ، ففي أزمة البلاء يكون العبد أقرب للإخلاص ، حتى المشركين إذا وقعوا في البلاء أخلصوا لله رب العالمين . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٥) .

• ومنها : الإنابة وهي الرجوع إلى الله عز وجل والإقبال عليه قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ (الروم : ٣٣) .

• ومنها : التضرع والدعاء ، فالعبد يكثر من الدعاء في الشدائد ، لحاجته وفقره إلى الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ (الإسراء : ٦٧) .

• ومنها : الصبر على البلاء وهو موجب لمحبة الله عز وجل قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٦) .

وموجب لكثرة الثواب من الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠) .

وقال ﷺ : « ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »^(١)

* ومنها تمحيص الذنوب والخطايا قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (الشورى : ٣٠) وقال ﷺ : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئة »^(٢) .

* ومنها : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلوهم ، فإن العبد إذا أحس بالملابلاء رق قلبه لأهل البلاء ورحمهم

* ومنها : معرفة قدر نعمة العافية ، فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدانها ، فلا يعرف نعمة العافية إلا من ذاق مرارة المرض .

* ومنها : ما في طيتها من الموائد الحفية ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٦) وقال عز وجل : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ ﴾ (النور : ١١) .

ومنها : أن المصائب والشدائد تمنع من الفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن نمرود لو كان فقيراً سقيماً فاقد السمع والبصر لما حاج إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطن الملك على ذلك ، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال : أنا ربكم الأعلى .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (التوبة : ٧٤) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَفِرٌ ﴾ (العلق : ٦) .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ يَسْأَلُ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى : ٢٦) .

* ومنها : أن العبد إذا رضي بما ابتلاه الله عز وجل به نال رضا الله عز وجل ، فإن المصائب تنزل على البر والعاجر ، فمن سخطها فله السخط ومن

(١) رواه البخاري (٣٣٥/٣) في الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة ومسلم (١٤٥/٧) في الزكاة باب فضل التعفف .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٦٤/٢) وقال حديث حسن صحيح وصححه الحاكم (٣٤٦/١) ورواه لهفي ، ورواه أحمد أيضاً (٢٨٧/٢ ، ٤٥٠) ، وروى عنه قتادة بن الربيع بن مالك ، ورواه ابن أبي شيبة (١٥٦٧) المصاييح رقم (١٥٦٧)

رضيها فله الرضا ، والرضا أفضل من جنة الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٧٢) .

ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله أن نطلب العزة بما أعزنا الله عز وجل به :

قال النبي ﷺ : « واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعِزُّه استغناؤه عن الناس » (١) . عن طارق بن شهاب قال : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له ، فنزل عنها وخلع خُفَّيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ، تخلع نعليك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك ، وتخوض بها المخاضة ، ما يسري أن أهل البلد استشفوك فقال : أوه ! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة ، جعلته نكالا لأمة محمد ﷺ ، إنا كنا أذل قوم ، فاعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله .

ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله اجتماع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة والتنازع :

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال : ٤٦) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (آل عمران : ١٠٥) .

ولا تجتمع كلمة المسلمين حتى يجتمعوا على الدين الكامل الذي أنزله الله على نبيه ﷺ ، وتقصير الناس في أجزاء من هذا الدين ، يؤدي إلى الفرقة والتنازع .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا

(١) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وخُرَّجه الحاكم (٣٢٥/٤) وصححه ووافقه الذهبي

حَظًّا بِمَا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١٤﴾ (المائدة :

١٤) .

ومن أسباب النصر والتمكين كذلك عباد الله الرهط في الدنيا والرعة في الآخرة . قال رجل للتابعين لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكنهم كانوا خيراً منكم أزهدي في الدنيا وأرغب في الآخرة ، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول لأعداء الله . أتيسكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

ومن أسباب النصر والتمكين الاستعانة على الظالمين بالدعاء :

كما كان من هديه ﷺ اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأذل الكفر والكافرين ، اللهم إنا نجعلك في نحور أعدائك ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم اجعل تدبيرهم تدميرهم ، اللهم اجعل الدائرة تدور عليهم ، اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ولا يؤمنون بوعدك ، اللهم فرق شملهم ، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بئداً ، ولا تُبق منهم أحداً ، اللهم احفظنا بالإسلام قائمين ، واحفظنا بالإسلام قاعدين ، ولا تشمت بنا الأعداء والحاسدين ، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

فضائل الصحابة رضي الله عنهم^(١)

إن الحمد لله ، وبحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

ثم أما بعد ، ، ،

نعطر مجلسنا عباد الله بذكر فضائل أصحاب محمد ﷺ ، ورضي الله عنهم أجمعين . والصحابي هو من رأى النبي ﷺ ، أو رآه النبي ﷺ ومات على الإيمان ، وإن تحللت بينهما ردة على الراجح ، واشترط بعض العلماء في الراثي أن يكون بحيث يميز ما يرى .

قال ابن حجر رحمه الله : محل نظر ، وعمل من صنف في الصحابة ، بدل على أنه يكتفي بمجرد حصول الرؤية ، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر ، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام ، واشترط بعضهم أن يكون صحب النبي ﷺ سنة فصاعداً ، أو غزا معه غزوة فصاعداً ، والعمل على خلاف ذلك ، لأنهم اتفقوا على عد جمع جم في الصحابة ، لم يجتمعوا مع النبي ﷺ إلا في حجة الوداع .

قال الإمام البخاري ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . وقد وردت عباد الله الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة ، في فضائل الصحابة رضي الله عنهم :

(١) النبوة لاس المحوي - مع الناري شرح صحيح البخاري لاس حجر - شرح الطحاوية - تفسير ابن كثير .

• فمن ذلك قوله عز وجل ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ حُنَاتٍ تَجْرِى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة : ١٠٠)

قال ابن كثير رحمه الله : فقد أحبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فيما وبل من أعصم أو سبهم أو أبغض بعضهم أو سب بعضهم .

• وقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَعَاقِمٍ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح : ١٨ ، ١٩) .

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وعدد المايعين فيها من الصحابة ألف وخمسمائة ، ومن رضي الله عنه لا يمكن موته على الكفر لأن العبرة بالوفاة على الإسلام .

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »^(١) .

• وقال عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

فأثبت الله عز وجل لهم الحيرية على سائر الأمم ولا شيء يعدل شهادة الله تعالى لهم بذلك .

• وقال عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣)

والصحابه رضي الله عنهم هم المشافهون بهذا الخطاب ولا يكون الأخير والشاهد إلا عدلاً .

• وقال عز وجل : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

(١) رواه مسلم (٥٧/١٦ ، ٥٨) عن أم مشر الأنصارية في الفصائل - باب فصائل أصحاب الشجرة ، وم مشر الأنصارية هي امرأة قهدين حارثة

يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ
وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ
يُوْقْ شَعْرَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ (الحشر : ٨) ..

• وقال عز وجل : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ (التحریم : ٨) .

• وقال عز وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا لِيَسَمُّوهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ
فَأَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَكْفِيَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح : ٢٩) .

أما الأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم :

• فمنها ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ :
«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فَنَامٌ مِنَ النَّاسِ ، فَيَقَالُ فِيكُمْ مِنْ صَاحِبِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ لَهُمْ : نَعَمْ ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو
فَنَامٌ مِنَ النَّاسِ ، فَيَقَالُ فِيكُمْ مِنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ :
نَعَمْ ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فَنَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيَقَالُ هَلْ
فِيكُمْ مِنْ صَاحِبٍ مِنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ . فَيَفْتَحُ لَهُمْ»^(١) .

• ومثل هذا حديث وائلة رفعه «لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأني
وصاحبني والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رأني وصاحبني»^(٢) .

• وروى البخاري أيضاً عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال
رسول الله ﷺ : «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال

(١) رواه البخاري (٢/٧) في فضائل الصحابة وسلم (٨٣/١٦ ، ٨٤) فضائل الصحابة باب فضل الصحابة
رضي الله عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهو بالسند (٧/٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة وقله الحافظ في الفتح وإسناده حسن .

عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قريب أو ثلاثة ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ويتدرون ولا يوفون ويظهر فيهم السُّنن^(١) . والمراد بالسُّنن التوسع في الماكل والمشارب

والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، ويطلق القرن على مدة من الزمان ، واحتلهموا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين ، قال ابن حجر رحمه الله : ووقع في حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ، ما يدل على أن القرن مائة وهو المشهور .

واقصى هذا الحديث أن يكون الصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من أتباع التابعين . لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد ، وإلى الثاني بحسب الجمهور والأول قول ابن عبد البر ، والذي يظهر أن من قاتل مع النبي ﷺ ، أو في زمانه بأمره ، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه ، لا يعدله في الفصل أحد كائناً من كان ، وأما ما لم يقع له ذلك فهو محل البحث ، والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ (الحديد : ١٠)

* وفي الصحيحين عن أبي سعيد الحذري رضي الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فبسه خالد فقال رسول الله ﷺ : ولا تسبوا أحداً من أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدُّ أحدهم ولا نصيفه^(٢) .

فيقول النبي ﷺ لخالد ونحوه : ولا تسبوا أصحابي يعني عبد الرحمن وأمثاله لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من

(١) لبحاري (٢٥٨/٥ ، ٢٥٩) الشهادات . باب لا يشهد على شهادة حور إذا شهد ، وفي مسائل أصحاب النبي وفي الرقاق وفي الإيمان ومسلم (٨٧/١٦ ، ٨٨) الفصائل . باب فصل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ورواه الترمذي في المعنى وأبو داود في السنن والنسائي في الأيمان والدور

(٢) رواه البخاري (٢١/٧) مسائل الصحابة . باب قول النبي ﷺ : «لو كنت متعبداً خليلاً» ومسلم (٢٣/١٦) مسائل الصحابة . باب تحريم سب الصحابة وهم في المسند (١١/٣) والترمذي وأبي داود . والنصيف بمعنى النصف أي لو أنفق أحد من الذين أتوا بعد السابقين من الصحابة مثل أحد ذهباً ما بلغ ثواب أحدهم مد من طعام ولا نصيفه

قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، والمقصود أنه ﷺ نهى من له صحة متأخرة أن يسب من له صحة متقدمة، لامتيارهم عنهم في الصحبة، بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو انفق أحدهم مثل أحد دهماً، ما بلغ مدأ سدهم ولا نصيفه، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية وإن كان قبل فتح مكة، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

* قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله عز وجل لصحة نبيه ونقل دينه.

* وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: «إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر فقالت: وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر»^(١).

* وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ، خير من عمل أحدكم أربعين سنة.

قال العلماء: ولو لم يرد شيء من الآيات والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، لأوجبت الحالة التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، والصبر والورع واليقين القطع بتعديليهم والاعتقاد بتزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع الجائين بعدهم.

(١) الذي رواه مسلم قال عروة قالت لي عائشة يا ابن أخي أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ مسوهم أما حديث جابر قال في هامش جامع الأصول في المطبوع أخرجه زين - جامع الأصول

قال الإمام الطحاوي رحمه الله مبيناً عقيدة أهل السنة والجماعة .
(ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ونفضل من
يغضهم وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان
وبغضهم كفر ونفاق وطفیان) .

فقوله رحمه الله : «ولا نفرط في حب أحد منهم» فيه رد على الشيعة في
تفضيلهم علي رضي الله عنه على أبي بكر وعمر وعثمان ، وتكفيرهم الصحابة
رضي الله عنهم إلا القليل ، لقد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة قيل لليهود
من شر أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحاب موسى . وقيل للنصارى من خير أهل
ملتكم ؟ قالوا : أصحاب عيسى . وقيل للشيعة من شر أهل ملتكم ؟ قالوا
أصحاب محمد ﷺ ، ولم يستثنوا منهم إلا القليل ، وفيمن سبهم من هو خير
ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة .

وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على تقديم أبي بكر ، ثم عمر ، ثم
عثمان ، ثم علي ، ثم بقية العشرة المبشرين ، ثم البدرين ، ثم أهل بيعة
الرضوان ، ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .
وقوله رحمه الله (وحبهم دين وإيمان) لأنه موافقة لله عز وجل
ولرسوله ﷺ .

روى الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
«الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً يعتدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن
أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن
آذى الله فيوشك أن يأخذه» (١) .

لله ذر أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها ، وقيدوا شهواتهم بالحواف
وأوثقوها ، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها ، وخلصوا أعمالهم من أشراك
الرياء وأطلقوها ، وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها ، فعن إبعاد

(١) رواه أحمد (٨٧/د) ، (٥٤/٥ ، ٥٧) في المساقف باب من سب أصحاب النبي ﷺ وعند الرحمن بن
رياد قال الذهبي لا يعرف ومع ذلك فقد صححه ابن حبان (٢٢٨٤) وحسنه الترمذي - شرح السنة
(٧١/١٤) تحقيق شعيب الأرمؤوط قلت قال أبو عيسى الترمذي هذا حديث عريب لا نعرفه إلا من
هذا الوجه (٢٤٤/١٣) عارضة

مثلهم وقع نهى النبي ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾
(الأنعام : ٥٢) .

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية ، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص
ضافية ، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية ، والناس في أخلاط والقوم في
عافية ، ففاق المولي منهم على الرئيس القرشي ، ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ (الأنعام : ٥٢) .

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لقيت عبد الله بن جحش يوم
أحد ، فقال . يا سعد ألا تدعو الله عز وجل ؟ فدعا عبد الله فقال : يا رب إن
لقيت العدو غداً فلقي رجلاً شديداً بأسه أقاتله فيك ، ثم يأخذني فيجدع أنفي
وأذني ، فإذا لقيت عدداً قلت : يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول :
فيك وفي رسولك ، فتقول : صدقت .

قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط^(١) .
لله در أقوام تعبوا فأريحوا ، وزهدوا فأببحوا ، جُلِّيت أبصارهم
فشاهدوا ، وأعطوا سلاح المعونة فجاهدوا ، وتأملوا الدنيا وسبروها وعرفوا حالها
وخبروها .

أقبل مصعب بن عمير يوماً إلى رسول الله ﷺ وعليه قطعة من تمرّة قد
وصلها بإهاب فقال رسول الله ﷺ : «لقد رأيت هذا وما بمكة فتى أنعم عند
أبيه منه ثم أخرجه من ذلك الرغبة في حب الله ورسوله»^(٢) .

ولما كان يوم أحد كان معه لواء المهاجرين فصر به ابن قمئة فقطع يده ،
ومصعب يقول : (وما محمد إلا رسول) ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى
فضرب يده اليسرى فقطعها فحنى على اللواء وهو يقول وما محمد إلا رسول ،
فقتل ولم يوجد له كفن إلا تمرّة إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه وإذا
وضعوها على رجله خرج رأسه فجعلوا على رجله شيئاً من الإذخر .
واعلموا عباد الله أن فضائل الصحابة رضي الله عنهم ظاهرة وكان

(١) قال الهيثمي روى الطبراني ورجاله رجال الصحيح - مجمع الروايات (٣٠١/٩ ، ٣٠٢)

(٢) م أوف عليه مع كثره الحديث - سبه صاحب موسوعة أطراف حديث السوي لآس سعد (٨٢/١/٣)

لسبقهم صبيان :

أحدهما : خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين .

والثاني : بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد .

كان أبو طلحة رضي الله عنه يقول لرسول الله ﷺ يوم أحد : فحري دون

نحرك . وقتل يومئذ زوج امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت : يا رسول الله لا أبالي إذا سلمت من عطب .

فسبحان من خصهم بهذه الفضائل ، وحرسهم من القصور والردائل ،

وصلى الله على محمد وآله وأصحابه البررة وسلم تسليماً .

بر الوالدين^(١)

إن الحمد لله بحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وآله وسلم تسليماً .

ثم أما بعد ، ، ،

قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء : ٢٢) .

أمر الله عز وجل بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك فقال عز وجل : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ كما قرن شكرهما بشكره فقال عز وجل : ﴿ أَن أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (لقمان : ١٤) وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل قال : «الصلاة على وقتها» قال : ثم أي ؟ قال : «ثم بر الوالدين» . قال : ثم أي ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله»^(٢) .

والبر اسم جامع للخير ، وهو صد العقوق ، ومعناه الصلة وفعل الخير والتوسع فيه واللفظ والطاعة .

(١) تفسير ابن كثير - تفسير القرطبي - عداه الآلات للسماوي - فصل الله الصمد شرح الأدب المفرد لفصل الله الجيلاني .

(٢) البخاري (٩/٢) موافيت الصلاة : باب فصل الصلاة لوقتها .

وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَنْتَلِفُنْ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خص حالة
الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بر الولد ، لتغير الحال عليهما بالضعف
والكبر ، فألزم في هذه الحالة بين مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ،
لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه ، يحتاجان أن يلي منهما في الكبر ، ما
كان يحتاج في صغره أن يلياه منه ، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر ، وكذلك
طول المكث للمرء يوجب الاستئصال للمرء عادة ، ويحصل الملل ، ويكثر
الضجر ، فيظهر غضبه على أبيه ، وتنتفخ لهما أوداجه ، وأقل المكروه ما
يظهره بنفسه المتردد من الضجر ، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف
بالكرامة ، وهو السالم من كل عيب ، فقال : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ .

قال العلماء : إنما صارت قولة (أف) للأبوين أردأ شيء ، لأنها كلمة تقال
لكل شيء مرفوض ، كما قال إبراهيم لقومه : ﴿ أَفٍ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ ﴾ (الأنبياء : ٦٧) .

فهو للأبوين كفرٌ للنعمة ، وجحد التربية ، ورد الوصية التي أوصى الله
في التنزيل . وقوله : ﴿ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ والنهر هو الزجر والغلظة ، وقوله :
﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي ليناً لطيفاً ، مثل يا أبتاه ويا أماه من غير أن
يسميها ويكنيهما .

قال ابن الهذاج التحيبي : قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من
بر الوالدين قد عرفته إلا قوله : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ما هذا القول
الكريم ؟ قال ابن المسيب : قول العبد المذنب للسيد اللفظ الغليظ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أمر بمزيد من
الشفقة والرحمة ، وأن يكون الإنسان مع أبيه في خير ذلة في أقواله وسكناته
ونظره ، ثم قال عز وجل : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴾ أمر الله
عز وجل عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم ، فينبغي على العبد أن
يرحمهما كما رحماه ، وأن يرفق بهما كما رفق به ، إذ ولياه صغيراً جاهلاً
محتاجاً فأثراه على أنفسهما ، وأسهر ليلهما وجاعاً وأشبعه ، وتعزياً وكسواه ،

فلا يحز بهما إلا أن يبلغا من الكسر الحد الذي كان فيه صغيراً ، فيلي منهما ما وليا منه ، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم .

قال في تنبيه الغافلين : إنه لو لم يذكر الله تعالى في كتابه حرمة الوالدين ، ولم يوص بهما ، لكان يعرف بالعقل أن حرمتها واجبة ، وكان الواجب على العاقل أن يعرف حرمتها ، ويقضي حقهما فكيف وقد ذكر الله تعالى في جميع كتبه التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وقد أمر في جميع كتبه وأوحى إلى جميع رسله ، وأوصاهم بحرمة الوالدين ومعرفة حقهما ، وجعل رضاه في رضى الوالدين وسخطه في سخطهما .

وقال تعالى : ﴿ وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بِالذِّمَةِ حَمَلَةً أُمَّةً وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان : ١٤) .

لما خص الله تعالى الأم بالحمل والوضع والرضاع ، خصها بمزيد الوصية بالبر ، وهذا يوافق ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله : من أحق بحسن صحابتي ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أبوك » (١) .

قال عياض : ذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل في البر على الأب ، وقيل يكون برهما سواء ، ونقله بعضهم عن مالك فروى أن رجلاً قال له إن أبي ببلد السودان ، وكتب إلي أن أقدم عليه ، وأمي تمعني من ذلك ، فقال له أطلع أباك ولا تعص أمك .

وقد سئل الليث عن هذه المسألة ، فأمره بطاعة الأم ، وزعم أن لها ثلثي البر ، وهذا يشير إلى الطريق التي لم يتكرر ذكر الأم فيها إلا مرتين ، وقد أخرج

(١) رواه البخاري (٤٠١/١٠) الأدب : باب من أحق الناس بحسن الصحبة ومسلم (١٠٢/١٦) البر والصلة والآداب : باب بر الوالدين وأنها أحق به .

البخاري في الأدب المفرد : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » (١) .

قال ابن حجر . وجاء ما يدل على تقديم الأم في البر مطلقاً ، وهو ما أخرجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم والبرار بإسناد حسن من حديث عائشة سألت النبي ﷺ « أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال زوجها . قلت فعلى الرجل ؟ قال أمه . »

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن حده أن امرأة قالت : «يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني فقال : أنت أحق به ما لم تنكحي»^(٢) .

فتوصلت لاختصاصها به باختصاصه بها في الأمور الثلاثة

وقوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، وقيل المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ قيل الشكر لله على نعمة الإيمان وللوالدين على نعمة الترس . قال سفيان بن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما .

وقال عروجل . ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان . ١٤) ففي هذه الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق .

وعن أسماء بنت أبي بكر وقد قدمت عليها خالتها - وقيل أمها من الرصاعة - فقالت يا رسول الله إن أُمِّي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال : نعم . قيل . راغبة عن الإسلام . وقال ابن عطية : والطاهر عندي أنها راغبة في الصلة .

(٩) وأخرج ابن ماجة (٣٦٦١) وإسحاق (١٥١/٤) وأحمد (١٣١/٤، ١٣٢) في الصحيحة رقم ١٦٦٦ .

(٢) رواه أحمد و أبو داود مسنداً النصيب (٢٠٠٨) ج ٢ ص ٣٣٧٨

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فصل بر الوالدين :

• منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»^(١) . وقوله «لا يجزي» أي لا يكافئه بإحسانه وقضاء حقه .

• وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال : «جاء رجل إلى النبي ﷺ يبأيه على الهجرة وترك أبويه يكيان فقال ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما»^(٢) .

وفي رواية عن عبد الله بن عمر قال : (قال رجل للنبي ﷺ أجاهد؟ قال : لك أبوان؟ قال نعم . قال : ففيهما فجاهد) أي إن كان لك أبوان فأبلغ جهدك في برهما والإحسان إليهما فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو .

• وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن أبي بردة قال : سمعت أبي يحدث أنه شهد ابن عمر رجلاً يمايلاً يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول :

إني لها بغيرها المذلّل إن أذعرت ركابها لم أذعر

ثم قال : يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال : لا ولا بزفرة واحدة .

• وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يمد له في عمره ، ويمزاد في رزقه ، فليبر والديه وليصل رحمه» .

• وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «رغم أنفه ثم رغم أنفه قيل : من يا رسول الله؟ قال : من أدرك والديه عنده الكبير أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة»^(٣) . ومعنى رغم أنفه : أي لصق بالرغام وهو بالتراب .

(١) مسلم (١٥٢/١٥) العتق - فصل عتق الوالد ، والآداب بر الوالدين وأنهما أحق به .

(٢) رواه البخاري (٤٠٣/١٥) الأدب - باب لا يجاهد إلا بآذن الوالدين ، ومسلم (١١٣/١٦) ، (١٠٤) البر والصلة ، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي عن أنس .

(٣) مسلم (١٠٨/١٦) البر والصلة والآداب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها

ومن بر الوالدين عباد الله .

• النفقة عليهما إذا احتاجا لقول الله عز وجل ﴿ وصاحيتهما في الدنيا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان : ١٤) .

• وقوله عز وجل ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ (الإسراء : ٢٢) ، « حسن من الإحسان ولا من المصاحبة بالمعروف ، أن يمونا خوفاً والولد مؤسراً »

• ومن برهما توقيرهما واحترامهما : روى البخاري في الأدب المفرد وعبد الرزاق والبيهقي عن هشام بن عروة عن أبيه أو غيره أن أبا هريرة أنصهر رجلين فقال لأحدهما : ما هذا منك ؟ فقال : أبي فقال لا تسمه باسمه ولا تمش أمامه ولا تحلس قبله .

وقال طاووس : من السنة أن يوقر أربعة العالم ، وذو الشيبة والسلطان والوالد ، ومن الحياء أن يدعو الرجل والده باسمه .

• ومن برهما دعوتهما إلى الله عز وجل : روى مسلم وأحمد عن أبي كثير السحيمي قال : « سمعت أبا هريرة يقول ما سمع بي أحد يهودي ولا نصراني إلا أحبني ، إن أُمي كنت أريدها على الإسلام فتأبى ، فقلت لها فأبت ، فأتيت النبي ﷺ فقلت ادع الله لها فدعا فأبيتها وقد أحافت عليها الباب . فقالت يا أبا هريرة إني أسلمت فأخبرت النبي ﷺ فقلت : ادع الله لي ولأُمي فقال « اللهم عبدك أبو هريرة وأمه أحبهما إلى الناس »

• ومن برهما صلة أهل ودهما . ففي الصحيح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أبر البر صلة أهل ود أبيه بعد أن يولي » (١) .

• ومن برهما الصلاة عليهما ، والاستعمار لهما ، وإعداد عهدهما بعدهما عن محمد بن سيرين قال كنا عند أبي هريرة ليلة فقال اللهم اغفر لأبي هريرة ولأُمي ولمن استعمر لهما قال محمد . فنحن نستعمر لهما حتى ندخل في دعوة أبي هريرة .

وروى مالك في الموطأ وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد عن أبي

(١) مسلم (١١٠/١٦) البر والصلة والآداب : تفسير البر والإثم .

هريرة قال . «ترفع للميت بعد موته درجته فيقول : أي رب أي شيء هذه ؟ فيقال : ولدك استغفر لك»^(١) .

* ومن برهما قضاء دينهما والحج عنهما والوفاء بتدرهما :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «أتى النبي ﷺ رجل فقال : إن أبي مات وعليه حجة الإسلام أفأحج عنه ؟ قال : أرأيت لو أن أباك ترك ديناً أقضيته عنه ؟ قال : نعم . قال : فأحجج عن أبيك»^(٢) .

أخرجه الشافعي والنسائي وابن ماجه والدارقطني .

ووردت الأحاديث كذلك في السهي عن عقوق الوالدين وبيان أن العقوق من أكبر الكاثر :

والعقوق مشتق من العق ، وهو القطع ، والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل ، إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد . وضبطه ابن عطية بوجوب طاعتها في المباحات فعلاً وتركاً ، واستحبابها في المندوبات وفروض الكفاية كذلك ، ومنه تقديمهما عند تعارض الأمرين ، كمن دعت أمه ليمرضها مثلاً بحيث يفوت عليه فعل واجب إن استمر عندها ، ويفوت ما قصده من تأنيسه لها وغير ذلك لو تركها وفعله ، وكان مما يمكن تداركه مع فوات الفصيلة كالصلاة أول الوقت أو في الجماعة .

* تنبيهات :

* الأول : قال الحافظ ابن الجوزي في قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ . . ﴾ (المنحة : ٨) .

الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين ، وجواز برهم ، وإن كانت الموالاة منقطعة ، وبهذا تعلم أنه لا يجب طاعة الأب المشرك كالمسلم ، لا سيما في ترك النوافل والطاعات ، قال في الآداب الكبرى : وهذا أمر ظاهر ولذا قال الخطابي : لا سبيل للوالدين الكافرين في منعه من الجهاد

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٠) وأحمد (٥٠٩/٢) وابن أبي شيبة في المصنف والأصبهاني في الترغيب والوعوي في شرح السنة ، وقال الألباني : «... من الوصيري » إسناده صحيح « فيه تهازل . »
اصححه (١٢٩/٤) رقم ١٥٩٨ .

(٢) قال الحافظ في التلخيص : وإسناده ضعيف (٢٢٥/٢) .

فرضاً كان أو نفلاً ، وطاعتها حينئذ معصية لله معونة للكفار ، وإساءة عليه أن يبرهما ويطيعهما فيما ليس بمعصية .

* الثاني ذكر شيخ الإسلام أنه ليس لأحد الأبوين أن يلزم الولد بكساح من يريد ، وأنه إذا امتنع لا يكون عاقاً .

* الثالث : قال في الآداب الكبرى : فإن أمره أبوه بطلاق امرأته لم يجب ، ذكره أكثر أصحاب الإمام أحمد وقد سأل رجل الإمام أحمد فقال إن أبي يأمرني أن أطلق امرأتي . قال لا تطلقها قال أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته ؟ قال : حتى يكون أبوك مثل عمر .

* الرابع قال الشيخ موفق الدين في حج التطوع ، إن للوالد مع الولد من الحروح إليه ، لأنه له معه من العرو وهو من فروض الكفايات

* الخامس ينبغي احترام المعلم وتوقيره وقد ذكر بعض الشافعية أن حقه كد من حق الوالد ، لأنه سب لتحصيل الحياة الأبدية والأب سب لحصول الحياة القارية ، وقد قال علماء المصطلح : الأشياء اء في الدين .

* السادس ذكر الإمام ابن عسيل رحمه الله أنه كما يجب الإعصاء عن رلات القرون الثلاثة الذين قال النبي ﷺ : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١) .

وإذا أسميهم بالوالدين يجب توقيهم واحترامهم كما في الوالدين .
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

(١) البخاري (٣/٧) مسائل أصحاب النبي ﷺ عن عمراد بن حصين

من شمائل المصطفى ﷺ (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾
(الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

اعلموا عباد الله أن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس خللاً ، وأفضلهم حالاً ، وأفصحهم مقالاً ، وقد امتن الله عز وجل علينا ببعثته فقال عز وجل :
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) مختصر من كتاب الإعلام بنا في دين الصلوة من فاد وأوهام للإمام القرطبي ، وكتاب الشمائل

لترمذي وعنصر الشمائل للأباني .

رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿ (التوبة : ١٢٨) وَزَكَاهُ اللَّهُ عَرَّ وَجَلَ فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ (القلم : ٤) .

ثم أمرنا الله عز وجل بالافتداء به ﷺ ، والاهتداء بهديه ، والتخلق بأخلاقه ، فقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿ (الأحزاب : ٢١) .

أما كمال خلقته وجمال صورته ﷺ فشيء معلوم لا يُجهل ، معروف لا يُنكر ، فقد كان ﷺ أزهى اللون أبيض مسنير مائل إلى الحمرة ، واسع الجبين ، أدهج العيis (الدعج شده سواد العينين مع سعتهما) وقيل . أكحل ، أهدب الأشعار^(١) ، مفلح الأسنان ، كث اللحية تملأ صدره ، عظيم المنكبين ، رحب الكفين والقدمين ، ليس بالطويل النائر ، ولا بالقصير المتردد ، رجل الشعر^(٢) ، إذا تكلم روي كالنور يحرر من ثنياه .

روى البخاري عن الرءس عازب وسئل أكان رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال : لا . بل مثل القمر^(٣) .

وروى يعقوب بن سفيان عن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للأنبياء بنت مَعُودٍ . صف لي رسول الله ﷺ قال : يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة .

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يضرب شعره إلى منكبيه^(٤)

قال ناعته ما رأيت أحداً في حلة حمراء مرحلاً ، أحسن منه ﷺ ، كان الشمس تجري في وجهه ، وإذا صحك يتلألأ في الحد ، وأحمل الناس من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه

(١) أي طويل الأشعار .

(٢) في شعره حجوة أين تش قليل .

(٣) البخاري في صفة النبي والترمذي في السابق برقم ٣٦٤٠ قال الأناسي وكذا لدرمي (١/ ٣٢) والطبرسي (٢٤١٩) وأحمد (٢٨١/ ٤) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . - محضر الشئل (٢٧) .

(٤) البخاري (٣٥٦/ ١٠) الناس باب الحمد ، ومسلم (٩٢/ ١٥) لفصائل باب صفة شعر النبي ﷺ

قال ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، طيب الرائحة والعرف ، ولقد كان ﷺ يعرف برائحته وإن لم ير ، ولقد كان يضع يده على رأس الطفل رحمة له فكانت تنم عليه رائحة طيبة ﷺ .

وأما فصاحة لسانه ﷺ :

فقد أطل من الفصاحة على كل نهاية ، وبلغ من البلاغة كل غاية ، فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم ، وبدائع الحكم فلقد كان يخاطب كل حي من أحياء العرب بلغتهم ، مع أنه إنما نشأ على لغة بني سعد وقريش ، وكان يعرف لغات غيرهم ، حتى كانوا يتعجبون منه ويقولون : ما رأينا بالذي هو أفصح منك .
وأما نسبه ﷺ :

فمعلوم لا يحهل ، ومشهود لا ينكر ، جده الأعلى إبراهيم ، والأقرب عبد المطلب ، كابرأ عن كابر ، وشريفاً عن شريف ، فهم بين أنبياء فضلاء ، وبين شرفاء حكماء ، فهو ﷺ من خير قرون بني آدم ، وذلك أن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم ، ومن ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاه ﷺ من بني هاشم ، فهو خيار من خيار من خيار ، وكذلك الرسل ﷺ ، تبعث في أشرف أنساب قومها ، ليكون أميل لقلوب الخلق إليهم .

وأما عزة قومه ﷺ :

فقد كانوا في جاهليتهم لم ينلهم سباء ، ولا ظفرت بهم أعداء ، ولا دخلوا في أغلب أزمائهم تحت قهر غيرهم ، بل كانوا قد حازوا الشرف الباهر والمفاخر والمآثر ، هم أوفر الناس عقولاً ، وأقلهم فضولاً ، وأفصح الناس مقالاً ، وأكرمهم فعلاً ، الشجعان الكرماء ، والحكماء الأدباء .

وأما أرضه ﷺ :

فناهيك عن أرض أسس بقينها إبراهيم الخليل ، وأمره بأن يدعو الناس إليها الملك الجليل ، وتولى عمارتها والمقام بها النبي إسماعيل ، وتوارثها الأشراف جيلاً بعد جيل ، وكفى بلدته ﷺ شرفاً ما فعل الله

بملك الحبشة الذي جاء لهدمها ، فلما قرب منها وعزم على هدمها ووجه فيه عليها ، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ (الفيل) .

وأما شريعته ﷺ : فانقسمت إلى أمور عبودية مثل الصلاة والصوم والحج ، وأمور مصلحة وهي التي يعبر عنها بالقوانين الشرعية ، ويقضي العقل منها العجب ، وقد أطل منها ﷺ على أعلى المراتب والرتب ، فقد اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها ، واعتبر أصول مفاسد العالم وحرّمها .

وأصول المصالح إما هي خمسة : المحافظة على صيانة الدماء في أمّيتها ، والأموال على ملائكتها ، والأسباب على أهلها والعقول على المتصفين بها ، والأديان التي بها حياة النفوس وزكاتها .

فأصول الشريعة وإن تعددت صورها فهي راجعة إلى هذه الخمسة .

أما الدماء : فحقتها بأن شرع أن من قتل يقتل ، ومن جرح يجرح ، ومن فحاً عين إنسان فقتل عينه . فإذا علم القاتل أنه يفعل به مثل ما فعل انكف عن القتل ، فحصلت حياة النفوس ، وصيانة الدماء ، ولأجل ذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

وأما الأموال : فصانها على ملائكتها بأن شرع قطع يد السارق للنصاب ، وقتل المحارب ، وغرم مثل المتلف أو المخصوص ، إذا كان مما له مثل ، فإذا علم السارق والمحارب أنهما يعاقبان بما يناسب جنايتهما ارتدعا وانكفا فانحفظت الأموال .

وأما العقول : فحرم استعمال ما يؤدي إلى تلفها وذهابها كالخمر ، ودبت أن ماسط التكليف العقل ، فإذا أدهبه الإنسان بالخمر وما في معناه فقد تعرض لإسقاط التكليف ، وللكفر بالله تعالى بل لكل المفاسد .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبُقْضَاءُ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضَدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿ (المائدة : ٩٠ ، ٩١) .

وأما حفظ الأساب وصيانة احتلاط المياه في الأرحام فشرع الكاح ، وحرم السفاح ، ليستسب كل ولد لوالده ، ويتمير الولي عن مضاده ، ولينصاف كل إلى شيعته ، ويتحقق نسبه بقبيلته ، ولأجل هذا قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ولو لم يكن هذا لارتفع التعارف ولم يسمع ، ولاتسع خرق لا يرفع ، وأما المحافظة على الأديان وصيانتها : فهو المقصود الأعظم ، والمستند الأعظم ، فحرم الكفر والفسوق والعصيان ، وأوجب الطاعات والإيمان وأوجب قتل المرتد وتوعده بالعذاب الدائم والهوان .

ولا يحصى على من معه أدنى مُسْكَة ، إذا تأمل بأدنى فكرة أن الإيمان بالله رأس المصالح والحيورات ، والكفر رأس المفاسد والمهلكات ، ولأجل وجوب الإيمان وتحريم الكفران أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ولأجل ذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنْ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .
وأما صبره وحلمه ﷺ :

فيكفيك من ذلك أنه كسرت رباعيته يوم أحد وشح في وجهه ، فشق ذلك على أصحابه ، فقالوا له : لو دعوت الله عليهم فقال : «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة»^(١) ، ثم قال : «اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون» ، فسطروا عباد الله في هذا القول من حماع الفصل ودرجات الإحسان وحسن الحلق إذ لم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا ، وشمع لهم ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله «قومي» ثم اعتذر عنهم لجهلهم فقال : «فإنهم لا يعلمون»

وكذلك جاء أعرابي جلف جاف ، وكان على النبي ﷺ «برد» غليظ

(١) وفي الألباني : وكسرت رباعيته وشح رأسه ثاب في مسنده (١٧٩/٥) من حديث أس ورواه البخاري مصقاً - فقه السيرة (٢٧٥) بتحقيق الألباني

الحاشية ، فجذبه الأعرابي بردائه جيداً شديداً حتى أثر حاشية البرد في صفحته عنقه ، ثم قال : يا محمد احملني على بعير من مال الله الذي بيدك فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبي ﷺ وقال المال مال الله وأنا عبده ثم قال له : ولم فعلت بي ما فعلت ؟ قال كأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك رسول الله ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر . وكذلك قال له آخر : اعدل يا محمد فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقال النبي ﷺ : «ويلك إن لم أعدل أنا فمن يعدل ؟ أيامني الله على خرائته ولا تأمنوني» (١) .

قال بعض الصحابة : ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى ولا ضرب يده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله . وما ضرب خادماً ولا امرأة .

فقد كان ﷺ أحلم الناس عند مقدرته ، وأصبرهم على مكرهته ، وامثل أمر الله حيث قال له : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٩٩) .

وحيث قال له : ﴿ فَاقْصُصْ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة : ١٣) .

وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن الكبر وحسبك أن الله خيرُه أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً .

قال أبو أمامة : خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا ، فقمنا له فقال : «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً» (٢) وقال : «إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» (٣) .

(١) رواه البخاري (٦١٧/٦ ، ٦١٨) المنافع علامات النبوة في الإسلام وفي مسائل القرآن وفي امتانة المرتدين ، ومسلم (١٥٩/٧) الركاة باب ذكر العوارج وصفاتهم .

(٢) رواه أبو داود (٥٢٠٨) الأدب وضعه لأسى لكن معنى صحيح وقد ثبت النبي في صحيح مسلم (٤١٣) .

(٣) رواه أبو سعد عن يحيى بن أبي كثير مرسلأ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١/١) رقم ٨ .

وكان يركب الحمار ويردف حلقه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ،
ويحيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه محتلطاً بهم حيث انتهى إليه
المجلس .

وقال ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد
فقولوا عبد الله ورسوله »^(١) .

وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السحرة ويحيب^(٢)
وقد حج ﷺ وكان عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم^(٣) هذا كله وقد
أقبلت عليه الدنيا بجدافيرها وألفت إليه أفلاك كبدها فلم يلتفت إليها ولا عأ
بها . وكان ﷺ في بيته في مهنة أهله ، يفتلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع
ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويقم البيت ويعقل
البعير ، ويأكل مع الخادم .
أما خلقه ﷺ :

فيكفيه قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (الفلم : ٤) .
عن سعد بن هشام قال : (سألت عائشة أم المؤمنين فقلت أحبريني عن
خلق رسول الله ﷺ فقالت أما تقرأ القرآن ؟ فقلت بلى فقالت : كان خلقه
القرآن)^(٤) .

ومعنى هذا أنه كان عليه الصلاة والسلام مهما أمره القرآن امتثله ، ومهما
نهاه عنه تركه ، هذا مع ما حبله الله عليه من الأخلاق العظيمة ، التي لم يكن

(١) البخاري (٤٧٨/١) الأسياء : باب قول الله تعالى - ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾
(مريم : ١٦) ، والإطراء - مجاورة الحد في المدح والكذب فيه وذلك أن النصارى أمرطو في مدح عيسى
وإطرائه بالباطل ، وجعلوه ولداً ، فسمهم النبي ﷺ من أن يظفروه بالباطل

(٢) رواه البحاري في البوع برقم ١٠٤٦ والسائي في البوع واس صاحبه في الأحكام ، والترمذي في البوع
برقم ١٢١٥ - مختصر الشمائل (رقم ٢٨٧) والإهالة السحرة الدهن التي تعب ريحها من طول المكث

(٣) رواه الضياء في المختارة من طريق أس وله شاهد عن ابن عباس ورواه البحاري من طريق أخرى عن
أس مختصراً - مختصر الشمائل (٢٨٨) .

(٤) رواه أحمد (٩١٦ ، ١١٢) وسخري في الأدب المفرد (٤٧٧) ، رقم ٣٠٨ وصححه لأساني في صحيح
الجامع (٢٣٨/٤)

أحد من البشر ولا يكون على أجمل منها ، وشرع له الدين العظيم ، الذي لم يشرع لأحد قبله ، وهو مع ذلك خاتم النبيين ، فلا رسول بعده ولا نبي ﷺ فكان فيه من الحياء والكرم والشجاعة والعلم والصفح والرحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يُحد ولا يمكن وصفه .

روى البخاري عن البراء بن عازب قال : «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسن الناس خلقاً»^(١) .

ورواه مسلم بلفظ «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»^(٢)

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط ، لا عبداً ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا نيل منه شيء فينتقم من صاحبه ، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله ، فينتقم لله عز وجل»^(٣) .

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو قال : «لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول إن من خباركم أحسنكم أخلاقاً»^(٤)

وفي صحيح مسلم وعن أنس قال . «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن أنساً غلام كيس ، فليخدمك . قال فخدمته في السفر والحضر ، والله ما قال لي شيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ، ولا شيء لم أصنعه لم تصنع هذا هكذا»^(٥) .

(١) الذي في صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسن خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير (٥٦٤/٦) المنافع باب صفة النبي ﷺ

(٢) مسلم (٧١/١٥) الفضائل : باب حسن خلقه ﷺ .

(٣) مسلم (٨٤/١٥) ، ٨٨ الفضائل : باب مبادئه ﷺ للأثام واختياره من المباح أسهله

(٤) مسلم (٧٨/١٥) الفضائل : كثرة حياته ﷺ ، البخاري (٥٦٦/٦) المنافع . باب صفة النبي ﷺ .

(٥) مسلم (٧٠/١٥) الفضائل : باب حسن خلقه ﷺ

من شمائل المصطفى ﷺ (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
اللهم صل على محمد النبي الأمي ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .
وبعد ، ، ، ،

فهذه تكملة عباد الله لشمائل المصطفى ﷺ .

أما عدله وصدقه وأمانته وصدق لهجته ﷺ : فكان آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان .
اعترف بذلك محادوه وعدائته ، وكان سمي قبل النبوة (الأمين) ؛ وذلك لما جعل الله فيه من الأخلاق الصالحة .

ومما يدل على ذلك ، أن قريشاً لما بنت الكعبة ، اختلف فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ؟ فحكموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا بالنبي محمد ﷺ داخلاً ، فقالوا هذا محمد . هذا الأمين قد رضينا به ، وذلك قبل أن يبعث .

ولقد اجتمع الأخنس بن شريق ، مع أبي جهل يوم بدر ، وكلاهما مخالف له وعدوله ، قد أجمع على قتله وقتاله ، فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فأخبرني عن محمد أصادق أم

(١) مختصر من كتاب الإعلام بما في دين الصاري من مصاد وأوهام للإمام الفرطبي . وكتاب الشمائل لترمذي ومختصر الشمائل للألباني .

كاذب ٤- فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط .

فاعترف أعداؤه بمناقبه ، ولا يقدرّون على إنكار شيء من فضائله ، وأدل دليل على عدله ، وعظيم تواضعه وفضله ، أنه كان قد انتهى به الأمر إلى أن تهابه الملوك ، وتفرق منه الجبابرة ، ومع ذلك فإنه كان يوفي لكل ذي حق حقه ، ويعرف لذي الفضل فضله ، حتى كان يقول : «إني أريد أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في أهل ولا مال» ولأجل ذلك أقاد عكاشة بن محصن من نفسه ، وذلك أنه ﷺ ضربه بقضيب في ظهره غير قاصد لضربه ، فقال له عكاشة إنك قد أوجعتني فأقدني ، (أي مكّني منك حتى أضربك مثلما ضربتني) فكشف له عن ظهره وناولته القضيب وقال : (اضرب) فأكب عكاشة على ظهره يقبّله وقال : إنما أردت أن يمس جلدي جللك .

وأما كثرة جوده وكرمه : فشيء معلوم من شيمه ، فلقد تواتر أنه كان أكرم الناس ، وأحودهم ، حتى أنه ما سئل شيئاً قط فمنعه ، إذا كان ذلك الشيء لا يمنع شرعاً .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرياح المرسلّة^(١) .

وروى مسلم وأحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه . قال : (فأتاه رجل فأمر له بشيء كثير بين جيلين من شاء الصدقة . قال فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي ما يخشى الفاقة) .

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا) .

وكان ﷺ ربما كان السائل لا يجد عنده شيئاً ، فيأخذ له بالدين ويعطيه السائل - حتى يقضيه النبي ﷺ .

(١) البخاري (١١٦/٤) الصوم : باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان ، ومسلم (٦٨/١٥ ، ٦٩) الفضائل : باب جوده ﷺ

وكان معروفاً من شيمه ﷺ قبل بعثته ، حتى قالت له حديجة رضي الله عنها . إنك لتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر .

وأما شجاعته ونجدته ﷺ : فكان منها بالمكان الذي لا يجهل ، وحظه منها الحظ الأوفى الأفضل ، فقد كان مارس الضراب ، ووقف موافق الصعاب ، لا يبالي بكثرة العدد ، ولم يفرق أمام أحد ، وما من شجاع إلا وقد أحصيت له قرة ، وإن كان له بعدها كرة إلا هو ﷺ ، فلم يدبر قط منهزماً ولا فارق مكرهاً ملتزماً .

كان علي بن أبي طالب يقول : كنا إذا اشتد البأس وحميت الحرب اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنا يوم بدر بلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، ولقد كانت الصحابة تقول إن الشجاع ما للذي يقوم بجانبه يستر به .

وقيل لـ (أس) أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ فقال . لكن رسول الله ﷺ لم يفر .

ثم قال . لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان أخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول :

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»^(١)

قيل : فما رأي يومئذ أحد كان أجراً منه ولا أشد ، وقد روي عنه أنه نزل عن بغلته متوحهاً نحو العدو .

وقال العباس بن عبد المطلب : لما التقى المسلمون والكفار يوم حنين ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي ﷺ يركض بغلته نحو الكفار قال ابن العباس وأنا أخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة دات

(١) رواه البخاري (٢٧/٨، ٢٨٠) المعازي . باب قول الله تعالى ﴿ويوم حنين إذ أعجنتكم كثيرنكم﴾ ومسلم (١١٧/١٢، ١١٨) الجهاد . باب غزوة حنين والترمذي في الجهاد

ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فلتقاهم رسول الله ﷺ راحعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا لم تراعوا . قال : وحداء بحراً أو به لبحر^(١) (والبحر الواسع الحري) قال : وكان فرساً يبطاً .

وأما وفاؤه بالوعد :

فلا يتمارى فيه إلا حسيس وغد ، فقد كان ﷺ أحفظ الناس بعهد ، وأوفاهم بميثاق ووعد ، وأحسهم جواراً ، وأصدقهم قولاً وأخباراً ، وكان المعلوم من سيرته ﷺ أنه كان يعقد السهود والمواثيق بيه وبين أعدائه ، وغيرهم فيمي بها ويؤدنها بأقصائها عند تمامها ، ولم يغدر قط في شيء منها ، ولقد كان هذا معروفاً عند أعدائه ، كما هو معروف عند أوليائه .

ولما سأل هرقل ملك النصارى كفار قريش عن صفات النبي ﷺ قال : فهل يغدر ؟ قالوا : له لا . فقال لهم . كذلك الرسل لا تغدر^(٢) وكيف يغدر ﷺ وهو يقول : «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به يقال هذه غدره فلان»^(٣)

ولقد جاءه المغيرة بن شعبة مسلماً ، وجاء معه بمال قوم من الجاهلية كان قد صحبهم ثم قتلهم وأخذ أموالهم . فقال له النبي ﷺ : «أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء» .

ولما بلغ ملك عمان أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام قال : والله لقد دلني على هذا أن هذا نبي ، أنه لا يأمر بخير إلا كان أول أخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، وفي بالعهد ، وينجز الموعد ، أشهد أنه نبي .

(١) رواه مسلم (٦٧/١٥ ، ٦٨) المصائل باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب واللمظ له والسخاري (٥٨/٦) الجهاد باب اسم العرس والحصار باختصار وأبو داود والترمذي

(٢) قصة هرقل مع أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه في كتاب الوحي من صحيح البخاري (٣١/١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

(٣) رواه مسلم (٤٣/١٢) الجهاد . باب تحريم الغدر واللمظ له والسخاري (٦٨/١٣) الفتن . سأل إذا قال عند قوم شيئاً ثم غرر فقال خلافة ورواه أحمد (٤٨/٢ ، ٩٦) .

وأين هذا عباد الله مما يحكي اليهود والنصارى في كتبهم ، من أن موسى عليه السلام لما أراد الخروج من مصر استعار حُلِيَّ بني إسرائيل ، ثم فر بها ليلاً .

وعند الانتهاء إلى هذا المقام ، يعلم العاقل ما في كتب القوم من الأباطيل والالوهام ، وموسى عليه السلام مبرأً عن القائض والآثام .

ومن وفاته بالعهد وقيامه في حفظه بالحد ، أنه قدم عليه وفد النجاشي فقام ﷺ يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نحن نكفيك ، فقال : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنني أحب أن أكافئهم »

وحقيقة الوفاء بالعهد تتميم ما ربط من العقد ، ومراعاة ما تقدم من الود ، ومكافأة من له يد ، وقد كانت هذه الخصال اجتمعت فيه لئلا نزاعه في ذلك أحد .

وأما حسن سمته وتؤدته وكثرة حياته ومروءته .

فشيء لا يجحد ولا يجهل ، ولا يلحقه في شيء من ذلك أحد .
كان ﷺ كثير الصمت والوقار ، طويل الإطراق والاعتبار ، تكسو هيئة وقاره جلساءه ، حتى إذا جلسوا بين يديه ، كأن على رؤوسهم الطير إعظاماً له وهيبة منه .

مجلسه أوفر المجالس ، لا يسمع فيه صخب الأصوات ، ولا اختلاط اللغات ، ليس فيه مرأء ولا جدال ، ولا للهجر والفحش فيه مجال ، لا تؤبن في مجلسه الحرم ، ولا يغض فيه من الأقدار والقيم ، بل كان مجلس علم ، وأصحابه يعظمون في مجلسهم معه حرمة الله ، ويتعلمون منه أحكام الله ، فتارة يعلمهم بأمور الآخرة كأنهم ينظرون إليها ، وأخرى يعلمهم أحكام شريعته كي يعملوا بها

روى البخاري عن أبي سعيد قال : كان النبي ﷺ أشد حياة من العذراء في خدرها^(١) .

(١) روى البخاري (٥٢١/١٠) الأدب باب الحياة ومسلم (٧٨/١٥) فضائل النبي ﷺ . باب كثرة حياته ﷺ .

وروى أبو داود عن عائشة قالت : « كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل ما بال فلان يقول ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا وكذا »^(١)
وروي في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً إني أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر »^(٢)
وروى البخاري عن عائشة : « أن رسول الله ﷺ كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه »^(٣)
وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : « ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه »^(٤).

وكان كلامه ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه ، وربما تكلم بالكلمة ثلاثاً حتى تفهم عنه ، وكان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه ، وكان إذا مر بقوم يسلم عليهم ثلاث ، وكان ﷺ يحافظ على مروءته ، وعلى استقامة حالته ، وتحسين هيئته ، يمشي هوناً كأنما ينحط من صلب
وكان ﷺ يحب الطيب وقال ﷺ « أحب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »^(٥).

وكان يستعمل السواك ﷺ وحصال المفطرة
وأما خوفه من الله تعالى واحتجاده في عبادته . فقد بلغ من ذلك إلى حد لم يبلغه أحد من الخليقة ، ودلت أن الله تعالى كلفه من وطائف العبادات ما لم يكلف أحداً على الحقيقة ، وهو مع ذلك لا يقصر في شيء منها ، بل كان يبذل غاية احتجاده ووسعه في أدائها ، فمن العبادات التي كلف بها بحمل أعباء الوحي ومشقة ثقله ، فقد كان يزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد . فيمصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

(١) رواه أبو داود عن عائشة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٣/٤) رقم ٤٥٦٨
(٢) أحلاف لسي ﷺ وأخرجه أبو داود (٤٨٦٠) ، الترمذي (٣٨٩٣) والوليد بن أبي هشام مجهول هامش شرح السنة (١٤٨/١٣) تحقيق شعيب الأريؤوط .
(٣) رواه البخاري (٥٦٧/٦) الباحث .
(٤) رواه البخاري في الأصحمة باب ما عاب النبي ﷺ طعاماً ، ومسند في الأثرية باب لا يعيب طعاماً
(٥) رواه النسائي (٦١٧) عشرة أساء ، وأحمد (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والحاكم (٨٦٠/٢) اسكاح وقال صحيح على شرط مسلم ومخرجاه ووافقه الذهبي وصححه الألباني

ولأجل هذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل :

١٥ .

فكان ﷺ يعرض نفسه ودينه على قبائل العرب وعلى وفودها إذا قدموا مكة لمواسم الحج ، فيعيب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، فيردون عليه قوله ، ويكذبونه ، ويسبونونه ، ويؤذونه بأقصى ما يمكنهم من أنواع الأذى ، فيصبر على ذلك ويحتسب ما يلقاه على الله ، فلسان حاله ينشد .

لا أبالي إذا رضيت إلهي أي أمر من الأمور دهاني فأقام على ذلك بمكة اثني عشرة سنة ، يدعو الناس من غير قتل ولا قتال ، وذلك كله ليظهر الإسلام ، وتنتشر دعوته ، لئلا يكون لأحد حجة على الله ورسوله .

وبعد ذلك أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة ، ففارق أهله وعشيرته وحاله وماله وولده وبلده ، ولم يعظم عليه مفارقة شيء من ذلك في ذات الله ، فترك كل ذلك إلى الله فوقع أجره على الله .

فلما حل بالمدينة افترض الله عليه القتال ، فقاتل في ذات الله جميع من كفر بالله غير مقصر في ذلك ولا معرط بل جادا مجتهداً ، حتى أظهر الله دينه وإن رغمت أنوف الحاحدين . وفي كل ذلك الزمان كان يقوم بوظائف الشريعة وعباداتها ، فصلى حتى تورمت قدماه ، وصام حتى كان القاتل يقول لا يفطر لكثرة ما كان يرى من صومه ووصاله .

وكان يذكر الله ويعظمه ويُمجِّدُه ويشكره على كل أحواله من غير تفصيل ولا فتور ، ولا تشغله عبادة عن عبادة ، ولا عمل زمان عن عمل زمان آخر . وكان عمله دائماً ، وكذلك كان يقول ﷺ : «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١) فكان يراعي أنفاسه مع الله لا يضيع شيئاً مما كلفه خوفاً من الله وكان يقول ﷺ : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(٢) .

(١) رواه البخاري بمعناه في كتابات التهجد . باب ما يكره من التشديد في العبادة ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها عن عائشة بلفظ : «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل» .

(٢) رواه مسلم (٧٢/٦) الصلاة . باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل واللفظ له . ورواه البخاري =

وكان يقول : «والله إنني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»^(١) .

ووصف خوفه يطول ، ومعرفة ذلك من حاله لا ينكره عليم ولا جهول إذا كان من أهل الإنصاف والعقول .

وعلى الجملة فمناقبه الشريفة لا تحصى ، وما خص به من الأخلاق الكريمة عديد الحصى ، كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى له : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم : ٤) .

وما عظمه العظيم فهو عظيم ، وكيف لا يكون كذلك وقد بعثه الله متمماً لمكارم الأخلاق .

(١/١٠١) الإيمان باب أحب العمل إلى الله أقومه ورواه السائي وأبو داود ومالك في الموطأ
(١) رواه البخاري في النكاح . باب الترهيب في النكاح لقوله تعالى : ﴿فَاتَكَهَّوْا مَا طَبَّ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾
ومسلم في الصيام وأحمد (٦/٦٧ ، ١٣٣) وأبو داود في الصوم ومالك .

فضائل شهر رمضان^(١)

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلَحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .

أما بعد ، ، ،

(فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) .

ثم أما بعد ، ، ،

قال الله عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا

(١) غالية المواعظ للآلوسي - اللطائف لابن رجب الحنلي - اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان لإبراهيم بن عبد فتح الناري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني

الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿البقرة : ١٨٥﴾ .

يا من طال غيبته عنا قد قربت أيام المصالحة .

يا من دامت خسارته ، قد أقبلت أيام التجارة الرباحة .

من لم يربح في هذا الشهر ، ففي أي وقت يربح

من لم يقرب فيه من مولاه فهو على بعده لا يرح .

عباد الله هبت على القلوب نَفْحَةٌ من نفحات نسيم القرب ، سعى

سِمَسار المواعظ للمهجورين في الصلح ، وصلت البشارة للمنقطعين بالوصل ،

وللمذنبين بالعفو ، والمستوجبين النار بالعق .

لما سُئِلَ الشيطان في شهر رمضان ، وخمدت نيران الشهوات

بالصيام ، انعزل سلطان الهوى ، وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل ، فلم

يبق للعاصي عذر ، يا غيوم الغفلة عن القلوب تفشعي ، يا شمس التقوى

والإيمان اطلعي ، يا صحائف أعمال الصائمين ارتفعي ، يا قلوب الصائمين

اخشعي ، يا أقدام المتجهدين اسجدي لربك واركعي ، ويا عيون المجتهدين

لا تهجعي ، يا ذنوب التائبين لا ترجعي ، يا أرض الهوى ابلعي ماءك ويا سماء

النفوس اقلعي . يا خواطر العارفين ارتعي ، يا همم المحبين بغير الله لا

تقنعي ، قد مدت في هذه الأيام ، موائد الإنعام للصوام ، فما منكم إلا من

دعى ، ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ (الأحقاف : ٣١) .

قطوبى لمن أجاب فأصاب ، وويل لمن طرد عن الباب وما دعى .

قال المعلّى بن الفضل . كان السلف يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم

رمضان ، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبله منهم .

وقال يحيى بن أبي كثير : كان من دعائهم اللهم سلمني إلى رمضان ،

وتسلمه مني متقبلاً .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

﴿ إِذَا جَاءَ رَمَضَانَ فَتُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ﴾^(١) .

(١) البخاري (١١٢/٤) الصوم . هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومسلم (٨٧/٧) أول كتاب الصوم رقم

(١٨٩٨) .

وله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان قُتِحَتْ أبواب السماء ، وَغُلِّقَتْ أبواب جهنم ، وسُلبت الشياطين »^(١) وفي روايه عند مسلم « قُتِحَتْ أبواب الرحمة »^(٢) .

قال عياص : يحتمل أنه على طاهره ، وحقيقته أن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر ، وتعظيم حرمة ، ولمنع الشياطين من أدى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصنفدين .

قال : ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة وغلقت أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصي الآيلة بأصحابها إلى النار ، وتصفيد الشياطين عبارة عن إعجازهم عن الإغواء وتزيين الشهوات .

وهذا الشهر عباد الله مدرسة ربانية رحمانية تفتح أبوابها كل سنة شهراً كاملاً يتدرب فيه العباد على طاعة الله عز وجل والإمساك عن معاصيه ، فهو شهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن والصدقة والعمرة وسائر الطاعات .

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جنة وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه »^(٣) .

والصيام في اللغة هو الإمساك ، وفي الشرع إمساك مخصوص في زمن مخصوص بشرائط مخصوصة . فهو إمساك المكلف بالنية عن الطعام والشراب والشهوة من الفجر إلى المغرب .

وفي التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد :

- (١) البخاري (١١٢/٤) الصوم - رقم ١٨٩٩ .
- (٢) مسلم لمعط (إذا كان شهر رمضان قُتِحَتْ أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسُلبت الشياطين) (١٨٧/٧) الصيام : بيان فضل الصيام .
- (٣) البخاري (١٠٣/٤) الصوم باب فضل الصوم ومسلم (٣٢/٨) في الصيام . باب فضل الصيام .

* منها كسر النفس ، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبَطَر والغفلة .

* ومنها تخلي القلب للفكر والذكر ، فإن تناول هذه الشهوات قد يقسي القلب ويعميه ، وحلو الطن من الطعام والشراب ، ينور القلب ويوجب رفته ويزيل قسوته ويخليه للفكر والذكر .

* ومنها أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بامتناعه عن هذه الشهوات في وقت محصوص ، وحصول المشقة له بذلك بتذكر من مع من ذلك على الإطلاق فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى ، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك .

* ومنها أن الصيام يضيق محاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم ، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر سورة الشهوة والغضب ، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم وجاء ؛ لقطعها عن شهوة النكاح .

ولا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك الشهوات المباحة في غير حالة الصيام ، إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال ، من الكذب والظلم والاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، ولهذا قال النبي ﷺ : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»^(١) . قال بعض السلف : أهون الصيام ترك الشراب والطعام .

وقال جابر : إذا صُممت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك سكينة ووقار يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء .

وكان السلف إذا صاموا جلسوا في المساحد وقالوا : نحفظ صومنا ولا نغتاب أحداً .

(١) روه البخاري (١١٦/٤) في الصوم : باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم وفي الأدب باب قول الله تعالى : «واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» ورواه أبو داود (٤٨٨/٦) في الصوم باب الغيبة والتمدي (٢٢٦/٣) باب ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم .

والصائمون على طبقتين : أحدهما من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى يرحو عنده عوض ذلك في الجنة ، فهذا قد تاجر مع الله وعامله والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يحيب معه من عامله بل يريح عليه أعظم الريح ، فهذا الصائم يعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب وساء ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة : ٢٤) .

قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ غَيْرُهُمْ»^(١) . وفي رواية : (فإذا دخلوا أغلق) وفي رواية (من دخل منه شرب ومن شرب لم يطمأ أبداً) .

والطبقة الثانية من الصائمين من يصوم في الدنيا عما سوى الله ، فيحفظ الرأس وما حوى ، ويحفظ البطن وما وعى ، ويذكر الموت والبلى ويريد الآخرة فيترك ربة الدنيا ، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته .

أهل الخصوص من الصوام صومهم صون اللسان عن البهتان والكذب والعارفون وأهل الأنس صومهم صون القلوب عن الأغيار والحجب

العارفون لا يسليهم عن رؤية مولا هم قصر ، ولا يرويههم دون مشاهدته نهر همهم أحل عن ذلك .

من صام عن شهواته في الدنيا أدركها غداً في الجنة ، ومن صام عما سوى الله فعيده يوم لقائه ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ (العنكبوت : ٥) .

وقوله عز وجل في الحديث القدسي : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» معناه أن الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سعمائة ضعف ، إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد ، بل يضاعفه الله عز وجل أصعافاً كثيرة ، بغير حصر عدد فإن الصيام من الصبر وقد قال الله تعالى :

(١) البخاري (١١١/٤) في الصوم - باب الريان للصائمين ومسلم (٣٢/٨) في الصيام - باب فصل لصيام

﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠)

وقبل الحكمه في إصافه الصيام إلى الله عز وجل ، أن الصيام هو ترك لحظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها ، من الطعام والشراب والكاح ، ولا يوجد ذلك في غيره من العبادات .

قال بعض السلف : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعده غيب لم يره .
وقيل : لأن الصيام سر بين العبد وربه لا يطلع عليه غيره ، لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله ، وترك لتناول الشهوات التي يستخفي بتناولها دائماً ، ولذلك قيل لا تكتسه الحفظة ، والله عز وجل يحب من عباده أن يعاملوه سراً .

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما أنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (القدر : ١) .

كان الزهري إذا دخل رمضان قال : إسماعيل هو تلاوة القرآن ، وإطعام الطعام . قال ابن عبد الحكم : كان مالك إذا دخل رمضان يقرأ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم ، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف .
والشهر عباد الله مجاهدة بالليل والنهار ، فكما أن العبد يجاهد نفسه بالصيام ويلزمها بأحلاق الصائمين ، يجاهد نفسه كذلك بالقيام تشبهاً بالصالحين . قال رسول الله ﷺ : «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»^(١) .

وكان عمر رضي الله عنه قد أمر أبي بن كعب وتميم الداري أن يؤمّا بالناس في شهر رمضان ، فكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة ، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام ، وما كانوا ينصرفون إلا قرب الفجر .

(١) رواه البخاري (٢٥٠/٤) التراويح : باب فضل من قام رمضان .

والشهر كذلك عباد الله تدريب على الإتفاق وكثرة الجود ، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ أحود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة (١) .

فقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان جوده لله وفي استغاء مرضاته ، وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور ، كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضاً ، فإن الله جبلة على ما يحبه من الأخلاق الكريمة ، وكان على ذلك من قبل البعثة .

ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك ، فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام ، ويدرسه الكتاب الذي جاء به إليه ، وهو أشرف الكتب وأفضلها ، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق ، فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود . وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة .

• منها : شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه ، فإن العمل يشرف ويزداد ثوابه لشرف الزمان ، أو المكان ، أو لشرف العامل وكثرة تقواه .

• ومنها : إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعتهم ، فيسئو جب المعين لهم مثل أجرهم ، كما أن من جهز غارياً فقد غزا ، ومن حلقه في أهله فقد غزا .

• ومنها : أن شهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعق من النار لا سيما في ليلة القدر ، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء . كما قال ﷺ : « إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عَابَدَهُ الرَّحْمَاءُ » (٢) .

(١) رواه البخاري (١١٦/٤) الصوم . باب أحود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان ، ومسلم (٦٨/١٥) .

(٦٩) المسائل : جوده ﷺ

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن جرير وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٧ ، (٢٩٣ ٢)

فمن حاد على عباد الله حاد الله عليه بالعطاء والفصل والحزاء من جنس العمل .

• ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر أنا . قال : من تبع منكم اليوم الجنابة ؟ قال أبو بكر أنا . قال من تصدق بصدقة ؟ قال أبو بكر : أنا . قال فمن عاد منكم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : ما اجتمعت في امرئ إلا دخل الجنة » (١) .

• ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا ، وانقاء جهنم والمباعدة عنها ، وقد قال ﷺ : « الصيام جنة » (٢) وقال ﷺ : « الصدقة تطفيء الخطيئة » (٣) .

قال أبو الدرداء : صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القصور ، صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور ، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير

• ومنها : أن الصيام لا بد أن يقع فيه - تلل أو نقص ، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل ، ولهذا وجب في آخر شهر رمضان زكاة الفطر طهرة للنصائم من اللغو والرفث .

• ومنها : ما قاله الشافعي رحمه الله : أجب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان ، اقتداء برسول الله ﷺ ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ، ولتشاغل كثير منهم بالصوم عن مكاسبهم . اللهم تقبل منا صيامنا وقيامنا اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وحاضرين وعائينا وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٢/٣) ، (١١٠/٧) والبخاري في الأدب المفرد (٧٥) - أحكام الجنائز ٦٩

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وتقديم تخريجه

(٣) لم أقف على لفظه وقد روى الترمذي عنه ﷺ « إن الصدقة لتطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء » وحسنه

الترمذي ولكن ضعفه الألباني في إرواء حديث ٨٨٥ (٣/٣٩٠) وذكره الألباني في الصحيحة رقم

١٩٠٨ (٤/٥٣٥) بلفظ « صدقة السر تطفيء غضب الرب » وقال حفظه الله بعد ذلك ذكر طرق حديث

وحسنه لقول أن الحديث مجموع طرفه وشواهد صحح لا ريب بل يلحق بالمواتر عند بعض المحدثين

المتأخرين

وظائف العشر الأواخر وليلة القدر ووداع الشهر^(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستعفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رُؤُوسَهُمَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

(فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) .

عباد الله : هذا شهر رمضان قد انتصف ، فمن منكم حاسب نفسه لله وانتصف ، من منكم عزم قبل غلق أبواب الجنة أن يبنى له فيها غرفاً من فوقها غرف .

(١) لطائف المعارف لابن رجب - فتح الباري لابن حجر

ألا إن شهركم قد أخذ في النقصان فزيدوا أنتم في العمل ، فكأنكم به وقد انصرف ، فكل شهر فعسى أن يكون منه خلف ، وأما شهر رمضان فمن أين لكم منه خلف .

تَنَصَّفَ الشَّهْرُ وَالْهَفَاءُ وَانْهَدَمَا وَاخْتَصَّ بِالْفُوزِ بِالْجَنَاتِ مَنْ خَدَمَا
وَأَصْبَحَ الْغَافِلُ الْمُسْكِينُ مُنْكَسِرًا مِثْلِي فَيَا وَيْحَهُ يَا عِظَمَ مَا حُرِمَا
مَنْ فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ الْبَذَارِ فَمَا تَرَاهُ يَحْصُدُ إِلَّا الْهَمَّ وَالنَّدَمَا
طَوْبَى لِمَنْ كَانَتْ التَّقْوَى بِضَاعَتَهُ فِي شَهْرِهِ وَيَجْبُلُ اللَّهُ مُعْتَصِمَا

في الصحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره وأحيا ليله ، وأيقظ أهله » (١) .

ولمسلم عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره » (٢) .

وقد تضمن حديث عائشة رضي الله عنها ثلاثة أشياء ، كان يحص بها رسول الله ﷺ من العشر الأواخر .

أولها : شد المئزر واختلفوا في تفسيره فمنهم من قال هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة ، وقيل المراد اعتزاله للنساء ، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون .

وقد كان النبي ﷺ غالباً يعتكف العشر الأواخر والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنص والإجماع .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ (البقرة : ١٨٦) وقد قالت طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَانَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة : ١٦٨) .

إنه طلب ليلة القدر والمعنى في ذلك أن الله تعالى لما أباح المباشرة في ليالي الصيام ، أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر ، لئلا يشتغل المسلمون في طول

(١) البحاري (٢٦٩/٤) الصوم باب العمل في العشر الأواخر من رمضان .

(٢) الترمذي (١١/٤) ومسلم (٧٠/٨) الاعتكاف : باب الاجتهاد في العشر الأواخر

ليالي الشهر بالاستمتاع المباح ، فيفوتهم طلب ليلة القدر .

ويقول عائشة رضي الله عنها « أَحْيَا لَيْلَهُ » يحتمل إحياء الليل كله ، ويحتمل أن المراد إحياء غالب الليل ، ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت : « ما أعلمه ﷺ قام ليلة حتى الصباح »^(١) .

وقولها رضي الله عنها : « وأيقظ أهله » يدل على أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيرها من الليالي .

وخرج الطبراني من حديث عليّ أن النبي ﷺ « كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان وكل صغير وكبير يطبق الصلاة »^(٢) .

قال سفيان الثوري : أحب إليّ إذا دخل العشر الأواخر ، أن يتهجّد بالليل ، ويتهجّد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما : « ألا تقومان فتصليان »^(٣) .

ومما كان يخص به رسول الله ﷺ العشر الأواخر من رمضان تأخير الفطور إلى السحور وهو المواصلّة إلى السحر ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : لا تواصلوا فأياكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر . قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ، قال : « إني لست كهيتكم ، إني أبيت لي مطعم بطعمني وساق يسقيني »^(٤) .

وزعم ابن جرير رحمه الله أن النبي ﷺ لم يكن يواصل إلّا إلى السحر خاصة وأن ذلك يجوز لمن قوي عليه ويكره لغيره .

ومما كان يخص به رسول الله ﷺ العشر الأواخر .

(١) في مسلم عن عائشة بلفظ « وما أبيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتى الصباح وما صام شهراً متابعاً إلا رمضان » (٢٩/٦) صلاة الليل والوتر .

(٢) قال الهيثمي روى الترمذي باختصار ورواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى باختصار عنه وفي إسناده الطبراني عدل العارفين القاسم وهو ضعيف وإسناده أبي يعلى حسن - مجمع الروائد (١٧٤/٣)

(٣) البخاري (١٠/٣) التهجد باب تعريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب

(٤) البخاري (٢٠٨/٤) الصوم باب الوصال إلى السحر .

الاعتكاف : ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى (١)

وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في العشر التي يطلب فيها ليلة القدر ، قطعاً لأشغاله ، وتفريغاً لباله ، وتخلياً لمناجاة ربه ، وذكره ودعائه ، وكان يحتجر حصيراً يتخلى فيها عن الناس فلا يحالطهم ولا يشتغل بهم ، ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتحلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات ، فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات ينهى عنها .

فمعنى الاعتكاف وحقيقته ، قطع العلائق عن الخلائق ، للاتصال بخدمة الخالق ، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال .

روى البخاري عن عائشة رضي عنها زوج النبي ﷺ قالت : « وإن كان رسول الله ﷺ ليدخل رأسه وهو في المسجد فأرجله ، وكان لا يدخل إلا لحاجة إذا كان معتكفاً » (٢) .

وفسره الرهري بالبول والغائط ، وقد اتفق العلماء على استثنائهما واختلقوا في غيرهما من الحاجات كالأكل والشرب ، والجمهور على أنه لا يكره في المسجد ، وعن مالك تكره فيه الصنائع والحرف حتى طلب العلم .

ومن شرف هذه العشر عباد الله ، أن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر في وتر منها ، قيل في ليلة إحدى وعشرين ، وقيل في خمس وعشرين ، وقيل في سبع وعشرين وهو أصحها وأشهرها دليلاً ، وقيل لا يبعد أن تكون ليلة القدر دائرة بين أوتار العشر وليست في ليلة منها ولا تخرج عنها .

وحكى ابن كثير هذا الوجه عن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وقال

(١) البخاري (٢٣٥/٤ ، ٢٣٦) الاعتكاف . باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ، ومسلم (٦٨/٨) الاعتكاف .

(٢) البخاري (٢٧٣/٤) الاعتكاف : باب لا يدخل البيت إلا لحاجة

وهو الأشبه . قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر) .

واختلف العلماء في سبب تسميتها ليلة القدر ، ف قيل المراد به التعظيم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر : ٦٧) والمراد أنها ذات قدر لنزول القرآن فيها ، أو لما يقع فيها من نزول الملائكة ، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة ، أو أن الذي يحييها يصير ذا قدر .

وقيل سميت ليلة القدر لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (الدخان : ٣٠) وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ (الفارعة : ٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل في الرمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أي فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

قال مالك . « بلغني أن رسول الله ﷺ رأى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك ، فكانه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم ، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر » .

قال السخمي . العمل فيها خير من العمل في ألف شهر .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »^(١)

وقوله عز وجل : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركاتها ، والملائكة يتنزلون مع البركة

(١) البحاري (٢٥٥/٤) فضل ليلة القدر ، ومسلم (٤٠/٦ ، ٤١) صلاة المسافرين . الترغيب في صلاة التراويح .

والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون
أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له ، وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه
السلام ، فيكون من عطف الخاص على العام ، وقيل هم ضرب من الملائكة

وقوله عز وجل : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن مجاهد قال : هي
سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ، أو يعمل فيها أذى .

وقال قتادة : « سَلَامٌ هِيَ » يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع
الفجر .

عباد الله هذا شهر رمضان قد عزم على الرحيل ، ولم يبقَ منه إلا القليل ،
فمن منكم أحسن فيه فعله التمام ، ومن فرط فليختمه بالحسن والعمل
بالختم ، فاستغنموا منه ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام ، واستودعوه عملاً
صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلام ، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية
وسلام .

سَلَامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ كُلِّ أَوَانٍ عَلَى خَيْرِ شَهْرٍ قَدْ مَضَى وَزَمَانٍ
سَلَامٌ عَلَى شَهْرِ الصَّيَامِ فَإِنَّهُ أَمَانٌ مِنَ الرَّحْمَنِ كُلِّ أَمَانٍ
لِئِنْ فَبِئْتَ أَيَّامُكَ الْغُرُ بُغْتَةً فَمَا الْحَزَنُ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ نَفَانٍ
فيا أصحاب الذنوب العظيمة ، الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة ،
فما منها عوض ولا لها قيمة ، فمن يعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة ،
والمنحة الجسيمة ، يا من أعتقه مولا من النار إياك أن تعود بعد أن صرت حراً
إلى رق الأوزار ، أيبعدك مولاك من النار وتقترب منها ، وينقذك منها وأنت توقع
نفسك فيها ولا تحيد عنها .

ماذا فات من فاته خير رمضان ، وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان ،
كم بين من حفظه فيه القبول والغفران ، ومن كان حفظه فيه الخيبة والخسران .
روي عن علي رضي الله عنه أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان :
يا ليت شعري من هذا المقبول فنهيه ومن هذا المحروم فنعزيه .

قلوب المتقين إلى هذا الشهر تحن ، ومن ألم خرواقه تشن .

كيف لا تجرى للمؤمن على فراقه دموع ، وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه رجوع .

لقد دهمت أيامه وما أطعتم ، وكتبت عليكم فيه آثامه وما أضعتم ، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا ، وانقطعت .

أين حرق المتهجدين في بهاره ، أين قلق المتهجدين في أسحاره ، ماذا يفع المفراط فيه نكاؤه ، وقد عظمت فيه مصيبته وجل عزاؤه .

كم نصح المسكين فما قبل النصح كم دعي إلى المصالحة فما أحاب إلى الصلح
كم شهد الواصلين فيه وهو متاعد كم مرت به زمر السائرين وهو قاعد
حتى إذا ضاق به الوقت ، وخاف المفت ، ندم على التفريط حين لا ينفع الندم ، وطلب الاستدراك في وقت العدم .

أتترك من تحب وأنت جار وتطلبهم وقد بعد المزار
وتبكي بعد بأيهم اشتياقا وتسال في المنازل أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضور وترجو أن تخبرك الديار
نفسك ألم ولا تلم المطايا ومث كمداً فليس لك اعتذارا
يا شهر رمضان ترفق دموع المحبين تدفق قلوبهم من ألم الفراق تشقق

عسى وقفة للوداع ، تطفىء من نار الشوق ما أحرق .

عسى ساعة توبة وإقلاع ، ترفو من الصيام ما تخرق .

عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق .

عسى أسير الأوزار يطلق .

عسى من استوجب النار يعتق .

عسى وعسى من قبل وقت التفرق إلى كل ما ترجو من الخير تلتقي
فيجسر مكسور ويقبل تائب ويعتق خطاء ويسعد من شقي

نسأل الله الكريم أن يعيد علينا هذا الشهر سنين متوالية ونحن في عافية ،
في ديننا ودنيانا وأن يأجرنا على مصابنا بفراقه خير الجزاء ، إنه أكرم مسؤول
وأعظم مأمول .

خطبة عيد الفطر (١)

الحمد لله الذي قسم بين الخلائق أسباب العسر واليسر ، وخصنا من بين سائر الأمم بشهر الصيام والصبر ، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر ، فله الحمد إذ رزقنا إتمامه وأنا كنا عيد الفطر

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أغوز بها يوم القيام من القبر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد البشر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما دارت الأفلاك وتعاقب الدهر ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

فالله أكبر الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

ويا شهر رمضان غير مودع ودعناك ، وغير مقلبي فارقناك ، كان نهارك صدقة وصياماً ، وليلك قراءة وقياماً ، فعليك منا تحية وسلاماً .

أتراك تعود بعدها علينا ، أو تدركننا المنون فلا تؤول إلينا ، مصايحنا فيك مشهورة ، ومساجدنا فيك معمورة ، فالآن تنطفئ المصاييح ، وتنقطع التراويح ، ونرجع إلى العادة ، ونفارق شهر العبادة .

عباد الله من كان مع نفسه في شهر رمضان من الحرام ، فليمنعها فيما

(١) النبؤلؤ والمرجان في وطائف شهر رمضان لإبراهيم بن عبيد - معارج القول لحافظ بن أحمد - طائفة المعارف لابن رجب .

بعده من الشهور والأعوام ، فإن إله الشهور واحد ، وهو على الزمانين مطمع وشاهد .

عباد الله اعلموا أن يوم العيد يوم سعيد ، يسعد فيه أناس ويشقى فيه عبيد ، فطوبى لعبد قبلت فيه أعماله ، والويل لمن عمله عليه مردود ، وباب التوبة عنه مسدود ، وهو يوم يهنا فيه المقبول ، ويعزى فيه المطرود .

فيا أيها المقبول هنيئاً لك بثواب الله عز وجل وغفرانه ، وتعمساً لك يا مطرود بإصرارك على عصيانه ، لقد عظمت مصيبتك فأين دمعتك وتوبتك ، فلا ي يوم أخرت توبتك ، ولأي عام ادخرت عدتك ، إلى عام قابل ، وحول حائل .

كلا فما إليك مدة الأعمار ، ولا معرفة المقدار ، فكم من أعد طيباً لعيده . جعل في تلجيدِهِ ، وثياباً لتربيته صارت لتكفينه ، ومتأهباً لفطره صار مرتهاً في قبره ، فاحمدوا الله على بلوغ ختامه وسلوه قبول صيامه وقيامه .

عباد الله كم فرح بالعيد مسرور وهو مبعد مهجور ، فيا من يفرح بالعيد لتحسين لباسه ويوقن بالموت وما استعد لباسه ، ويفتر بأقرانه وجلاسـه وكأنه قد أمن سرعة اختلاسه .

كيف تسرع عين مطرود من الفلاح ؟

كيف يسر من يصر على الأفعال القباح ؟

كيف لا يبكي من فاته جزيل الأرباح ؟

النوح أحق بك من السرور يا مغرور .

والحزن أجدر بك من جميع الأمور .

والجد أولى بك من التواني والفتور

كيف يسر من تاب ثم عاد ؟

كيف يفرح من آثامه في ازدياد ؟

فطوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة ، ورجع عن الخطايا قبل فوت الأوبة ، ويادر الممكن قبل أن لا يمكن .

لله در أقوام تركوا الدنيا فأصابوا ، وسمعوا منادي الحق يدعو فأجابوا ،
وقصدوا باب مولاهم فما ردوا وما خابوا .

عباد الله . بادروا بالتوبة إلى الله عز وجل من جميع الذنوب ، واعلموا
أن الله عز وجل خلقنا لعبادته قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

والعبادة هي كمال الحب لله عز وجل مع تمام الدل له ، وهي كل ما يحبه
الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأفعال الطاهرة والباطنة ، الظاهرة كالصلاة
والزكاة والحب والجهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والباطنة كالرجاء
والخوف والرغبة والرهبة والإجابة والإخبات والتوكل والمحنة وغير ذلك .
واعلموا عباد الله أن أعظم الذنوب هو الشرك بالله عز وجل فهو القبيحة
التي لا يغفرها الله عز وجل .

قال عز وجل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ﴾ (النساء : ١٦٦) .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان : ١٣) .
وقيل للنبي ﷺ (أي الذنب أعظم ؟) قال «أن تجعل لله نداً وهو
خلقك» (١) .

وأكثر الناس عباد الله يقولون بالسنتهم «أشهد أن لا إله إلا الله» فيشهدون
بأنه لا يستحق أحد العبادة مع الله عز وجل ، ومع ذلك يوحهون العبادات لغير
الله عز وجل فيندرون لغير الله ، ويذبحون لغير الله ، ويستغيثون بغير الله عز
وجل ، ويحلفون بغير الله عز وجل ، وصدق عليهم قول الله عز وجل ﴿ وَمَا
يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (يوسف : ١٠٦)

وأكثر الناس عباد الله يقولون بالسنتهم «أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ»
فيشهدون بأن الله عز وجل لا يعبد إلا بما شرع ويبس رسوله ﷺ ومع ذلك لا

(١) رواه بخاري (١٦٣/٨) التفسير باب قوله تعالى ﴿ فَلَا تَحْمِلُوا لَّهُ آثَاداً وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ورواه في
الأدب والذنيات والتوحيد ورواه مسلم (٨٠/٣) الإيمان باب الشرك أعظم الذنوب ورواه السائي في
تحريم الدم وأبو داود في الطلاق والترمذي

يَسْلَمُونَ أَنْفُسَهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقْدِمُونَ عَلَى سِتِّهِ ﷺ آراءَ الشَّرِّ وَأَهْوَاءَ الشَّرِّ ، وَالْمَصَاهِجَ وَالْمَذَاهِبَ إِذَا تَعَارَصَتْ مَعَ سِتَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقد قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥)

وقد دعا الله عز وجل جميع العباد إلى التوبة .

دعا إليها المنافقين فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ (النساء : ١٤٦) .

ودعا إليها الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ ﴾ (آل عمران

(١٨٩)

وقالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (المائدة :

٦٣) .

فقال عز وجل بعد أن ذكر حالهم : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْفَهَرُونَ ﴾

(المائدة : ٧٤) .

ودعا إليها المشركين كافة فقال عز وجل : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وآتوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ (التوبة : ١١)

ودعا إليها المفسدين على أنفسهم من أمة النبي ﷺ ومن غيرهم فقال عز

وجل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣)

كما دعا إليها أهل الإيمان وخيار الحليقة فقال عز وجل للصحابه بعد

إيمانهم وهجرتهم وجهادهم وصبرهم : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٣١)

قال محاهد : من لم يتب كل صتباح ومتساء كان من الظالمين قال الله عز

وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الحجرات : ١١) وقال الله عز

وجل : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا خَضَعَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ

قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ (النساء : ١٨) .

فسوى الله عز وجل بين من تاب عند الموت ، ومن مات معير توبة ،
والمراد بالتوبة عند الموت ، التوبة عند انكشاف العطاء ومعاناة المحتضر أمور
الآخرة ومشاهدة الملائكة ، فإن الإيمان والتوبة وسائر الأعمال إنما تنفع
بالغيب ، فإذا كشف العطاء وصار العيب شهادة لم ينفع الإيمان ولا التوبة
قال الله عز وجل ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (سأ . ٥٤) فسرهُ
طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم
وبينها .

قال الحسن اتق الله يا ابن آدم لا يجمع عليك حصلتان ، سكرة
الموت وحسرة الموت .

والناس في التوبة على أقسام :

* فمنهم من لا يوفق لتوبة بصوح ، بل ييسر له عمل السيئات من أول عمره
إلى آخره ، حتى يموت مصراً عليها ، وهذه حالة الأشقياء نعود بالله من
حالهم .

* ومنهم من ييسر له في عمره عمل الطاعات ، ثم يحتم له بعمل سيء حتى
يموت عليه كما جاء في الحديث «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما
يكون بينه وبينها إلا ذراع ، ثم يسبق عليه الكتاب فعمل بعمل أهل النار
فيدخلها»^(١)

ما أصعب الانتقال من النور إلى العمى

وأصعب منه الضلالة بعد الهدى ، والمعصية بعد التقى

كم من وجوه حاشعة وقع على قصص أعمالها عاملة ناصبة ، تصلى دار
حامية ، كم من شارف مركبة ساحل الحجة فلما هم أن يرتقي لعب به موج
ففرق .

الحلق كلهم تحت هذا الحطر ، قلوب العباد بين أصبعين من أصابع
الرحمن يقلبها كيف يشاء .

(١) روى البخاري (٣٠٣/٦) هذه الحلق باب ذكر الملائكة ، وفي كتاب التوحيد وأول كتاب بعدد ومسلم
(١٩٠/١٦) القدر : باب كعبة حلق الأدمي في طي

قال بعضهم ما العجب ممن هلك كيف هلك ، إنما العجب ممن نجا كيف نجا

* وقسم يقضي عمره في الغفلة والبطالة ، ثم يوفق لعمل صالح فيموت عليه ، وهذه حالة من عمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسوق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها الأعمال بالخواتيم ، وهؤلاء منهم من يستيقظ قبل الموت بمدة ، يتمكن فيها من التزود بعمل صالح يحتم به عمره ، ومنهم من يستيقظ قبل الموت بمدة يسيرة

* بقي قسم هو أشرف الأقسام وأرفعها ، وهو من يقضي عمره في الطاعة ثم يسه على قرب أجله ليحد في التزود وينتهي للرحيل ، يعمل يصلح للقاء ، ويكون خاتمة للعمل .

قال ابن عباس لما نزلت على النبي ﷺ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (الفتح : ١) . نعت لرسول الله ﷺ نفسه ، فأخذ في أشد ما كان احتشاداً في أمر الآخرة .

قالت أم سلمة : (كان النبي ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يذهب ولا يحيي إلا قال سبحان الله ويحمده^(١) .

وكان من عادته ﷺ أن يعتكف في كل عام في رمضان عشراً ويعرض القرآن على حنبل مرة ، فاعتكف في ذلك العام عشرين يوماً ، وعرض القرآن مرتين ، وكان يقول ما أرى ذلك إلا لاقترب أحلي ، ثم حج ﷺ حجة الوداع ، ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله إليها ، وقال أيها الناس يوشك أن يأتيي رسول ربي فأحيب ، ثم أمر بالتمسك بكتاب الله ، ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ ، إذا كان سيد المحسنين ﷺ يؤمر أن يحتم عمره بالريادة في الإحسان ، فكيف يكون حال المسيء .

كان السلف يرون أن من مات عقب عمل صالح كصيام رمضان أو عقيب

(١) روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «أحبرني ربي أنني سأرى علامة في أمي فإذا رأيته أكثر من قول سبحان الله ويحمد الله أستقر وأنوب إليه فقد رأيته» ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ﴿ وَرَأَيْتَ الْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ سبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴿ .

حج أو عمرة يرحى له أن يدخل الجنة ، وكانوا مع اجتهدهم في الصحة في الأعمال الصالحة يحددون التوبة والاستغفار عند الموت ، ويختتمون أعمالهم بالاستغفار وكلمة التوحيد .

أيها العاصي ما يقطع من صلاحك الطمع ، ما نصبنا اليوم شرك المواعظ إلا لتفجع ، إذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة قالت ملائكة الرحمة مرحباً وسهلاً .

فإن قال لك رفاقك في المعصية هلم إلينا ، فقل كلا !!! داك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خلا .

يا من سود كتابه بالسيئات ، قد ان لك بالتوبة أن تمحو

يا سكران القلب بالشهوات ، أما آن لفؤادك أن يصحو .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها - وخير أيامنا يوم لقائك - اللهم إنا

نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ومرافقة رسولك في الجنة - اللهم زيننا بزيينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين .

وصلى الله وبارك على محمد وآله وسلم تسليماً

الزواج عن اقتراف الكبائر^(١)

الحمد لله الذي حمى من أحل رأفته معاده ، وعبرته المرهنة عما لا يليق بحلال قدرته وكمال عرته ، حمى حومة الكبائر والفواحش والمعاصي بقواطع الصوص الزواج ، وآيات كنهه الحور الرواحر ، وبواميس عدله القواصم القواهر ، عن أن يلموا بذلك الحمى الوعة سله ، وآثاره المضرة جحيمة ، وباره المحرقة وراده ورواره ، إذا لم يخشوا من غضب رب الأرباب ، الموجب لمعالحتهم بعظيم العقاب ، والحلود في خزي الهوان والعذاب ، ولم يطمعوا في المسارعة إلى سوابغ رحمته ورضاه ، وإفصالة على كل من أطاعه بما يحبه وينمائه ، وتوفيقه إلى دار كرامته ومحياه ، ولا آثروا تقديم مراده ، ولا أعرضوا عما لا يرضيه في عبادته ، ولا أحرزوا قصب السبق في داري معاشه ومعاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أفوز بها بالحفظ من معاصيه القاطعة عن غلي جنانه ، وآتياً بالإخلاص فيها غرف قربه مع الكُمل من أحبابه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذي أمرنا الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأديب بآدابه ، ﷺ وآله وأصحابه ، الذين صانهم الله عن أن يدنسوا صفاء صدقهم بدنس المحالقات ، وأن يؤثروا على رضا الله ورسوله شيئاً من قواطع الشهوات ، وأن يتطلعوا إلا إلى امثال الأوامر واجتناب النواهي في سائر الحالات صلاة وسلاماً دائمين بدوامه الأقدس ، عطين بعوق شذاه الأطيب الأنس ، وكدا على تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين الذي كما يدين كل أحد به

(١) الرواحر لاسر حجه الهشمي باختصار ونصرف (من ٥ إلى ٢٢) طعة دار الشعب

يدان ، ويقال للمعاصي هل حزاء العصيان إلا الخوي والهوان ، وللمحس هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

ثم أما بعد . .

اعلموا عباد الله أن جماعة من الأئمة أنكروا أن في الذنوب صفائر ، وقالوا بل سائر المعاصي كبائر ، وقال القاضي عبد الوهاب : لا يمكن أن يقال في معصية الله أنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باحتساب الكبائر

وقال الجمهور إن المعاصي تنقسم إلى صفائر وكبائر لقوله عز وجل : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ ﴾ (النساء : ٣١) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ فجعلها رتباً ثلاثة (الحجرات : ٧) .

وقوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ ﴾ (النجم : ٣٢) .

وقوله ﷺ : «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(١) .

واختلف العلماء في حد الكبيرة على أقوال :

- منها أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد ، بضم كتاب أو سنة .
- ومنها أنها ما أوجب الحد ، أو توحه إليه الوعيد ، والصغيرة ما قتل فيه الإثم .
- ومنها أنها كل جريمة (أو جريمة) تؤذن (أي تعلم) بقلة تكرارها (أي اعتناء) مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة مبطله للعدالة ، وكل جريمة أو جريمة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن ظاهراً بصاحبها لا تحبط العدالة .

(١) روى مسلم (١١٧/٣ ، ١١٨) الطهارة باب فصل الوصوه والصلوة عنه والترمذي (١٤/٢ ، ١٥) الصلاة : باب ما جاء في فصل الصلوات الخمس وقال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح .

• ومنها أنها كل ما ينص الكتاب على تحريمه ، أو وجب في جنسه حد وترك فريضة تحب فوراً ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين .

• ومنها أنه لا حد لها بحصرها يعرفه العباد ، وإلا اقتحم الناس الصفائر واستباحوها ، ولكن الله عز وجل أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهى عنه رجاء أن تحتنب الكبائر ، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك .

وذهب بعض العلماء إلى تعريفها بالعد ، من غير ضبطها بحد ، ف قيل هي سبع واستدلوا على ذلك بخبر الصحيحين (اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس ، التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) (١) .

وعن ابن عباس قال هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع .
وعن سعيد بن جبير أكبر تلامذته هي إلى السبعمئة أقرب يعني باعتبار أصناف أنواعها .

والأحاديث المصرحة بالكبائر نوعان :

منها ما صرح فيه بأنه كبيرة ، أو أكبر الكبائر ، أو أعظم الذنوب ، أو موبق ، أو مهلك ، وما ذكر فيه نحو لعن ، أو غضب ، أو وعيد شديد ، فمن الأول خبر الشيخين «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وقول الزور ، وكان متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» (٢) .

ولهما أيضاً أن رجلاً قال للنبي ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال : إن ذلك عظيم ، ثم أي ؟ قال : وأن تقتل ولدك مخافة أن

(١) رواه البخاري (٣٩٣/٥) الوصايا : باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وهي الطب ومي المحاربين ، ومسلم (٨٣/٢) الإيمان : باب بيان الكبائر وأكبرهما ، ورواه أبو داود والنسائي .

(٢) رواه البخاري (٢٦١/٥) الشهادات : باب ما قيل في شهادة الزور وكذلك في الأدب والاستئذان ، ومسلم (٨٢ ، ٨١/٢) الإيمان أكبر الكبائر ، والترمي في الشهادات باب ما جاء في شهادة الزور

يطعم معك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك^(١) .

وروي أيضاً (من الكناثر شتم الرجل والديه قبل وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم ، يسب الرجل أبا الرجل ويسب أباه وأمه)^(٢) .

النوع الثاني :

ما رواه مسلم وغيره عن النبي ﷺ «قال ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، قال أبو ذر . فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقلت خابوا وخسروا من هم يا رسول الله قال المسبل إزاره خيلاء» وفي روايات أخر «والمنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منه والمنفق سلعة بالحلف الكاذب»^(٣) .

ومنه أيضاً قوله ﷺ : «لا يدخل الجنة قتات» أي نمام^(٤) .

واعلموا عباد الله وفقنا الله وإياكم لطاعته وأنالنا سوابغ رضاه ومهابته ، أن الله تعالى حذر عباده من معصيته ، بما أعلمهم به من نوااميس ربوبيته ، وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووجدانيته ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ (الزحرف : ٥٥) . أي أغضبونا وقال عز وجل : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (الأعراف : ١٦٦) وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (فاطر : ٤٥) .

وقال عز وجل : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ (النساء : ١٢٣) .

(١) رواه البخاري (١٦٣/٨) التصير باب قوله تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَتَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ورواه في الأدب والديات والتوحيد ، ورواه مسلم (٨٠/٢) الإيمان باب الشرك أعظم الذنوب ، ورواه الترمذي ، ورواه النسائي في تحريم الدم ، وأبو داود في الطلاق .

(٢) رواه البخاري (٤٠٣/١٠) في الأدب ومسلم (٨٣/٢) الإيمان ، أكبر الكناثر ورواه الترمذي في البر ، وأبو داود في الأدب .

(٣) رواه مسلم (١١٤ ، ١١٥) الإيمان باب ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ولا يزكيهم ، ورواه البخاري بمعناه (٣٤/٥) باب إثم من مع ابن السبيل من الماء ورواه أبو داود والنسائي .

(٤) رواه البخاري (٤٧٢/١٠) الأدب ، باب السمعة من الكناثر ، ومسلم (١١٢/٢) الإيمان ، غلط تحريم السمعة ورواه أبو داود والترمذي .

وفي الصحيح «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهَكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» (١) .

وفي الصحيحين كذلك أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ وَغِيْرَةَ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» (٢)

وفيهما أنه ﷺ قال : «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ ، فَلَمَّا حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٣) .

قال بلال بن سعد : لَا نَنْظُرُ إِلَى صَغْرِ الْخَطِيئَةِ وَلَكِنْ نَنْظُرُ إِلَى مَنْ عَصَيْت .

وقال الحسن بن آدم : تَرَكَ الْخَطِيئَةَ أَبْسَرَ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ

وقال محمد بن كعب القرظي : مَا عَدَّ اللَّهُ بِشْيَاءَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ تَرَكَ الْمَعَاصِي .

ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح «إِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتَوْا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ» (٤) .

فأتى بالاستطاعة في جانب المأمورات ولم يأت بها في جانب المنهيات ، إشارة إلى عظم خطرها وقبح وقوعها ، وأنه يجب بذل الجهد والوسع في المباحة عنها ، سواء استطاع ذلك أم لا بخلاف المأمورات .

قال حذيفة : إِذَا أَذْنِبَ الْعَبْدُ نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، فَإِذَا أَذْنِبَ نَكَتَ

(١) رواه الدارقطني وهو من رواية مكحول عن أبي ثعلبة وفيه انقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة وله شاهد عند الدارقطني وأخره عبد الرزق والحاكم وصححه قال عبد القادر الأرباض وله شواهد أخر بعضها يرتقي بها إلى درجة الحسن وقد حسه النووي في أربعه وكذلك حسه فله الحافظ أبو بكر السمعاني في أماليه - جامع الأصول هامش (٥٩/٥)

(٢) رواه البخاري (٢٨١/٩) النكاح باب العيرة ، ومسلم (٧٧/١٧) التوبة باب عيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ورواه الترمذي في الرصاع : باب ما جاء في العيرة .

(٣) رواه البخاري (٢٨٠/٩) في النكاح باب العيرة ، ورواه في التفسير والتوحيد ، ورواه مسلم (٧٧/١٧) التوبة باب عيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ورواه الترمذي في الدعوات

(٤) رواه البخاري (٢٥١/١٣) الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسن رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٠١/٩) الحج باب فرض الحج مرة في العمر ورواه الترمذي في العلم والساني في الحج

في قلبه نكته سوداء ، حتى يصير قلبه كله أسود . ويؤيده قول اسلف . المعاصي يريد الكفر (أي رسوله) باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يقبل خيراً قط . فحيث يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف ، فيرتكب ما أراد ويفعل ما أحب ويتخذ الشيطان ولياً ، من دون الله ، ويصله ويعويه ويعدّه ويمنيه ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد له إليه سبيلاً

قال الله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيًّا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ فَالِيتَكُنَّ آذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَعْرَتَهُمْ فَلْيَعْيِرْ حَلَوُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيَنَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (الأعراف : ١٣٥) .

واعلموا عباد الله أن أعظم راجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه وسطوته .

قال أبو الفرج ابن الحوزي : الخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فإذا فصيلته بقدر ما يحرق من الشهوة ، ويقدر ما يكف عن المعصية ، ويحث على الطاعة ، وكيف لا يكون الخوف ذا فصيلة ، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، كما علم من الآيات والأخبار ، كقوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة : ٨) وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ خِتَانٌ ﴾ (الرحمن : ٤٥) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٦) وكل ما دل على فصيلة العلم يدل على فصيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم .

واعلموا أن البكاء إما من حزن ، وإما من وجع ، وإما من فزع ، وإما من فرح ، وإما شكراً ، وإما من خشية الله تعالى ، وهذا هو أعلاها درجة وأعلاها ثمناً في الدار الآخرة ، وأما البكاء للرباء والكذب فلا يرداد صاحبه به إلا طرداً وعداً ومقتاً .

وحق لمن لم يعلم ما جرى له به الظلم في سابق علم الله تعالى ، من

سعادة مؤبدة ، او شقاءه محلده ، وهو فيما بين هاتين الحالتين قد ركب المحرمات ، وحالف حاله في المصهيات ، أن يكثر نكاؤه وأسلمه وحره وسحيه وبهقه ، وأن يهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن يحذر إلى الله تعالى على ما سلف منه ، من سوانق محلفاته ، وقناتح شهواته ، عسى أن يوفقه إلى التوبة النصوح ، وأن يحرحه من ظلمات الجهل والعصيان إلى النعم والطاعة ، وما لهما من ثمرات المعرفة والفتوح

قال بعضهم : أرق الناس قلباً أقلهم ذنباً .

وقال ﷺ «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»^(١) .

ومن ثم علب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء ، وعلب أمن المكر على الظلمة الأطفياء ، والفراغة الأغبياء ، والجهلة العوام والرعاع والطفام ، حتى كأنهم حوسوا وفرغ منهم ، فلم يخشوا سطوة العقاب ، ولا نار العذاب ، ولا بعد الحجاب ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الحشر : ١٩) .

وفي صحيح البخاري عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - (أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالمرعة قالت فطار لنا (أي وقع في سهمنا) عثمان بن مطعم ، من أفصل المهاجرين وأكابرهم ومتعبدتهم ، ومن شهد بدرأ ، فاشتكى فمرصناه ، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه ، دخل علينا رسول الله ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى - فقال لي رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله أكرمه فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال أما عثمان فقد جاءه اليقين ، وإنني لأرجوه الخير ، ثم قال رسول الله ﷺ ما أدري وأنا رسول لله ما يفعل بي . قالت فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً)^(٢) .

فتأملوا عباد الله زجره ﷺ عن الجزم بالشهادة على الله في عثمان ، مع

(١) رواه البخاري ومسلم وقد تقدم تخريجه .

(٢) رواه البخاري (٤٩٢/٨) تفسير سورة الفرقان وفي الأدب ومسلم (٨٠/٨) لإيمان باب كونه الشريك أقبح الذنوب ورواه أبو داود والترمذي .

كوبه شهد بدرًا وقد قال ﷺ : «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (١).

وقد قبله ﷺ ووصفه بأعظم الأوصاف وأفضلها وكان أول من قر القبيح .
فهذا يدلنا عباد الله على أنه يسغي لنا وإن عملنا من الطاعات ما عملنا .
أن نكون على حير الخوف والحشية من الله تعالى ، وعدائه وأليم عقابه ، فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (المائدة : ١٦) .
ومن العجيب أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] .

ربما فهم منه بعض من لا تأمل له ، أن فيه رجاء عظيمًا ، وأي رجاء عظيم فيه ، مع كونه تعالى شرط للمبالغة في المغفرة أربعة شروط التوبة ، والإيمان الكامل ، والعمل الصالح ، ثم سلوك سبيل المهتدين ، من مراقبة الله تعالى وشهوده وإدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى بقلبه وحاله ودعائه وإحلاصه .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ (القصص : ٦٧) .

ولا تغتر بما قيل عسى من الله واجبة الوقوع ، فإن ذلك أكثرى لا كلي .
قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه : ٢٣) . وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يحش تذكر ، بل بهك الله تعالى على أنك إذا تست توبه نصوحًا ، وآمنت إيمانًا كاملاً وعملت صالحًا ، كنت على رجاء حصول الفلاح لك والهداية والقرب من حصرة الحق ، فإياك وأن تأمن مكر الله واستحضر قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ بِمَا كُنْتَ تَعْبُدُ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ (الأحراب : ٨) وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا

(١) روى البخاري عن علي رضي الله عنه (١٤٣/٦) الجهاد باب الحاسوس في قصة حاطب بن أبي بلتعة حديث رقم ١٤٢٩ .

تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا
الَّذِينَ شَقُّوا فَمِنْهُمْ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَنَهِيقٌ ﴿١٠٢﴾ (هود : ١٠٢) .

مثل سعيد بن جبير عن الخشية فقال أن تخشى الله تعالى حتى تحول
خشيتك بينك وبين معاصيه ، فهذه هي خشيتك ، وأما العرة بالله فهي أن يمدى
الرجل في المعصية ، ويتمنى على الله المغفرة .

وعن يحيى بن معاذ قال : من أعظم الاغترار أن المذنب يرجو العفو من
غير ندامة ، ويتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وينتظر الجزاء بلا عمل ،
ويعتد على الله مع الإفراط .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك
ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا
وأبصارنا وقوتنا أبدأ ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من
ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ،
ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا

تحريم موالاة المشركين

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا ،
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضَلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ﷺ تَسْلِيمًا .

ثم أما بعد ، ، ، ،

اعلموا عباد الله أن الله عز وجل قد هدى الناس سيرة محمد ﷺ ،
وما جاء به من البينات والهدى ، هداية جللت عن وصف الواصفين ، وفاقته
معرفة العارفين ، حتى حصل لأمة المؤمنين به عموماً ، ولأولي العلم منهم
خصوصاً ، من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والشئ
المستقيمة شيئاً عظيماً ، فله الحمد كما يحب ربنا ويرضى

قال عدي بن حاتم رضى الله عنه : أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في
المسجد - فقال القوم : هذا عدي بن حاتم ، وجئت بغير أمان ولا كتاب ، فلما
دُفعت إليه أخذ بيدي ، وقد قال قبل ذلك : إني لأرحو أن يجعل الله يده في
يدي ، قال : فقام بي فلقبته امرأة وصبي معها ، فقالا إن لنا إليك حاجة فقام
معهما حتى قضى حاجتهما ، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره ، فألقته له
الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ما
يُفْرِكُ أبفرك أن تقول لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟ قلت : لا .
ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما يفرك أن تقول الله أكبر أو تعلم شيئاً أكبر من
الله ؟ قال : قلت : لا . قال : فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال .

قال: فقلت: فلاني حنيف مسلم. قال: فرأيت وجهه ينسط فرحاً^(١).
وقد دل الكتاب على معنى هذا الحديث، من وسم النصارى بالضلال،
واليهود بالغصب

قال الله عز وجل في النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ
ثَلَاثَةٍ، إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾
(المائدة: ٧٢)

وقال عز وجل عن اليهود: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ (البقرة: ٩٠).

ووسم النصارى بالضلال، لأن كفرهم من وجهة عملهم بلا علم، فهم
يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا
يعلمون، ووسم اليهود بالغضب لأن أصل كفرهم عدم العمل بعلمهم، فهم
يعلمون الحق ولا يتبعونه قولاً أو عملاً.

ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون: من فسد من علمائنا
ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.
واعلموا عباد الله أن الله عز وجل قد أوجب علينا معاداة الكفار
والمشركين، وأكد إيجاهه، وحرم علينا موالاتهم وشدد فيها حتى إنه ليس في
كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم، بعد وجوب
التوحيد وتحريم ضده.

* فمن الأدلة على تحريم موالاته المشركين قوله عز وجل في سورة النساء
﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ يُنْتَفِعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩).
إلى أن قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (النساء: ١٤٤).

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

فيقول عز وجل منكرأ عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿ أَيْتَفُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ ثم أخبر أن العرة كلها له وحده لا شريك له ، والمقصود التهيج على طلب العرة من جانب الله تعالى ، والالتحاء إلى عوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

• ومن الأدلة كذلك قوله عز وجل ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ (ال عمران : ٢٨)

فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي ومن يوال الكافرين فليس من الله في شيء ، أي - فقد برىء من الله وبرىء الله منه ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد حفظاً للإسلام والتوحيد

• وقال تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَاسِقُونَ ﴾ (المائدة : ٨٠)

فرتب الله عز وجل على موالاة الكافرين سخطه والحلود في العذاب ، وأخبر أن ذلك لا يحصل إلا ممن ليس بمؤمن ، وأما أهل الإيمان بالله وكتابه ورسوله فإنهم لا يوالونهم . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ (المائدة : ٥١ ، ٥٢) .

فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى ، وذكر أن من تولاهم فهو منهم ، أي من تولى اليهود فهو يهودي ، ومن تولى النصارى فهو نصراني ، وقد روى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر ، قال فظنتاه يريد هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ الآية

وكذلك من تولى المُشرك فهو مشرك ، لا فرق بين أهل الكتابين وغيرهم من الكفار

ثم أخطر تعالى أن الدين في قلوبهم مرض أي شك في الدين وشبهة سارعون في الكفر فائليل ﴿ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ أي إذا أنكرت عليهم موالاة المشركين قتلوا نحشى أن نكون الدولة لهم في المستقبل ، فيتسلطوا علينا فيأخذوا أموالنا ويشردونا من بلادنا وهذا هو طس السوء بالله عز وجل ولهذا قال تعالى ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ وعسى من الله واجب ، والحمد لله الذي أتى بالفتح فأصبح أهل الطنود الفاسدة على ما أسروا هي أنفسهم نادمين . * وقال عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة : ٥٧) .

وهي سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة أهل الكتابين وغيرهم من الكفار وبين أن موالاتهم تنافي الإيمان

* وقال تعالى . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (النوبة . ٢٣) .

وهي سبحانه وتعالى المؤمن عن موالاة أبيه وأخيه اللذين هما أقرب الناس إليه إذا كان ديهما غير الإيمان ، وبين أن الذي يتولى أباه وأخاه إذا كانا كافرين فهو ظالم ، فكيف من يتولى الكافرين الذين هم أعداء له ولأبائه ولدينه ، أفلا يكون هذا ظالماً بلى والله إنه لمن أظلم الظالمين .

* وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَهُم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُخْرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَهُم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ، إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ

بِالنُّسْوَ وَوَدُّوا لَوْ نَكْفُرُونَ ، لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمْصِلُ
 بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ
 مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا
 بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ
 لَا اسْتَفْقَرْتُ لَكَ وَمَا أَتَمَلَّكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ ابْتِغَاءُ
 وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿ (المنححة من ١ - ٤) إِلَى أَنْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَرْ
 السُّورَةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسَوْنَ
 الْآخِرَةَ كَمَا يَنسَى الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (المنححة ١٣)

وقد ثبت في الصحاح أن هذه السورة سورة المنححة برئت في رحل من
 الصحابة رضي الله عنهم يسمى حاض من أبي بلتع ما كتب إلى أهل مكة
 يحبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم عام الفتح ، فأمر الله عز وجل هذه الآيات ،
 وأخبر بيه ﷺ بحر الكتاب ، وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في إثر
 المرأة التي ذهبت بالكتاب ، فوجده في عقيصة رأسها ، فحاء الرجل إلى
 النبي ﷺ يعتذر ويحلف أنه ما شك ولكنه ليس له من يحيي من وراءه من أهل
 مكة ، وأنه أراد بهذا بدأ عند قريش ، واستأذن عمر بن الخطاب في قبله ، فقال
 النبي ﷺ : «وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد
 غفرت لكم» (١) .

فلولا أنه كان من أهل بدر لقتل لهذا الكتاب

فهذه السورة مع سب برولها من الأدلة على وحب عداوة الكفر ،
 ومقاطعتهم فهي تعالى أهل الإيمان عن اتخاذ عدوه - وعدوهم أولياء - وهذا
 تهيب على عداوتهم ، ولنضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى ، فقد روى
 مملوكاً ، وسيدك له عدو من الناس ، فهل يصح عندك ويحور في عقلك أن
 تتخذ عدو سيدك ولياً ، ولو لم يهلك عن ذلك ؟ ! فكيف إذا بهلك عن ذلك أشد
 الهبي ، ورتب على مواليتك له أن يعبدك وأن يسخط عليك ، وأن يوصل إليك
 ما تكره ، ويمنع عنك ما تحب ، فكيف إذا كان هذا العدو لسيدك عدو لك

(١) رواه البخاري عن علي رضي الله عنه (١٢٣/٦) بحقه .

أيضاً ، فإذا والله مع ذلك كله إنك إذا لم تصم

ثم قال عز وجل ﴿ تَلْقَوْنَ اللَّهَ بِالْغُذَاةِ ﴾ فسمى الله عز وجل محرم
رسائل هذا الكتاب الغداء بالمودة ، ثم بين عز وجل ما يدعو إلى عداوتهم وهو
كفرهم بأدي حاء من عند الله ، وإحراجهم نبي ﷺ وأهل الإسلام لاحق
الإيمان بالله ، فقال عز وجل ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ
الرَّسُولَ وَإِنَّا لَنَكُونُ أَوْلَىٰ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ومما يدعو إلى عداوتهم وبعضهم أيضاً
أنهم يصمرون في أنفسهم أنهم إذا تمكروا من المسلمين لا يرفقون بهم إلا ولا
دعة فقد عز وجل : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَالسُّنَنُ بِالْأَشْيَاءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا مشاهد بأعين فصلاً عن الدليل
والبرهان ، ففي كل زمان وفي كل مكان تكون العداوة فيه لليهود أو النصارى
ويتمكنون من المسلمين يسوموهم سوء العذاب .

لما استولت الحشنة على إقليم إرتريا المسلم ، واستلم هيلاسلامي الكافر
السلطة ، وضع خطه لإنهاء المسلمين خلال خمسة عشر عاماً ، ونهاى بحطه
هذه أمام الكونجورس الأمريكي ، ومن تشريعات لإدلال المسلمين ، منها أن
عليهم أن يركعوا لموسفي الدولة ، وإلا يقتلوا وأمر أن تستباح دماؤهم لأقل
سبب ، وأصدر أمره بإغلاق مدارس المسلمين ، وأمر بفتح مدارس مسيحية ،
وأحرر المسلمين على إدخال أسائهم فيها ليصبحوا مسيحيين

وعين حكماً فحرة على مقاطعات إرتريا ، بدأ أحدهم عمله بأن أمر أن لا
يقطع الفلاحون ثمار أراضيهم إلا بعد موافقته ، وكان لا يسمح بقطاعها إلا بعد
أن تنلف ، وأخيراً نهى جميع ممتلكات الفلاحين المسلمين ، وأمر أن تنى
كنيسة عند مدخل كل قرية ، ولم يكتف بذلك بل منى دوراً للعاهرات حول
المساجد ، ومعها الحانات التي كان يسكر فيها الجنود ليلولوا بها ويراقصوا
العاهرات وهم سكارى ، وكافأ هيلاسلامي بأن عينه وزيراً للدخلية .

وقد سجل التاريخ على صفحات سوداء ما حدث للمسلمين في أسبانيا
والفلبين والأمثلة كثيرة لا تحصى وسبب ذلك شدة البغضاء للإسلام وأهله

كما قال الله عز وجل : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُّورُهُمْ أَكْبَرُ ﴿ (آل عمران : ١١٨) .

ثم قال عر وجل ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم لقيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ (المنتحة : ٣)

فبين عر وجل أن كون برجل له أرحاء وأولاد عند المشركين لا يبيح له موالاتهم ، كما اعتد حاطب بن أبي يثعنه ويحب على المسلم أن يكون لله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

ثم بين تعالى أن عدم موالاة المشركين والبراءة منهم هو الصراط المستقيم الذي عليه جميع المرسلين فقال عز وجل : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ فأمرنا الله عز وجل أن نتأسي بإبراهيم المحلل ومن معه من المرسلين في قولهم لقومهم ﴿ إِنَّا بَرَاءُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وقدم البراءة من المشركين العائدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دونه ، لأن البراءة من المشركين تستلزم البراءة من معبوداتهم ، كما قال المحلل كذلك : ﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَنِّي إِنَّ لِي أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (مريم : ٤٨)

فقدم اعترالهم على اعتزال معبوداتهم ، ثم قال عر وجل في حائمة هذه السورة المشاركة . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْشُرُ الْكَافِرُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (المنتحة : ١٣) .

اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأدل الكفر والكافرين ، وأعل كلمة الحق والدين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ، ولا يؤمنون بوعدك ، اللهم العن اليهود والنصارى ، وصل اللهم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا .

في ذم الحرص على المال والشرف^(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل
عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب :
٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار .

عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما
ذبيان جائعان أرسلاني غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف
لدينه »^(٢) .

(١) رسالة ابن رجب في شرح الحديث « وما ذبيان جائعان » .

(٢) رواه الترمذي (٢٢٢/٩ ، ٢٢٣) الزهد باب حرص المرء على المال والشرف لدينه ، وقال الترمذي =

فهذا مثل عظيم جداً ضربه رسول الله ﷺ لبيان فساد دين المرء مع حرصه على المال والشرف أي الرفعة في الدنيا ، وأن فساد الدين بذلك ليس بأقل من فساد الغنم التي غاب عنها رعاؤها وأرسل فيها ذئبان جائعان ، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل ، فأما الحرص على المال فهو نوعين : أحدهما شدة محبة المال مع شدة طلبه مع وجوهه مع الجهد والمشقة ، ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تصحيح العمر الشريف الذي يمكن أن يشتري به صاحبه الدرجات العلى والنعيم المقيم ، في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه إلا ما قدر وقسم ، ثم لا ينتفع به بل يتركه لغيره .

قيل لبعض الحكماء : إن فلاناً جمع مالا . قال : فهل جمع أياماً ينفقه فيها ؟ قيل : لا . قال : ما جمع شيئاً .

كان عبد الواحد بن زيد يقول : يا إخوتاه لا تغبطوا حريصاً على ثروته وسعته في مكسب ولا مال وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرد به غداً في المعاد ثم يتكبر .

وكان يقول : الحرص حرصان حرص فاجع وحرص نافع ، فأما النافع فحرص المرء على طاعة الله ، وأما الفاجع فحرص المرء على الدنيا ، وهو مشغول معدب لا يسر ولا يلد بجمعه لشغله ، فلا يعرغ من محبة الدنيا لأخرته .

قال بعضهم :

لا تغبطن أخا جريصاً على طمع
إن الحريص لمشغول بثروته
قال آخر :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه
جمعت مالا ففكر هل جمعت له
مفكراً أي باب منه يغلقه
يا جامع المال أياماً يفرقه

= هذا حديث حسن صحيح وقال الشيخ عبد القادر الأربازوط وهو كها قال ورواه أحمد في المسند (٤٥٦/٣) والسائي والبيهقي في صحيحه

المال عندك مخزون لوارثه ما المال مالك إلا يوم تنفقه
 إن القناعة من يحل ساحتها لم يأل في طلب مما يورقه
 كتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصاً على الدنيا : أما بعد فإنك قد
 أصبحت حريصاً على الدنيا تخدمها ، وهي تخرحك عن نفسها بالأعراض
 والأمراض والآفات والعلل ، كأنك لم تر حريصاً محروماً ، وراهداً مرزوقاً ، ولا
 ميتاً عن كثير ، ولا متبعاً من الدنيا باليسير .

عاتب أعرابي أحاً له على الحرص فقال له : يا أحي أنت طالب
 ومطوب ، يطلبك من لا يفوته ، ويطلب من قد كفيته .
 وأنشد بعضهم :

حتى متى أنت في حل وترحال وطول سعي وإدبار وإقبال
 ونارح الدار لا ينقك مغترباً عن الأحبة لا يدرون بالساحل
 بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر الموت من حرص على بال
 ولو قنعت أناني الرزق في دعة إن القسوع الغنى لا كثرة المال
 النوع الثاني من الحرص على المال أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع
 الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة ويمنع الحقوق الواجبة ، فهذا من
 الشح المذموم قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْسِخْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
 (الحشر : ٩) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ
 قال : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ،
 وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »^(١) .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اتقوا
 الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا
 محارمهم »^(٢) .

أما الحرص على الشرف فهو أشد إهلاكاً من الحرص على المال ، فإن

(١) رواه أبو داود (١٥/٥) الزكاة : باب في الشح ، والحاكم (١١/١) . وصححه شعيب الأرنؤوط .

(٢) رواه مسلم (١٣٤/١٦) البر والصلة : باب تحريم الطم ، ورواه أحمد (٣٢٣/٣) .

طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضرم على العبد من طلب المال ، وضرره أعظم والزهد فيه أصعب ، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف .

والحرص على الشرف نوعان : أحدهما : طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال وهذا خطر جداً وهو في الغالب يمتع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها . قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٢) .

وقل من يحرص على رياسة الدنيا يطلب الولايات فيوفق ، بل يوكل إلى نفسه ، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة : «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها» (١) .

قال بعض السلف : ما حرص أحد على ولاية فعذل فيها . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون فدامة يوم القيامة ، فتعمت المرضعة وبشت الفاطمة» (٢) .

وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رجلين قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله أمرنا . قال : «إنا لا نؤتي أمرنا هذا من سألناه ولا من حرص عليه» (٣) .

ومن دقيق حب الشرف طلب الولايات لمجرد علو المنزلة على الخلق ، والتعظيم عليهم ، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه

(١) رواء البخاري (١٢٣/١٣) باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها ، ومسلم (٢٠٦/١٢ ، ٢٠٧) الإمارة التي عن طلب الإمارة والحرص عليها .

(٢) رواء البخاري (١٢٥/١٣) الأحكام : باب ما يكره من الحرص على الإمارة وقوله : «نعم المرضعة» قال البخاري . مثل ضرره للإمارة وما يصل إلى الرجل من المنافع فيها واللذات وضرب «الفاطمة» مثلاً للموت الذي يهدم عليه تلك اللذات ويقطع منافعها عنه .

(٣) رواء البخاري (١٢٥/١٣) الأحكام : باب ما يكره من الحرص على الإمارة ومسلم (٢٠٧/١٢) الإمارة : النهي عن طلب الإمارة .

ودلهم في طلب حوائجهم منه ، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته ، وربما تسبب بعض هؤلاء إلى إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه ليضطربهم بذلك إلى رفع حاجاتهم إليه وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه ، ويتعاضم بذلك ويتكبر به ، وهذا لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٢) .

وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٤) .

فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم ، وأدهى وأمر من الشرك ، والشرك أعظم الظلم عند الله .

ومن دقيق الحرص على الشرف كذلك أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ، ويشى عليه بها ويطلب من الناس ذلك ، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه ، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح ، وهذا يدخل في قوله : ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (آل عمران : ١٨٨) .

ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أفعاله ، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق ، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له ، فإن النعم كلها منه .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله شديد العناية بذلك ، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتاباً يقرأ عليهم وفيه أمر بالإحسان إليهم وإزالة المظالم التي كانت عليهم ، وفي الكتاب ولا تحمدوا على ذلك إلا الله فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري .

وحكايته مع المرأة التي طلست منه أن يفرض لبناتها اليتامى مشهورة ، فإنها كانت لها أربع بنات ففرض لاثنتين منهن وهي تحمد الله ، ثم فرض للثالثة فشكرته فقال إنما كنا نعرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله ، فمري هذه الثلاث يواسين الرابعة .

والنوع الثاني من الحرص على الشرف ، طلب الشرف على الناس
بالأمور الدينية :

وهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد إفساداً وحطراً ، فإن العلم والعمل
والرهد إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى والتعظيم المقيم .
قال الثوري . إنما فضل العلم لأنه يتقى به الله ، وإلا كان كسائر
الأمور . وقد روى أحمد وأبو داود وابن ماجة عنه عليه السلام قال : « من تعلم علماً مما
يتقى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم
القيامة » (١) .

يعني ربحها . وسبب هذا والله أعلم أن في الدنيا جنة معجلة ، وهي
معرفة الله ومحنته والأس به والشوق إليه وتحشيته وطاعته ، والعلم النافع يدل
على ذلك فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة
في الآخرة ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة
ولهذا كان أشد الناس حسرة يوم القيامة عالم لم يفعه الله بعلمه ، حيث
كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا
في التوصل إلى أحسن الأمور وأدناها وأحقرها ، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة
لها قيمة فباعها بعررة أو شيء مستقذر لا يتفجع به ، فهذا حال من طلب الدنيا
بعلمه .

* ومن طلب الشرف بالدين أن يطلب العبد بالعلم والعمل والرهد الرياسة
على الخلق والتعالي عليهم .

عن ابن مسعود قال : « لا تعلموا العلم لثلاث لتماموا به السفهاء . أو
لتجادلوا به الفقهاء ، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم ، وابتغوا بقولكم
وفعلكم ما عند الله فإنه يبقى ويفنى ما سواه » .

(١) أبو داود (٩٧/١٠ ، ٩٨) العلم . باب في طلب العلم لغير الله ، ورواه ابن ماجة (٩٣/١) في
لمقدمة باب الانتماع بالعلم والعمل به قال عبد القادر الأربازوط وفي مسنده صحيح من أبي لمعير
لحرابي أبو يحيى المدي وهو صدوق كثير الخطأ ، ومع ذلك فقد صححه لحاكم ووافقه ذهبي ،
وحدود إسناده لحافظ العراقي ، ولكن توبع في جامع بيان العلم (١٩٠/١) فهو به حسن .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أول الخلق تُسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة ، صهم لعالم لدي قرأ القرآن ليُقال قاريء ، وتعلم العلم ليُقال عالم . وأنه يُقال له قد قيل ذلك وأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

قال سفيان الثوري : إن هذا الحديث عرف من أراد به الدنيا وحدها ومن أراد به الآخرة وجدها .

* ومن طلب الشرف بالدين الجراءة على الفتيا ، والحرص عيها ، والمصارعة إليها ، والإكثار منها .

قال علقمة : كانوا يقولون أحرؤكم على الفتيا أقلكم علماً وعن البراء قال : أدركت عشرين ومائة من أنصار ، من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة ، ما منهم من رجل إلا ودأن أحاه كناه . وفي رواية فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم ، وأجهلهم بها أطقهم ، وقال بعضهم : إنما العالم الذي إذا أفتى فكأنما يقطع ضرره .

وقال بعضهم : العلم ثلاثة حلال وحرام ولا أدري .

وقال الإمام أحمد : ليعلم المفتي أنه يُوقَعُ عن الله أمره ونهيه ، وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك

وكان ابن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان .

وكان البخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة ثم يقول ما وجدت أحداً تسأله عيري ؟ وقال قد تكلمت ولو وجدت بدأ ما تكلمت ، وإن زماناً أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء .

وقال بعض العلماء لبعض المفتين : إذا سألت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل ، ولكن تخليص نفسك أولاً .

وقال لله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِّ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ﴾ (الحجرات : ١) .

فلا يعني لأحد أن يتكلم في مسألة من مسائل الدين حتى يرجع إلى
الكتاب والسنة أولاً ؛ حتى لا يقدم رايه وهواه على كلام الله عز وجل وكلام
رسوله ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ
وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴾ (النحل : ١١٦) .

* ومن طلب الشرف بالدين كذلك الدخول على الملوك والدنو منهم ، وهو
الناف الذي يدخل منه علماء الدنيا إلى بيل الشرف والرياسات فيها .
خرج الإمام أحمد وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن
النبي ﷺ وفي حديثه : « وما ازداد أحد من السلطان دنواً إلا ازداد من الله
بعداً » (١) .

ومن أعظم ما يخشى على من يدخل على الملوك الظلمة ، أن يصدقهم
بكذبهم ، ويعينهم على ظلمهم ، ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم .
وقد خرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من
حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سيكون بعدي أمراء
فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست
منه وليس بوارد عليّ الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعينهم على ظلمهم ولم
يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض » (٢)

* ومن طلب الشرف بالدين محبة الشهرة والسعي إليها ، كان السلف رضي
الله عنهم يكرهون الشهرة أشد الكراهة ، منهم أيوب والنخعي وسفيان وأحمد
وغيرهم من العلماء الربانيين ، وكذلك الفضيل وداود الطائي وغيرهم من الرهاد

(١) قال الهيثمي لم أحده في سحني من أبي داود - رواه أحمد والبرار وأحمد إسماعيل أحمد رجليه
الصحيح خلا الحسن بن الحكم الحمصي وهو ثقة - مجمع الروايات (٢٤٦/٥)

(٢) قال الهيثمي رواه أحمد والبرار والترمذي في الكبير والأوسط وأحمد أنسب البرار رجليه
أحمد كذلك - مجمع الروايات (٢٤٨/٥) .

والعارفين ، وكانوا يذمون أنفسهم غيبة الدم ، ويسرون أعمالهم عية الستر
كان محمد بن واسع يقول لو أن للدنوب رائحة ، ما استطاع أحد أن
يحالسي .

وكان إبراهيم الحلي إذا دخل عليه أحد وهو يتر في المصحف عظه
وكان أويس وغيره من الرهاد إذا عرفوا في مكان ارتحلوا عنه
وقد تبين بما ذكرناه أن حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين
المرء حتى لا يبقى منه شيء

واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أساء حسنها ، ولكن العاقل
ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقرنه وجواره ، ويرغب عن
العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه واحطاط العبد وسفوله ، قال
الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَفَى وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ
مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (التازعات : ٣٧) .
قال الحسن : إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة .
وقال وهيب بن الورد : إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل .
ففي درجات الآخرة الساقية يشرع التنافس وطلب العلو في منازلها ،
والحرص على ذلك والسعي في أسبابه ، وأن لا يقنع الإنسان منها بالدون مع
قدرته على العلو قال الله عز وجل . ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾
(المطففين : ٢٦) .

وأما العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غدا حسرة وندامة وذلة
وهواناً وصغاراً ، فهو الذي يشرع الزهد فيه والإعراض عنه ، وللزهد فيه أسباب
سعيدة :

• فمها : نظر العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا
يؤدي حقها في الآخرة ، فينظر العبد إلى عقوبة الطالمين والمكذبيين ومن نازع
الله رداء الكبرياء .

وفي السسر عن النبي ﷺ قال : «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يَسَافُونَ إِلَى سَجَسٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُؤْلَسٌ يَعُولُهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يَسْقُونَ مِنْ عَصَاةٍ أَهْلُ النَّارِ طِينَةُ الْخَبَالِ» (١)

استأذن رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المصص على الدس فقال : إني أخاف أن تقص عليهم فترفع عليهم في نفسك حتى تصعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة

* ومنها : نظر العبد إلى ثواب المتواضعين لله في ادب بالرفعة في الاحرة ، فإنه من تواضع لله رفعه .

* ومنها . وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ، ما يعوض الله عباده العارفين به الراهدين فيما يقضى من المال والشرف مما يحبه الله لهم في الدنيا من شرف التقوى ، وهبة الخلق لهم في الظاهر ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن ، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، وهذه الحياة الطيبة ثم بدورها السموك في الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف كما قال إبراهيم بن هاشم بن دهم رحمه الله . لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لحسدوا عليه بالسوف

ومن رزقه الله ذلك شغل به عن طلب الشرف البرئ والرياسة الفانية قال الله تعالى ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف ٢٥)

وقال . ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (وص ١٠)

والله عز وجل هو العزيز ومن أراد العزة فليطع العزيز

كان حجاج بن أرطاة يقول قتلني حب الشرف ، فقال له سوار بن أنفيت الله شرفت ، وفي ذلك قيل :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ وَحُكُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الدُّلُّ وَالسَّقَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَسَدٍ تَقِيٍّ بَقِيصَةٌ إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَى وَبُنَّ حَاكٌ أَوْ خَجَمٌ

(١) رواه الترمذي (١٢٠٣/٩ ١٢٠٤) أبواب صفة القيامة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وحسنه الألباني في الجامع وحسنه عبد القادر الأربلاء في تكملة جامع لأصول وطيفة حبان جاء تفسيرها في بعض طرق الحديث في برسور لله ﷺ : «وما طية الخبال ؟ قال هي صديد أهل النار» .

قال بعضهم من أشرف وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده
 كان الحس لا يستطيع أحد أن يسأله هبة له وكذلك كان مالك بن أنس
 يهاب أن يسأل حتى قال فيه القائل :
 يَدْعُ الْحَوَابَ وَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاصِرُ الْأَذْفَانِ
 سُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التَّقَى فَهُوَ الْمَهِيْتُ وَلَيْسَ دَا سُلْطَانِ
 قال محمد بن واسع إذا أقبل العبد بقلبه على الله ، أقبل الله عليه
 بقلوب المؤمنين

وكتب وهب بن ميه إلى مكحول : أما بعد فإني أصبحت بطاهر علمك
 عند الناس شرفاً ومنزلة ، فأطلب باطن علمك عند الله منزلة ورهى . واعلم أن
 إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى ، ومعنى هذا أن العلم الظاهر من تعلم
 الشرائع والأحكام والفتاوى والقصص والوعظ وبحو ذلك مما يظهر للناس ،
 يحصل به لصاحبه عندهم منزلة وشرف ، والعلم الباطن المودع في القلوب من
 معرفة الله وخشيته ومحبته ومراقبته والأنس به والشوق إلى لقائه والتوكل عليه
 والرضا بقضائه ، والإعراض عن عرض الدنيا الفاني والإقبال على جوهر الآخرة
 الباقي ، كل هذا يوجب لصاحبه عند الله منزلة وزلفى وبكل حال فطلب شرف
 الآخرة يحصل معه شرف في الدنيا وإن لم يردده صاحبه ولم يطلبه
 قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
 الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أي مودة في قلوب عباده (مريم : ٥٦)

اللهم احفظنا بالإسلام قائمين ، واحفظنا بالإسلام قاعدين ، ولا تشمت
 بنا الأعداء والحاسدين ، اللهم أعزنا بالإسلام وأعز الإسلام بنا ، اللهم إنا
 نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها
 من قول وعمل .

فضائل النبي ﷺ (١)

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، والشكر له على ما أولى من نعمٍ سائغةٍ وأسدي ، تحمده سبحانه وهو الولي الحميد ، ونتوب إليه جل شأنه ، وهو التواب الرشيد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نستجلب بها نعمه ، ونستدفع بها نقمه ، وندحرها عدة لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله صلى الله عليه وعلى آله نحوم المهتدين ، ورجوم المعتدين ، ورصي الله عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته ، وحفظ شريعته ، وتبليغ دينه إلى سائر أمته ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

أما بعد ، ، ،

(فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها . وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) .

وبعد ، ، ،

قال الله تعالى لبينا ﷺ متمساً عليه ومُعَرِّفاً لقدره لديه ﴿ وَاتَّزَلَّ اللَّهُ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
عَظِيماً ﴾ (النساء : ١١٣) .

(١) بداية السؤل في تفصيل الرسول ﷺ العلامة الحرم عبد السلام بنحوي ونعليق عبد الله محمد النجدي
العماري بتصريف واختصار

وقد فصل الله عز وجل بعض السنين على بعض فدان تعالى ﴿ وَفَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء ٥٥) وقال عز وجل ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة ٢٥٣)

أما حديث «لا تفصلوا بين أنبياء الله» وهي رواية «لا تحيروا بين الأنبياء»^(١) وهو يكتنر روايته في الصحيح - فالمراد به الهي عن التفضيل بمحرد الرأي الذي لا يستند إلى دليل ، أو المراد النهي عن التفضيل الذي يؤدي إلى نقص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، أو النهي عن التفصيل في النسبة نفسها ، وهي لا معاضلة فيها لقوله تعالى : ﴿ لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (البقرة : ٢٨٤) .

وقد دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة على فصل

بينهم ﷺ .

* فمن الأدلة على شرفه وفصله ﷺ أنه ساد الكل ﷺ كما في حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه من قوله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه»^(٢) .

ولما كان ذكر مناقب النفس إنما يذكر افتخاراً في الغالب ، أراد ﷺ أن يقطع وهم من توهم من الجهلة أنه يذكر ذلك افتخاراً فقال : «ولا فخر» .
* ومن الأدلة على شرفه ﷺ أن الله تعالى أخره بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولم ينقل أنه أخر أحدًا من الأنبياء بمثل ذلك ، بل الظاهر أنه لم يحبرهم ، لأن كل واحد منهم إذا طلست منهم الشفاعة في الموقف ذكر خطيئته التي أصابها وقال : (نفسي نفسي) كما ورد في حديث الشفاعة الطويل وفيه أن الناس يذهبون إلى آدم ويوح وإبراهيم وموسى يطلبون الشفاعة ، فكل منهم يذكر أن الله غضب اليوم غضباً لم يعضب قبله مثله ولن يعضب بعده مثله ، ثم

(١) روه البخاري لمعط ولا تفصلوا بين أولياء الله (٤٥٠/٦) الأنبياء : باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ومسلم (١٣٠/١٥) الفصائل : فصل موسى عليه السلام

(٢) روه البخاري (٧/٥) المحصرات : باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود ، ورواه مسلم (١٣٣/١٥) الفصائل : فصائل موسى ﷺ .

يقول : (نفسى نفسى) ويحييهم على غيره حتى يأتوا عيسى فيقول لهم (لست هناك ، ولكن اتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) فيد أنوا النبي ﷺ قال : «أنا لها أنا لها»^(١) .

* ومنها أنه ﷺ أول شافع وأول مشفع ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع»^(٢)

فهو ﷺ أول من يشفع في الخلائق يوم القيامة ، كما في حديث الشفاعة المتقدم حين يذهب للشفاعة يستأذن على الله فيأذن له ، فإذا رأى الله تعالى خيراً ساجداً ، ويدعه الله ما شاء ثم يقال : «ارفع رأسك محمد قل تسمع وسل تعط واشفع تُشفع»^(٣) .

وهذه هي الشفاعة العظمى في الخلائق كلهم يوم القيامة ، وهي المقام المحمود الذي اختص به نبينا ﷺ في قوله تعالى ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء : ٧٩) .

وعسى من الله واجب كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ولبيبا ﷺ شفاعات أخرى ، منها شفاعته لأهل الجنة في دخولها ، فلا تفتح لأحد قبله ﷺ ، ومنها شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بدووبهم ، فيشفع لهم حتى لا يدخلوها ، ومنها شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم ، ومنها شفاعته لأهل الكيثر من أمته ، ومنها شفاعته في بعض أهل الكفار حتى يخفف عنهم عذاب النار ، وهذه خاصة بأبي طالب ففي صحيح البخاري عن العباس رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما أعنت عن عمك وكان يدفع عنك ويحوطك قال «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا

(١) أخرجه ابن حبان بسند صحيح وهو لأبي في حلق «اية السور» وهو مخرج في ضلال ابنه وفي مخرج السنة رقم (٣٩٣) وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عن الترمذي وعمره وحسنه وهو في الصحيح رقم (١٥٧١) .

(٢) الحديث مخرج في الكتب الستة بألفاظ وطرق وهو في تبحري (٤٧٣/١٣) : «وحيد : بهاب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وعمرهم ، ومسلم (٥٣/٣) إلى (٦٠) الإمام : باب الشفاعة .

(٣) رواه مسلم (٢٧١٥) : «عصاة» : باب تفصيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق وأبو دود في السنة ، والترمذي في «ألقاب

لكان في الدرك الأسفل من النار^(١) .

* ومن شرفه وفضله ﷺ إيثاره ﷺ أمته على نفسه بدعوته ؛ إذ جعل الله عز وجل لكل نبي دعوة مستجابة ، فكل منهم تَعَجَّل دعوته في الدنيا ، وَاحْتَبَأَ هو ﷺ دعوته شفاعته لأمته .

ففي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعته لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً^(٢) » .

وقد دلت الأحاديث الكثيرة على رحمة النبي ﷺ بأمته ، وإيثاره إياهم على نفسه ، ودعاؤه لهم في كل مناسبة تعرض له ، بل بلغ من شففته عليهم أنه أخذ الكاء عند الدعاء لهم ، كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٦) .

وقول عيسى : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهْتَكُوا عِبَادَتِي وَإِنْ تَسْتَجِيبُوا لَهَا فَسَأَكْفُرَنَّ عَنْكُمْ وَلِيُنْصَرِفَ عَنْكُمْ وَرَأْسُ الشَّيْطَانِ حَذِيقٌ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (الحاقة : ١١٨) .

فرفع يده وقال : « أمتي أمتي » ثم بكى فقال الله تعالى يا جبريل : « اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك^(٣) » .

فصلى الله عليه وسلم وبارك وجزاء عنا أفضل ما جرى نبياً عن أمته .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن الله تعالى أقسم بحياته ﷺ فقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر : ٧٢) . وإن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم الله

(١) رواه البخاري (١٩٣/٧) مساف الألبار قصة أبي طالب ، ومسلم (١/١٣٤ ، ١٣٥) ورواه أحمد عن ابن عباس وقال الألباني حمله الله في التعليق عليه هذا الحديث يعني في أن السب في التعقيب إنما هو التي عليه السلام أي شفاعته وليس هو عمل أبي طالب ، وهذه خصوصية لرسول ﷺ كرامة أكرمها الله تبارك وتعالى بها ، مع أن القاعدة في المشركين أنهم كما قال الله عز وجل : ﴿ فَمَا تَتْلُوهُمْ شَفَاغَةُ الشَّافِينَ ﴾ ولكن الله تعالى يختص بفضله من يشاء .

(٢) رواه البخاري (٩٦/١١) الدعوات : باب لكل نبي دعوة مستجابة ، ورواه مسلم (٧٥/١٣) الإيمان . باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعته لأمته .

(٣) رواه مسلم (٧٨/٣) الإيمان : باب بشارة الأمة .

عر وجل بها ، بما فيها من اسركه العامة والخاصة ، أخرج اس حبيب عن اس
عاس ، قال ما خلق الله وما برأ وما دواً بصاً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما
سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
سَكْرَتِهِمْ يَقْعَهُونَ ﴾ (الحجر : ٧٢) .

* ومن شرفه وفصله ﷺ أن الله تعالى وقره في بدائه ، فاداه بأحب أسمائه
وأسمى أوصافه فقال « يا أيها نبي » وقال : « يا أيها الرسول » فادى الله عر
وجل الأسياء بأسمائهم الأعلام فقال : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾
(الأعراف : ١٩) .

وقال : ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾ (هود : ٤٨) وقال : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ
صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ (الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥) وقال : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ
بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم : ١٢) وما حاطب الله عر وجل نبياً ﷺ إلا بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ ﴾ أو بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ ولا يحصى على أحد أن السيد إذا دعا
أحد عبيده بأفضل ما وجد فيه من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ، ودعا
الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر وصف من الأوصاف ولا بخلق من
الأخلاق ، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه
ممن دعاه باسمه العلم .

وجمع الله عز وجل في الذكر بين خليله إبراهيم وخليله محمد ﷺ ،
فذكر خليله إبراهيم باسمه وخليله محمد بكية النبوة فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوْلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ (ال عمران : ٦٨) فكناه إحلالاً له
ورفعة لفصل مرتبته ونبأته عنده ثم قدمه في الذكر على من تقدمه في البعث
فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (الأحزاب : ٧) .

* ومن فضله وشرفه ﷺ أن الله عز وجل أمر الأمة بتوقيره واحترامه ، فأحبر عر
وجل أن الأمم السابقة كانت تحاطب رُسُلهم بأسمائهم الأعلام كقولهم ﴿ يَا
مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (الأعراف : ١٣٨) وقولهم : ﴿ يَا هُودُ مَا
جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ (هود : ٥٣) . وقولهم : ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ (الأعراف :

(٧٧) ونهى الله عز وجل أمة النبي محمد ﷺ أن ينادوه باسمه فقال عز وجل
﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَتَيْنِكُمْ كَذُعَاءِ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ (البور : ٦٣)

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : (كانوا يقولون يا محمد يا أما القاسم
فنهاهم الله عن ذلك إعطاهم الله ﷺ ، قال : فقالوا يا نبي الله يا رسول الله
ونهى الله عز وجل أمه النبي أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته إعطاهم له ﷺ
فقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا
تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات : ٢) .

* ومن فضله وشره ﷺ أن معجزة كل نبي تصرمت وانقصت
ومعجزته ﷺ - وهي القرآن المبین - باقية إلى يوم الدين .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ وآله : «ما من الأنبياء
نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً
أوحاه الله إليّ ، فأرحو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١) .

قال العلماء : ليس المراد من الحديث حصر معجزاته ﷺ في القرآن وأنه
لم يؤت غيره .

وقال عمرو بن سوار : (قال لي الإمام الشافعي : ما أعطى الله تعالى نبياً
ما أعطى محمداً ﷺ . قلت : أعطى عيسى إحياء الموتى . فقال : أعطى
محمداً ﷺ حنين الجذع فهذا أكبر من ذلك) .

— فمن معجزاته ﷺ حنين الجذع اليابس وهذه المعجزة متواترة عن النبي ﷺ
كما روى أسد وابن عباس أن النبي ﷺ كان يخطب على جذع فلما اتخذ
المنبر ذهب إلى المنبر فحن الجذع فاحتضنه فقال : «لو لم احتضنه لحن
إلى يوم القيامة» .

— ومنها تفجير الماء من بين أصابعه قال بعضهم هذا مما تواتر أيضاً عنه ﷺ في
مناسبات كثيرة عن جمع من الصحابة بعضها في الصحيحين كحديث

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ومسلم (١/٣٤١ ، ٤٥١) .

(٢) لا لأبي هذه المعجزة متواترة عن النبي ﷺ وقد جمع قسماً كبيراً من طرقها لحافظ ابن كثير
في البداية والسيوطي في الخصائص عن جمع من الصحابة وقوله «لو لم احتضنه» عند ابن ماجة
(١٤١٥) - بداية السور هامش ٤٠ .

أسر بن مالك رضي الله عنه قال . « رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله ﷺ بوصوء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم» (١) .

— ومنها تسليم الحجر عليه ﷺ ففي صحيح مسلم عن حابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن» (٢) .

— ومنها انشقاق القمر له ﷺ قال الله تعالى . ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر . ١) . (٢) .

فقد سأل أهل مكة رسول الله ﷺ آية فأشار إلى القمر فانشق لإشارته ﷺ .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن الله عز وجل يكتب لكل نبي من الأنبياء من الاجر بقدر أعمال أمته وأحوالها وأقوالها ، وأمه شطر أهل الجنة .

فقد روى أحمد ومسلم والأربعة من حديث أبي هريرة بلفظ (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) (٣) .

وأمه خير الأمم ﷺ ، وإنما كانوا خير الأمم لما اتصفوا به من المعارف والأحوال والأقوال والأعمال ؛ ولأجل هذا نكى موسى عليه السلام ليلة الإسراء بكاء غبطة غبط بها النبي ﷺ إذ يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمة موسى عليه السلام ، وصح هذا في قصة المعراج من حديث (أسر بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً وفيه . ثم صعد بي إلى السماء السادسة فلما خلصت

(١) هذا مما تواتر أيضاً عنه ﷺ في مناسبات كثيرة عن جمع من الصحابة حرج أحاديثهم أبو يعين والسيوطي . هامش بداية السؤل (٤١) للألباني

(٢) أخرجه مسلم (٥٨٧/٧-٥٩) والترمذي (٣٦٢٨) وحسنه والدارمي وأحمد وأبو يعين في أدلائل تحقيق بداية السؤل .

(٣) رواه مسلم (٦٢/٨) وأبو داود (٢٦٢٢) والترمذي (١١٢/٢) والدارمي وابن ماجة وأحمد وقال

فإذا موسى ، قال (جبريل) : هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى . قيل له ما يبكيك ؟ قال أُنكي لأن غلاماً بعد ، بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي^(١) .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أن الله تعالى أرسل كل نبي إلى قوم خاص وأرسل نبياً ﷺ إلى الجن والإنس ولذلك تمنى بقوله تعالى : ﴿ وَتَوَشَّيْنَا لَجَنَّا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥١) .

ووجه التمنى أنه لو بعث في كل قرية نذيراً ، لما حصل لرسول الله ﷺ إلا أجر إنذاره لأهل قريته .

* ومن شرفه وفضله ﷺ أنه ﷺ صاحب الوسيلة ، وهي أعلى درجة في الجنة لا تبغي إلا لعباد الله ، وهي له ﷺ .

ففي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»^(٢) .

* ومن شرفه ﷺ الكوثر الذي أعطاه الله عز وجل ، وهو نهر في الجنة وحوض في الموقف .

روى أحمد ومسلم وغيرهما عن أنس قال : بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغشى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال لقد أنزلت عليّ آتفاً سورة فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر) .

ثم قال : «أتدرون ما الكوثر» ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإنه

(١) رواه البخاري (٢٠١/٧-٢٠٢) مناقب الأنصار : باب المعراج .

(٢) رواه البخاري (٩٣/١ ، ١٢١) ومسلم وأبو غوابة والسنائي والدارمي والبيهقي والسرّاج - إرواء الغليل

٠٠ (٣١٦/١)

بهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوص ترد عليه أمتي يوم
القيامة ، آتته عدد النجوم في السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول يا رب إنه
من أمتي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك^(١)

* ومن شرفه وفضله ﷺ ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أنه سمع رسول
الله ﷺ يقول : «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيْنَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ - يَعْنِي الْجُمُعَةُ - فَاحْتَلَفُوا فِيهِ ،
فَهَذَا اللَّهُ لَهُ فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»^(٢)

والمعنى أن هذه الأمة بركة سيها ﷺ أحر الأمم خلقاً ، وأولهم دحولاً
الجنة يوم القيامة ، وفي الحديث كذلك أن الله عز وجل قد فرض على الأمم
السابقة يوماً يعظمونه ويتعدون فيه فوقع احتبار اليهود على يوم السبت والنصارى
على يوم الأحد ، وهدي الله عز وجل أمة النبي ﷺ ليوم الجمعة

* ومن فضله ﷺ أنه أحلت له العنائم ، ففي الصحيحين عن جابر أن
النبي ﷺ قال : «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةً
شَهْرًا ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ
الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ ، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ،
وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(٣) .

* ومن فضله ﷺ أن الله عز وجل أثنى على خلقه فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

واستعظام العظيم للشيء يدل على إبعاله في العظمة .

* ومن فضله ﷺ أن الله عز وجل أنزل أمته منزلة العدول من الحكام ، فعن
أبي سعيد الحذري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «يُدْعَى نُوْحٌ يَوْمَ

(١) رواه مسلم (٤/٢) وأبو عروة وأبو داود والسنائي وأحمد وقال الترمذي حسن صحيح - إرواه
الغليل - ٢٤٢ .

(٢) رواه البخاري (٣٥٤/٢) الجمعة باب فرض الجمعة ، ومسلم (١٤٢/٦ ، ١٤٣) الجمعة باب هداية
هذه الأمة ليوم الجمعة ، ورواه السنائي كذلك في الجمعة باب إيجاب الجمعة

(٣) رواه البخاري (٤٣٦/١) في التيمم باب التيمم ، وفي المساجد وفي الجهاد ، ومسلم (٣/٥ ، ٤)
في المساجد في فاتحة الكتاب .

القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت ؟ فيقول نعم
 فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك ؟
 فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسل عليهم شهيداً فذلك
 قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
 وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) (البقرة : ٤٣١) . والوسط لعدل .
 * ومن فضله ﷺ حفظ كتابه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

وقال عن الكتب السابقة ﴿ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (المائدة : ٤٤) .
 فجعل حفظه إليهم فضاع .

* ومن فضله ﷺ عصمة أمته فلا تجتمع على ضلالة ، وحفظ طائفة من أمته
 لا تزال ظاهرة على الحق كما في حديث البخاري وغيره «لا تزال طائفة من
 أمتي ظاهرة على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم
 كذلك» (٢) .

* ومن فضله وشرفه ﷺ أن الله عز وجل وهبه سبعين ألفاً من أمته ، يدخلون
 الجنة بلا حساب ولا عذاب وجوههم مثل القمر ليلة البدر ، لا يدخل أولهم
 حتى يدخل آخرهم ، وليس هذا لأحد غيره ﷺ .

اللهم إنا نسألك محبة المصطفى ﷺ كما آما به ولم نره ، ولا تفرق بيننا
 وبينه حتى تدخلنا مدخله ، اللهم اسقنا من حوضه شربة هنيئة مريئة لا نظماً
 بعدها أبداً .

اللهم أحينا على سنته ، وأمتنا على ملته ، واحشرنا في زمرة .

(١) رواه أحمد (٣٢/٣) وابن ماجة وغيره بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البخاري باختصار
 (٢) رواه البخاري (٢٩٣/١٣) الاعتصام بالنبيه باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على
 الحق وفي الآباء والتوحيد ورواه مسلم (٦٥/١٣) في الإمامة باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي
 ظاهرة على الحق

الزكاة^(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستعصره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار

وبعد ، ، ، ،

الركاة عباد الله هي الركن الثالث من أركان هذا الدين ، قال النبي ﷺ : «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»^(٢) .

وهي قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (البينة : ٥) وقال عز وجل : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ (التوبة : ٥) . وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال

(١) تفسير الفرطبي - تفسير اس كثير - فقه الزكاة للقرصاوي - إحياء علوم الدين للعرالي
(٢) البخاري (٤٩/١) الأيمان باب دعاؤكم إيمانكم ، ومسلم (١٧٦/١) الإيمان باب أركان الإسلام ورواه الترمذي والسنائي .

له : «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُوْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرْدُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَرِيَاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ﴿١﴾ .

وفي الصحيحين كذلك عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» (٢) .

ولذا قال الصديق رضي الله عنه . «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها» (٣) .

ولم يبال الصديق ولا من معه من الصحابة بتلك الشهة الواهية التي تعلق بها بعض المانعين للزكاة ، فقد تمسكوا بظاهر قول الله عز وجل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ١٠٣) .

فقالوا هذا خطاب للبي ﷺ يقتضي بظاهره اقتصاره عليه ، فلا يأخذ الصدقة سواه ، وقالوا إن البي ﷺ كان يعطياً عوضاً عن الزكاة التطهير والتركية لنا والصلاة علينا ، وصلاته سكن لنا ، وقد عدنا ذلك من غيره ﷺ .
والشبهة التي تمسك بها القوم واهية الأساس ؛ حتى قال القاضي أبو

(١) رواه الرمدي (٨٧/٣ ، ١١٨) ومسلم (١٩٦/١ ، ١٩٧) والإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام والبحاري (٦٤/٨) في المغاري باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قل حجة الوداع ، الزكاة : باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة .

(٢) رواه البحاري (٢٦١/٣) أول الزكاة وهي استئانة المرتدين ، ومسلم (٢١٢/١) الإيمان وأخرجه أبو داود في الزكاة والسائي في الزكاة ، فضل أبي بكر الصديق .

(٣) في صحيح مسلم (٢٠٧/١) في الإيمان . الكلام على توبة الرديق

بكر من العربي هذا كلام جاهل بالقرآن ، غافل عن ما حد الشريعة ، متلاعب
بالدين متهاوت النظر .

وإن الخطاب وإن كان للبي ﷺ في الأصل ، فهو خطاب لكل من يقوم
بأمر الأمة من بعده ، فهو ليس من الخطاب الخاص به ﷺ ، وما قلوه من أن
النبي ﷺ كان يخطبهم عوضاً عن الصدقة التطهير والتركية والصلاة عليهم ولا
يوجد دلت في غيره فدعوى غير مسلمة ، فإن التطهير والتركية إنما يتمايان بواسطة
الزكاة فهي أداء التطهير .

قال تعالى ﴿ تَطْهَرُهُمْ وَتُرْكِهُمْ بِهَا ﴾ (التوبة ١٠٣)

وكذلك الصلاة عليهم بمعنى الدعاء لهم ، فكل من يأخذ الركعة من
الإمام أو نائبه مأمور أن يدعو لمعطيتها بالركعة والآخر ، ولا يحتص بالبي ﷺ
وإن كان دعاؤه في المقام الأسمى في التأثير في سكن النفس وطمأنيتها
فأركعة تطهير للمال بإخراج حق الله تعالى فيه

وتطهير للمزكي من الشح والحل وحب المال ، وتطهير للمقير من الحسد
والغص للعي ، ورفع لمعوياته بقضاء حاجاته وضروراته .

والزكاة في الإسلام :

* حق الفقراء في أموال الأغنياء ، وهذا الحق أوحى الله عز وجل
* وهذا الحق معلوم قد حددت الشريعة مفاديره وأبصته المختلفة في أنواع
الأموال ، ولم يترك تحديده لضمائر الناس .

* وهذا الحق كذلك على الدولة حيازة وتوريعة ، وعلى الحاكم أن يؤدب بما
يراه من عقوبة على من يمنع عن أداء هذه الفريضة بعد أحدها عوة ، وأي فئة
ذات شوكة تنمرد على أداء هذه الفريضة فمن حق الإمام بل من واجبه أن
يقاتلهم ، حتى يؤدوا حق الله وحق الفقراء في أموالهم .

* وإن قصرت الدولة في المطالبة بالركاة وتقاعس المجتمع عن رعايته هذه
الفريضة لا يسقط ذلك وجوبها على الأفراد ، فيجب عند ذلك على الأفراد
إخراج الزكاة المعروضة في مصارفها الشرعية .

• وإن تَعَدَّتِ الدولة الظالمة ، وأخذت من الأفراد الضرائب الباهظة ، لا يُسقط ذلك فرض الزكاة في أموالهم ، لأن الضرائب لا تؤخذ تحت شعار الزكاة ، ولا تُنفق في مصارف الزكاة التي حددتها الشريعة .

• وحصيلة الزكاة لا تُترك لأهواء الحكام ، ولا لتسلط رجال الكهنوت كما هو الحال عند اليهود ، بل حدد الإسلام مصارفها في قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ قَرِيبَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٥٩) .

وتجب الزكاة بشروط أربعة :

حرية ، وإسلام ، وحول ، ونصاب سليم من الدين ، قالوا : بأن الحرية شرط ، لأن العبد ناقص الملك .

وقالوا : الإسلام شرط ، لأن الزكاة طهرة ، والكافر لا تلحقه طهرة ، ولأن الله تعالى قال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (المزمل : ٢٠) فخطوب بالزكاة من خطوب بالصلاة .

وقالوا إن الحول شرط ، لقوله ﷺ «ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول»^(١) . وقالوا إن النصاب شرط ، لقوله ﷺ : «ليس في أقل من مائتي درهم زكاة ، وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة»^(٢) .

وقد ورد الترهيب الشديد والوعيد الأكيد لمانعي الزكاة :

قال الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَنْفُسُكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة : ٣٤) . أي يقال لهم هذا الكلام تبيكياً وتقريعاً وتهكماً كما في قوله

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وقال الآلاني حفظه الله . قال الحافظ في « التلخيص » لا بأس بإسناده والأثر متعاضد فيصلح للحجة ، وقال النووي رحمه الله في « الخلاصة » : هو حديث صحيح أو حسن .

(٢) رواه أبو عبيد (١١١٣/٤٠٩) والذواقطي (١٩٩) عن ابن أبي ليلى عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب . قال الآلاني : صحيح وهو في كتابي سنده ضعيف فهو صحيح باعتباره رساله من الشواهد ، وفي الآلاني : « سمعنا حدثنا الحديث بطريق آخر سنده صحيح عن علي رضي الله عنه عرجه في صحيح أبي داود (١٤٠٣) فصح حديثه . رواه ٧٨٧ إرواء الغليل رقم ٨١٥ »

تعالى ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيرُ
الكَرِيمُ﴾ (الدخان : ٤٨) .

أي هذا بذاك ، وهذا الذي كنتم تكترون لأنفسكم .
ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به ، هؤلاء لما كان
جمع هذه الأموال أثر عندهم من رصا الله عنهم عدوا بها
كما كان أبو لهب جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ وامراته تعيه في ذلك
كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ، (في جيلدها) أي عصفها (حبل من مسنن)
أي تجمع من حطب النار وتلقي عليه ، ليكون ذلك أبغ في عذابه ممن هو
أشفق عليه في الدنيا .

كما أن هذه الأموال لما كانت أعر الأموال على أربابها ، كانت أصر
الأشياء عليهم في النار الأخرة ، فيحتمى عليها في نار جهنم وناهيك بحررها
فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

قال بعض العلماء : لما طلبوا المال والحاه شأن الله وحوهم ولما طووا
كشحاً عن الفقير إذا حالسهم كويت حوبهم ولما أسدوا ظهورهم إلى أموالهم
نقّة بها واعتماداً عليها كويت ظهورهم .

وقيل إنما خصّ هذه الأعضاء لأن الغني إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه
وقصص وجهه ، وإذا سأله طوى كشحه ، وإذا زاده في السؤال وأكثر عليه ولاه
ظهره ، فرتب الله العقوبة على حال المعصية .

وقد بينت سنة النبي ﷺ كيفية هذا الكي .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم
القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها في نار جهنم ، فيكوى بها
جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف
سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» (١) .

(١) مسلم (٦٤/٧ ، ٦٥ ، ٦٦) الزكاة : باب إثم مانع الركة

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
«من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه
يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول أنا مالك . أنا كنزك» ثم
تلا النبي ﷺ الآية : ﴿ وَلَا يَخْشَى الَّذِينَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ
خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) (آل عمران :
١٨٠) .

أي إن المال يمثل له في صورة شجاع أقرع ، والشجاع الحية الذكر ،
والأقرع الذي طال عمره وسقط شعره ، والزبيبتان نقطتان سوداوان فوق
العينين ، وهو أخبث الحيات ، يطوقه ثم يأخذ بشفتيه فيقول : أنا مالك أنا
كنزك .

ولم يقف الشرع عباد الله عن حد الوعيد بالعقاب الأحروي بل هدد
بالعقوبة الدنيوية كل من يخل بحق الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ
كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وَلَا يَسْتَشُونَ ، فُطِيفَ
عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ، فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ
اغْدُوا عَلَى خَرِيقِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ، أَنْ لَا يَدْخُلَهَا
الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ، وَغَدُوا عَلَى خَرْدٍ قَادِرِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ،
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَ
رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ، قَالُوا : يَا وَيْلَتَنَا إِنَّا
كُنَّا طَاغِينَ ، عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ، كَذَلِكَ الْعَذَابُ
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم من ١٦ إلى ٣٣) .

فمانع الزكاة مهدد في الدنيا كذلك بزوال ماله .

وقال ﷺ : «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين» (٢) .

(١) البخاري (٢٦٨/٣) الزكاة : باب إنم مانع الزكاة وهي تفسير سورة يراة وفي الحيل في الزكاة
(٢) رواه الطبراني في الوسط ورواه ثقات ، والحاكم والبيهقي إلا أنهما قالا «ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله
عنهم القطر» وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم - الترغيب والترهيب (٢٧٠/١) ومجمع الزوائد
(٩٦/٣) والسنين جمع سنة وهي الجذب والقحط .

وقال عليه السلام : «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا»^(١) .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به حجتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييننا ، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل الدنيا أكبر همما ولا ملع عدما ولا تملأ عدينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً .

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وأبو يعين في الحلية (٣٣٣/٨ - ٣٣٤) ، وقال لوصيري في الروايات قد حدث صالح للعمل به وقد اختلفوا في اس مالك وأبيه ورواه الحاكم (٥٤٠/٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجه غيره . قال النووي : هو حسن لإسناد فيه طرق لكنها ضعيفة ، لا طريق حاكم فهو اعتمدت وهي إن لم تردده قوة فلا توهمه . الصحيحة ١٠٦

الزهد في الدنيا^(١)

الحمد لله الواحد القهار ، العزيز الغفار ، مكور الليل على النهار ،
تذكرة لأولي القلوب والأبصار ، وتبصرة لأولي الأبواب والاعتبار ، الذي أيقظ
من خلقه من اضطماه فزهدهم في هذه الدار ، وشغلهم بمراقبته وإدائه
الأفكار ، وملازمة الاتعاظ والإذكار .

أحمده أبلغ حمد وأزكاه ، وأشمله وأنماه .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، البر الكريم ، الرؤوف الرحيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيه وخليله ، الهادي إلى صراط
مستقيم ، والداعي إلى دين قويم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين
وآل كل وسائر الصالحين .

ثم أما بعد ، ، ، ،

خرجنا في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن
النبي ﷺ قال : «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات
الأرض ، قيل ما بركات الأرض ؟ قال زهرة الدنيا . قال رجل . هل يأتي الخير
بالشر ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى ظننت أنه سينزل عليه . ثم جعل يمسح
عن جبينه قال أين السائل ؟ قال أنا . قال : لا يأتي الخير إلا بالخير ، وإن
هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم ، إلا أكلة
الخضر ، حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس فاجترت وثلثت
وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، من أخذه بحقه

(١) مختصر من لطائف المعارف لاس رجب الحلبلي - ورياض الصالحين للنيوي .

ووضعه في حقه فتعم المعونة هو ، وإن أحذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»^(١) .

كان النبي ﷺ يتخوف على أمته من فتح الدنيا عليهم ، فيخاف عليهم الافتتان بها ، ففي الصحيحين عن عمرو بن عوف أن النبي ﷺ قال للأبصار لما جاءه مال من البحرين : «أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»^(٢) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : «إذا افتتحت عليكم خزائن فارس والروم أي قوم أنتم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : نقول كما أمرنا الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون»^(٣) .

قوله ﷺ «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض» .

لما سُمي النبي ﷺ ذلك بركات الأرض ، وأخبر أنه أخوف ما يخاف عليهم أشكل ذلك على بعض من سمعه حيث سماه بركة ، فإن البركة إنما هي خير ورحمة ، وقد سُمي الله تعالى المال خيراً في مواضع كثيرة من القرآن فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات : ٨) وقال : ﴿ إِنْ تَرَكْ خَيْرًا لِّوَصِيَّةٍ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠) .

وقال تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَخْبِئْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ (ص : ٣٢) . فلما سأله السائل : (هل يأتي الخير بالشئ) صمت النبي ﷺ حتى ظنوا أنه أوحى إليه ، والظاهر أن الأمر كذلك ، ويدل عليه أنه ورد في رواية لمسلم في هذا الحديث (فأفاق يمسح عنه الرخصاء) ، وهو

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٤/١١) الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها . يلفظ : إن أكثر ما أخاف عليكم ، ورواه في الجمعة وفي الجهاد وفي الركاة ، ومسلم (٤٢/٧ ، ٤٣) الركاة . باب التحذير من الاغترار بالدنيا .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٣/١١) الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ورواه مسلم (٩٥/١٨) أول كتاب الزهد ، وهو في المسند (١٣٧/٤) ، والترمذي وابن ماجه

(٣) مسلم (٩٦/١٨) الزهد .

العرق . وكان النبي ﷺ إذا أوحى إليه ينحدر منه مثل الحُمام من العرق من شدة الوحي وثقله عليه .

وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان إذا سئل عن شيء لم يكن أوحى إليه فيه شيء . انتظر الوحي فيه ولم يتكلم فيه بشيء حتى يوحى إليه فيه ، فلما نزل سدايه جواب ما سئل عنه قال : «أين السائل ؟ قال : ها أنا . فقال للنبي ﷺ : «إن الخير لا يأتي إلا بالخير» . وفي رواية لمسلم (أوخير هو) في ذلك دليل على أن المال ليس بخير على الإطلاق ، بل منه خير ومنه شر ، ثم صرب مثل المال ومثل من يأخذه بحقه ويصرفه في حقه ، ومن يأخذه من غير حقه ويصرفه في غير حقه ، فالمال في حق الأول خير ، وفي حق الثاني شر ، فتبين بهذا أن المال ليس بخير مطلق ، بل هو خير مقيد ، فإن استعان به المؤمن على ما ينفعه في آخرته كان خيراً له ، وإلا كان شراً له .

فأما المال فقال إنه خضرة حلوة ، وقد وصف المال والدنيا بهذا الوصف في أحاديث كثيرة ففي الصحيحين عن حكيم بن حزام «أنه سأل النبي ﷺ فأعطاه ، ثم سألته فأعطاه ثم سألته فقال له النبي ﷺ : يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع» (١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فتنظروا كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (٢) . واستخلافهم فيها هو ما أورثهم الله منها ، مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارس والروم ، وحذرهم ﷺ من فتنة الدنيا عموماً ومن فتنة النساء خصوصاً ، وهذا من الخاص بعد العام لمزيد الاهتمام لأن النساء من الدنيا ،

(١) الحماي (٣/ ٣٣٥) الزكاة: باب الاستغفار عن المسألة وفي الوصايا وفي الجهاد وفي الرقاق ، ومسلم (٧/ ١٢٦) الزكاة بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى .

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٥٣) الرقاق . باب أكثر أهل الجنة الفقراء وهو عند الترمذي في جملة حديث طويل في الفتن ورواه كذلك ابن ماجه وعبد الباقى «مما تركت بعدى فتنة أصبر على الرجال من النساء» وهي كذلك عند مسلم والترمذي وابن ماجه .

بل النساء أول ما ذكره الله عز وجل من شهوات الدنيا في قوله ﴿ رِزْقٍ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

وقوله ﷺ : « وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم ، إلا آكلة الخضر » مثل ضربه رسول الله ﷺ لزهرة الدنيا وبهجة منظرها وطيب نعيمها وحلاوته في النفوس ، فمثله كمثل نبات الربيع وهو المرعى الأخضر الذي ينبت في زمان الربيع ، فإنه يعجب الدواب التي ترعى فيه وتستطيبه وتكثر من الأكل منه أكثر من قدر حاجتها ، لاستحلاتها له فيما أن يقتلها فتهلك وتموت حبطاً ، والحبط : انتفاح البطن من كثرة الأكل ، أو يقارب قتلها ويلم به فتمرص مرصاً . مخوفاً مقارباً للموت .

فهذا مثل من يأخذ من الدنيا بشره وجوع نفس من حيث لاحت له لا بقليل يقنع ، ولا بكثير يشبع ، ولا يحلل ولا يحرم ، بل الحلال عنده ما حل بيده وقدر عليه ، والحرام ما حرم منه وعجز عنه .

تفنى اللذائذ ممن نال لذتها من الحرام ويبقى الإثم والعار تبقى عواقب سوء من مقبته لا خير في لذة من بعدها النار

شبه النبي ﷺ من يأخذ الدنيا بعير حقها بالبهايم الراعية من خضراء الربيع ، حتى تنفخ بطونها من أكله ، فيما أن يقتلها وإما أن يقارب قتلها ، وكذلك من أخذ الدنيا من عير حقها ووضعها في غير وجهها ، إما أن يقتله ذلك فيموت به قلبه ودينه . وهو من مات على ذلك من عير توبة منه وإصلاح فيستحق النار بعمله .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (محمد : ١٢) .

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وَلَيْسَ لَكَ نَوْمٌ وَالرُّدَى لَكَ لَا زِمٌ
وتشعب فيما سوف تكفره غيبة كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

أما استنائه ﷺ من ذلك آكلة الخضر ، فمراده بذلك مثل المقتصد الذي يأخذ من الدنيا بحقها مقدار حاجته ، فإذا نقد واحتاج عاد إلى الأحذ منها قدر

الحاجة بحقه ، واكفة الحضر دوية تأكل من الخضر بقدر حاجتها إذا احتاجت إلى الأكل ، ثم تصرفه عنها فتستقبل عين الشمس ، فتصرف بذلك ما في بطنها ، وتخرج منه ما يؤذيها من الفضلات .

فهذا مثل المؤمن المقتصد في الدنيا يأخذ من حلالها وهو قليل بالسببة إلى حرامها قدر بلغته وحاجته ، ويحتري من متاعها بأدوية وأحشنة ، ثم لا يعود إلى الأخذ منها إلا إذا نفذ ما عنده وحرحت فضلاته ، فلا يوجب هذا الأخذ ضرراً ولا مرضاً ولا هلاكاً ، بل يكون ذلك بلاغاً له يتبلغ به مدة حياته ، ويعيه على التزود لآخرته ، وفي هذا إشارة إلى مدح من أخذ من حلال الدنيا بقدر بلغته ، وقع بذلك كما قال ﷺ : «قد أفلح من هداه الله إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ففتح به»^(١) .

حُذِّ مِنَ الرُّزْقِ مَا كَفَى وَمِنَ الْعَيْشِ مَا صَفَا
كُلُّ هَذَا سَيْنَقْصِي كَسِيرَاجٍ إِذَا انْطَفَأَ

ثم قال ﷺ : «إن هذا المال خضرة حلوة» فأعاد مرة ثانية تحذيراً من الاغترار به ، فخضرته بهجة منظره وحلاوته طيب طعمه ، ولذلك تشتهيهِ النفوس وتسارع إلى طلبه ، ولكن لو تفكرت في عواقبه لهرت منه

الذي شَرَّ أُمته بفتح الدنيا عليهم حذرهم من الاعتزاز بزهرتها ، وخوفهم من خضرتها وحلاوتها ، وأخبرهم بخرابها وفنائها ، وأن بين أيديهم داراً لا تنقطع خضرتها وحلاوتها ، فمن وقف مع رهرة هذه العاحلة انقطع وهلك ، ومن لم يقف معها وسار إلى تلك وصل ونجا .

﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة : ٣٨) .

أرضيتم بخرابات البلى في الفردوس الأعلى يا لها صفقة غبن

أنقنع بخسائس الحشائش والرياض ، معشة بين يديك .

فالدنيا ثابتة على مزبلة منتنة ، يا دنيء الهمة قنعت بروصة على مزبلة ،

(١) رواه مسلم (١٠٢/٣) والترمذي (٥٦/٢) وأحمد (١٦٨/٢) والبيهقي (١٩٦/٤) وقال الترمذي حسن

صحيح ورواه ابن ماجه (٤١٣٨) عن ابن جبير وهو سيء حفظ ولا بأس به في اشاعتها صحیحہ

والملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى .

وقوله ﷺ : «من أخذه بحقه ووضع في حقه فتعم المؤنة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»

قال سعيد بن جبير : متاع الغرور ما يذهبك عن طيب الآخرة ، وما لم يلهك فليس متاع غرور ، ولكنه بلاغ إلى ما هو خير منه .

وقال بعضهم : كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مدموم ، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا .

وقال أبو سليمان : الدنيا حجاب عن الله لأعدائه ، ومطية موصلة إليه لأوليائه ، فسحان من جعل شيئاً واحداً ، سبباً للاتصال به والانقطاع عنه .

والقسم الثاني : من يأخذ المال بغير حقه ، فيأخذه من الوجوه المحرمة فلا يقنع منه بقليل ولا بكثير ، ولا تشبع نفسه منه ، ولهذا قال ﷺ : «كالذي يأكل ولا يشبع» وكان النبي ﷺ يتعود من يمس لا تشبع .

ومثل طالب الدنيا كشارب ماء البحر ، كلما زاد شرباً منه زاد عطشاً ، حتى يقتله .

وقال ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب»^(١) .

لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا لقنع ، ولو تذكر الجائع فضول مآلها لشبع .

هَبْ أُنْكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرًّا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ قَكَّانَ مَاذَا
الْإِنْسَ إِذَا مَصِيرُكَ جَوْفٌ قَبْرِ وَيَحْشِي الثُّرْبَ هَذَا ثُمَّ هَذَا
وقد ضرب الله في كتابه مثل الدنيا وخضرتها ونضرتها وبهجتها وسرعة تقلبها وروالها وجعل مثلها كمثلي نبات الأرض البابت من مطر السماء في قلب

(١) البخاري (٢٥٣/١١) الرقاق باب ما يتقى من فتنة المال . وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ومسلم (١٣٨/٧) الزكاة : كراهة الحرص على الدنيا ، ورواه أحمد (٣٧٠/١) .

أحواله وماله قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ شَيْبًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (الكهف : ٤٥) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظُنُّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس : ٢٤) .

فالدنيا وجميع ما فيها من الخصرة والبهجة والنضرة تنقلب أحوالها ، وتبدل ثم نصير حطاماً يابساً ، وأجسام بني آدم وسائر الحيوانات كليات الأرض ، تنقلب من حال إلى حال ، ثم تجف وتنصير تراباً .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨) .

فينقلب ابن آدم من الشباب إلى الهرم ، ومن الصحة إلى السقم ، ومن الوجود إلى العدم .

قال ميمون بن مهران لجلسائه : يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزروع إذا ابيض ؟

قالوا الحصاد . فنظر إلى الشباب فقال إن الزرع قد تدرحه الآفة قبل أن يستحصد .

عباد الله قبيح بالشباب تأخير التوبة ، وأقبح منه تأخير الشيخ لها ، فإن الرجل إذا شاب فهو كالحامل التي قد أتمت شهور حملها تسعة أشهر لا تنتظر إلا الولادة .

اللهم ارزقنا توبة نصوحاً

اختصاص الملا الأعلى (١)

إن الحمد لله نحمده وسنعبيه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً .

ثم أما بعد ، ، ،

خرج الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة في صلاة انصبح حتى كدنا نترأى قرن الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً ، فتوب بالصلاة ، وصلى وتجاوز في صلاته ، فلما سلم قال : كما أنتم على مصافكم ، ثم أقبل إلينا فقال : سأحدثكم ما حسني عنكم العداة ، إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملا الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب . قال : يا محمد فيم يختصم الملا الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب . قال : يا محمد فيم يختص الملا الأعلى ؟ فرأيت وضع كفّهُ بين كتفَيَّ ، حتى وجدت برد أنامله في صدري ، وتجلّى لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد فيم يختصم الملا الأعلى ؟ قلت : في الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجمعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات .

قال : وما الدرجات ؟ قلت إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة

(١) مختصر من كتاب اختيار الأولى في شرح حديث اختصاص الملا الأعلى - لاس وجب .

والسأس نيام قال سئل . قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك
المسكرات ، وحُثِّ المساكين ، وأن تعفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم
فتوفني غير مفتون ، وأسألك حُبَّك وحُبَّ من يحبك ، وحُبَّ عمل يقرني إلى
حُبِّك ^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : «إنها حق فادرسوها وتعلموها» .

وفي بعض الروايات (المشي على الأقدام إلى الجماعات) بدل الجماعات
وكذلك (إفشاء السلام) بدل (لين الكلام) .

لم يكن من عادة رسول الله تأخير صلاة الصبح ، ولهذا اعتذر لهم وفي
الحديث دلالة على أن من أخر الصلاة لعدو أو غيره وخاف خروج الوقت أنه
يخففها حتى يدركها كلها في الوقت ، وإن كانت تصح إذا أدرك ركعة واحدة
في الوقت . وفي الحديث أيضاً أن من رأى رؤيا تسره عليه أن يقصها على
أصحابه وإخوانه لإدخال السرور عليهم .

وفيه دلالة على شرف النبي ﷺ بتعليمه ما في السماوات وما في الأرض ،
وتجلى ذلك له مما يختصم فيه الملائكة في السماء ، كما أرى إبراهيم ملكوت
السماوات والأرض .

أما وصف النبي ﷺ فهو حق وصدق ، ومن أشكل عليه فهم شيء منه
فليقل ما مدح الله به الراسخين في العلم ، وأخير عنهم أنهم يقولون عند
المتشابه ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ جِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران : ٧) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فكلما سمع المؤمنون شيئاً من
هذا الكلام قالوا : هذا ما أحبرنا به الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم
إلا إيماناً وتسليماً .

وفي الحديث دلالة أيضاً على أن الملائكة الأعلى وهم الملائكة المقربون
منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم
إلى الله عز وجل .

(١) الحديث أخرجه الترمذي كذلك وقال حسن صحيح ، وسئل عنه البخاري فقال حسن صحيح ، وهو
المتن (٢٤٣/٥) قال ابن رجب في إسناده اختلاف وله طرق متعددة وفي بعضها زيادة وفي بعضها
قصان .

قوله في الكفارات «إسباغ الوضوء في الكريهات ونقل الأقدام إلى الجماعات أو الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات» وسميت هذه كفارات لأنها تكفر الخطايا والسيئات ، ولذلك جاء في بعض الروايات (من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه) .
وهذه الأعمال الغالب عليها تكفير السيئات ، ويحصل بها أيضاً رفع الدرجات .

كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال إسباغ الوضوء على المكاره . وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» (١) .

ولذلك ذكر الله عز وجل بعد آية الوضوء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة : ٦) .

فقوله تعالى : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ يشمل طهارة ظاهر البدن بالماء وطهارة الباطن من الذنوب والخطايا ، وإتمام النعمة إما يحصل بمغفرة الذنوب وتكفيرها ، كما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (الفتح : ٢) .

وقد وردت الأحاديث الكثيرة الدالة على تكفير الخطايا بالوضوء ، فروى مسلم عن عثمان رضي الله عنه أنه توضأ ثم قال : «رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئي هذا ، ثم قال : من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة» (٢) .

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا توضأ العبد

(١) رواه مسلم (١٤١/٣) الطهارة باب فصل إسباغ الوضوء على المكاره . والنرمذي الطهارة (١٧/١) أبواب الطهارة : باب ما جاء في إسباغ الوضوء ثلاث مرات ، والنسائي (٩٠/٨٩/١) الطهارة : باب الفضل في إسباغ الوضوء .

(٢) مسلم (١١٣/٣) الطهارة . باب فضل الوضوء والصلاة بعده .

المسلم أم المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجليه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرج نقياً من الذنوب»^(١)
كما وردت النصوص كذلك الدالة على كثرة الثواب على الوضوء بالإضافة إلى تكفير السيئات .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «تَبْلُغُ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(٢) .
وفيه أيضاً عنه عن النبي ﷺ قال : «أنتم الغرُّ الْمُحَجَّلُونَ يومَ القيامة مِن إسباغ الوضوء»^(٣) .

وإسباغ الوضوء هو إتمامه وإبلاغه مواضعه الشرعية ، والثوب السابغ هو المغطي لل بدن كله ، وخرج النسائي وابن ماجه من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال : «إسباغ الوضوء شطر الإيمان»^(٤) .
وخرجه مسلم بلفظ (الطهور شطر الإيمان)^(٥) .

وإسباغ الوضوء على الكرهيات : يعني في حالة تكره النفس فيها الوضوء ، وقد فسر بحال نزول المصائب فالنفس تطلب الجزع فلاشتغال بالوضوء من علامة الإيمان ، وفسرت الكرهيات أيضاً بالبرد الشديد ، وكذلك عند النوم مع مدافعة النعاس .

وكل ما يؤلم النفس ويشق عليها فإنه كفارة للذنوب إن لم يكن للإنسان فيه

(١) مسلم (١٣٢/٣ ، ١٣٣) الطهارة : باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء والموطأ (٣٢/١) الطهارة ، والترمذي (١٣/١) الطهارة : باب ما جاء في فضل الطهور .

(٢) مسلم (١٤٠/٣) الطهارة : باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل .

(٣) رواه مسلم بلفظة (١٣٥/٣) الطهارة : باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء والمخاري بلفظ «إن أمني يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء» (٢٣٥/١) الطهارة : باب فصل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء ورواه النسائي في الطهارة : باب جلجلة المؤمن .

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي مالك الأشعري وصححه الألباني - صحيح الجامع (٣١٦/١) رقم ٩٣٨ .

(٥) (١٠٠/٣) الطهارة : فصل الوضوء - ورواه ابن ماجه كذلك .

صنع كالمرص ، أو إذا كان الألم ناشئاً عن طاعة . كقوله تعالى . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (التوبة : ١٢٠) .

وكذلك ألم الجوع والعطش للصائم ، فكذا التألم بإسباغ الوضوء في البرد ، ويجب الصبر على هذا الألم ، فإذا حصل الرضا فذلك مقام العارفين ، وينشأ الرضا عن ملاحظة أمور :

أولاً : تذكر فصل الوضوء : انكسر ظفر بعض الصالحات من السلف فضحكت وقالت أنساني حلاوة ثوابه مرارة وجعه .

وقال بعضهم : من لم يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه في جميع الأحوال .

الثاني : ملاحظة جلال من أمر بالوضوء . كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر . فيقال له : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم .

الثالث : تذكر ما أعده الله عز وجل لمن عصاه من البرد والزمهرير .

الرابع : استحضار اطلاع الله على عبده في حال العمل ، وتحمل المشقة كما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور : ٤٨) .

وقالوا : خفف على الحراس مشقة السهر علمهم بأن السلطان يُجسُّ بهم .

الخامس : الاستغراق في محبة من أمر بهذه الطاعة ، وأنه يرضى بها ويحبها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

فمن امتلأ قلبه بمحبة الله أحب ما يحبه وإن شق على النفس وتألمت به . كما قيل : (وما لجرح إذا أرضاكم ألم) وقال بعض السلف : (أحبه إليَّ أحبه إليَّه) .

والسبب الثاني في تكفير الخطايا

المشي على الأقدام إلى الجماعات والجماعات ، ولا سيما إذا نوصاً الرجل في بيته ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « صلاة الرجل في الجماعة تصعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يحط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة »^(١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة . (كل خطوة تحطوها إلى الصلاة صدقة) . وفيهما عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال : « إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها مشى فأبعدهم »^(٢) .

ومع هذا فمس الدار القريبة من المسجد أفصل من الدار البعيدة عنه ، لكر المشي إلى الدار البعيدة أفصل ، وثواب المشي إلى المساجد في الظلم النور التام في ظلم القيامة ، كما في سنن أبي داود والترمذي عن بريدة عن النبي ﷺ قال : « بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »^(٣) .

(١) المحرري (١٣١/٢) الأذان باب فصل صلاة الجماعة ، ومسلم (١٦٥/٥ ، ١٦٦) المساجد باب

فصل الصلاة المكتوبة في جماعة ، ورواه كذلك السنن في الإمامة (١٠٣/٣) والترمذي في الصلاة

(٢) رواه البخاري (١٣٧/٢) الأذان باب فصل صلاة المحرم في جماعة ، ومسلم (١٦٧/٥) المساجد فصل الصلاة المكتوبة في جماعة

(٣) رواه أبو داود (٥٥٧) الصلاة والترمذي (٢٣/٢) عارضة الصلاة وقال هذا حديث عريب وابن ماجه (٧٧٩) وصححه الألباني .

وقد قال بعض السلف : الوضوء يكفر الجراحات الصغار ، والمشي إلى المسجد يكفر أكثر من ذلك ، والصلاة تكفر أكثر من ذلك ، على أن الكبائر لا تكفر بذلك لما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

فانظر يا عبد الله كم تيسر لك من أسباب تكفير الخطايا ؛ لعلك تظهر منها قبل موتك ، فتلقاه طاهراً ، فتصلح لمحاورته في دار السلام ، فإن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً .

قوله في الكفارات (الجلوس في المساجد بعد الصلوات) أي انتظاراً لصلاة أخرى كما في حديث «وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط» أي بمنزلة الرباط في سبيل الله عز وجل .

ويدخل في قوله والجلوس في المساجد بعد الصلوات الجلوس للذكر والقراءة وسماع العلم وتعليمه نحو ذلك ، لا سيما بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ : «أنه لما أخرج صلاة العشاء الأخيرة ثم خرج فصلى بهم ثم قال لهم . إنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتهم الصلاة»^(١) .

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال : «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٢) وبالجمله فالجلوس في المساجد للطاعات له فضل عظيم . قال سعيد بن المسيب : من جلس في المسجد فإنما يجالس الله عز وجل .

وهو أيضاً من السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه .

(١) رواه البخاري بلفظ «ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة» (١٣١/٢) الأذان . باب فضل صلاة الجماعة ورواه مسلم (١٦٧/٥) فضل الصلاة المكتوبة في جماعة

(٢) رواه مسلم (١٧/٢١ ، ٢٢) الذكر والدعاء . باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، وأبو داود (١٣/٢٢٩ ، ٢٣٠) الأدب . باب في المعونة للمسلم ، والترمذي في الحدود وفي البر والصلة

ولما كانت المساحد بيوت الله وأصافها إلى نفسه تشريعاً لها ؛ تعلمت
قلوب المحبين لله عز وجل بها لنسبتها إلى محبوبهم ، وارتاحت إلى ملازمتها
لإطهار ذكروه .

قال تعالى ﴿ فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (السور : ٣٦ : ٣٧) .
قوله ﷺ في ذكر الدرجات (إطعام الطعام) .

فإطعام الطعام من أعظم الأسباب الموصلة إلى أعلى درجات الجنة ،
وقد وصف الله عز وجل الأبرار بقوله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِيئًا
وَيَتِيمًا وَأَمِيرًا ﴾ (الإنسان : ٨) .

أي على حبهم للطعام وحاجتهم إليه ، وقيل على حبهم لإطعام الطعام
طيبة به أنفسهم ، وفي المستند وجامع الترمذي عن علي عن النبي ﷺ «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ
غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا . قَالُوا : لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ ؟ قَالَ : لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَطَابَ الْكَلَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامُ»^(١)

فإطعام الطعام يوجب دخول الجنة ويباعد عن النار وينجي منها كما قال
تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
مُنْقَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد : ١١ ، ١٦) .

وأفضل إطعام الطعام الإيثار مع الحاجة كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر : ٩) .

وكان بعض السلف يؤثر بفطوره غيره ويصبح صائماً ، وكان ابن عمر لا
يفطر إلا مع اليتامى والمساكين وربما علم أن أهله قد ردوهم عنه فلم يفطر تلك
الليلة قال بعضهم إذا أكلته كان في الحش وإذا أطعمته كان عند الله موفوراً

(١) رواه أحمد (٣٤٣/٥) والبيهقي في شعب الإيمان ورجال ثقات غير ابن مينا وهو مجهول وعزاه

سدري لاس حبان في صحيحه وله شاهد من حديث ابن عمر وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه
الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١١٩ ومشكاة المصابيح رقم ١٢٣٢

فيا من يطمع في علو الدرجات من غير عمل صالح ، هيهات هيهات ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (الجاثية : ٢١) .

قوله ﷺ في ذكر الدرجات كذلك (ليس الكلام) وهي رواية (إفشاء السلام) وهو داخل في لين الكلام وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة : ٨٣) . وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرْحًا عَظِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤ ، ٣٥)

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : «والكلمة الطيبة صدقة»^(١) .

وفيه أيضاً : «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»^(٢) .

أما كون إفشاء السلام من موجبات الحبة فهي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَؤْمِنُوا وَلَا تَؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشَاوُا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٣) .

هكذا قرن الإحسان بالقول عقب الإحسان بالعمل ، وربما كان معاملة الناس بالقول الحسن أحب إليهم من إطعام الطعام والإحسان بالمال . كما روي عن لقمان أنه قال لابنه : لأن تكن كلمتك طيبة ووجهك منبسطة تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة . وروي عن ابن عمر أنه كان ينشد :

بُنِيَ إِنْ الْبِرُّ شَيْءٌ هَيْنَ وَجْهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ

ومما يندب إليه إلانة القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما

(١) جزم من حديث رواه البخاري (٢٩٧/٥) الصلح باب فصل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم وفي الجهاد، ومسلم (٩٤/٧ ، ٩٥) الزكاة : بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف .

(٢) رواه البخاري (٤٤٨/١٠) الأدب . باب طيب الكلام ، ومسلم (١٠٩/٧) الزكاة . باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار .

(٣) رواه مسلم (٥٣/١) وأبو عروانة (٣٠/١) وأبو داود (٥١٩٣) وابن ماجه (٣٦٩٢) وأحمد (٣٩١/٢) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح - إرواه الخليل (٢٣٧/٣) رقم ٢٠٧

رَأَى بَعْضُ التَّائِعِينَ رَجُلًا وَقَافًا مَعَ امْرَأَةٍ فَقَالَ لَهَا (إِنَّ اللَّهَ يَرَاكُمَا سَتَرًا اللَّهُ وَإِيَّاكُمَا)

وَدَعَى الْحَسَنَ إِلَى دَعْوَةٍ فَحْيَى بَانِيَةِ قُضَّةٍ فِيهَا حُلُوءٌ ، فَأُحْدُ الْحَسَنِ الْحُلُوءَ فَقَلَبَهَا عَلَى رَعِيفٍ وَأَكَلَ مِنْهَا فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَصَرَ : هَذَا بَهِي فِي سَكُونٍ

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ شَاهَهُ كَذَلِكَ الرِّفْقُ فِي مَقَابِلَةِ الْأَذَى قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَذَرُهُمْ بِالْحَسَنَةِ الْيُسُوءَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد : ٢٢)

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : (هُوَ الرَّحْلُ يَسِبُ الرَّحْلَ فَيَقُولُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فغفر الله لي وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فغفر الله لك) .

قَوْلُهُ ﷺ فِي الدَّرَجَاتِ «وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» .

وَالصَّلَاةُ فِي اللَّيْلِ مِنْ مَوْجِبَاتِ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ فِي الْجَنَّةِ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَصْفِ الْمُحْسِنِينَ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات : ١٨) .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٦) .

وَقَالَ ﷺ : «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ الْقِيَامُ بِاللَّيْلِ»^(١) .

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : صَلُّوا رَكْعَتَيْنِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ لظِلْمَةِ الْقُبُورِ صُومُوا يَوْمًا شَدِيدًا حَرَّهُ لَحَرِ يَوْمِ الشُّوْرِ تَصَدَّقُوا بِصَدَقَةٍ لَشَرِّ يَوْمٍ عَسِيرٍ .

وَعَنْ بِلَالٍ وَأَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَإِنْ قِيَامَ اللَّيْلِ قَرِيبٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ وَنُكْفِيرٌ لِلْسَّيِّئَاتِ وَمُطَرَدَّةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»^(٢) .

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٥/٨) الصَّيَامُ . بَابُ فَضْلِ صَوْمِ الْمُحْرَمِ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الصَّوْمِ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّائِقِيُّ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ رَقْمَ ٣٥٤٣ وَ٣٥٤٤ فِي الدَّعَوَاتِ . بَابُ رَقْمِ (١١٢) وَرَوَاهُ أَيْضًا أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَابَيْهَقِيُّ =

ونختتم بهذه الدعوات التي دعا بها رسول الله ﷺ «اللهم إنا نسألك فعل
الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لنا وترحمنا ، وإذا
أردت فتنة في قوم فتوفنا غير مفتونين ، ونسألك حبك ، وحب من يحبك ،
وحب عمل يقربنا إلى حبك ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم
تسليماً .

= عن بلال والحاكم والبيهقي عن أبي أمامة وابن عساکر عن أبي الدرداء والطبراني عن سليمان وابن السكيت
عن جابر - قال عبد القادر الأرباؤوط وهو حديث حسن - هامش (٩/٤٣٣) جامع الأصول

طريق ولاية الله عز وجل^(١)

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب :
٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصلق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وإن ما تواعدون لأب وما أنتم
ممعجزين .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) ولاية الله والطريق إليها - في شرح حديث الولي للإمام الشوكاني - للدكتور إبراهيم هلال - جامع
المعلوم والحكم شرح حديث الولي لابن رجب - فتح الباري شرح البخاري - .

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظَمِيهِ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيزَنَهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ ، تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١) .

قال الحافظ في الصّحاح المراد بولي الله المواطن على طاعته المخلص في عبادته .

ومن أعظم ما يتبين به الولي أن يكون محاب الدعوة ، راضياً عن الله عز وجل في كل حال ، قائماً بفرائض الله سبحانه ، تاركاً لمأهيه ، تاركاً لما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص على رياستها ، لا يكون لنفسه شغل بملاد الدنيا ولا بالتكاثر فيها ، ولا بتحصيل أسباب الغنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض ، إذا وصل إليه القليل صبر ، وإذا وصل إليه الكثير شكر ، يستوي عنده المدح والدم ، والفقر والغنى ، والظهور والخمول ، غير معجب بما مَنَّ الله عليه من خصال الولاية ، إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخضوعاً ، حسن الأخلاق ، كريم الصحبة ، عظيم الحلم ، كثير الاحتمال .

ومن كان فيه بعض هذه الخصال ، واشتمل على شطر من هذه الصفات ، فله من الولاية بقدر ما رزقه الله سبحانه منها ووهب له من محاسنها .

ومن وهبت له هذه الموهبات الجليلة ، وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة ، فعير بعيد ولا مستنكر أن تظهر على يده من الكرامات التي لا تنافي الشريعة ، والتصرفات في مخلوقات الله عز وجل الوسيعة ، لأنه إذا دعاه أجابه ، وإذا سأله أعطاه ، فالكرامة لا تنافي الشريعة المطهرة ، ولكن ينبغي أن

(١) روه البخاري (٢٣١/٤) وأبو يعين في الحلية (٤/١) والعمري في شرح السنة (١/١٤٢/٢) السلسلة الصحيحة رقم ١٦٤٠ .

يعلم أنه لبس كل حارقة من الحوارق كرامة رحمانية ، والحارقة إما أن تأتي على يد فاسق أو مستدع فهي عند ذلك حارقة شيطانية ، والدحال الذي هو من أكفر الحلق يأتي على يديه من الحوارق العظيمة فتنة للناس ، وإذا أتت الحارقة على يد منشرع ، معروف بالصلاح ، متبع للسنة ، فهي حارقة رحمانية ، وإن شئت قلت كرامة من الله عز وجل ، لا ستكثرها على ولي من أولياء الله عز وجل ، وكم للصحة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان من الكرامات التي يصعب حصرها .

فمن هذه الكرامات :

* أن حبيباً رضي الله عنه لما أسره المشركون كان يؤتى بقطف من العنب في غير وقته .

* ومنها : أن الصديق رضي الله عنه كان يأكل هو وأضيافه من القصعة ، فلا يأكلون لقمة إلا زبياً من أسفلها أكثر منها ، فشبعوا وهي أكثر مما كانت قبل أن يأكلوا وقصعة الصديق ثابتة في الصحيح .

* ومنها : أن بعض الصحابيأت ذهب بصرها من تعذيب المشركين . فقالوا : ما أصاب بصرها إلا الآلات والعرى فقالت كلا والله فرد الله عليها بصرها .

* ومنها : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل جيشاً مع رجل يسمى سارية ، فبيما عمر يخطب جعل بصيح على المبر يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فقدم رسول الحيش ، فسأله عمر فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزموا ، فإذا بصائح يقول يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فأسدنا ظهورنا بالجبل فهزمناهم .

* ومنها : أن أحد التابعين ألقى في النار فوجد قائماً يصلي ، وهو أبو مسلم الخولاني ، ولما قدم المدينة جعله عمر بينه وبين أبي بكر ، وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراي من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل إبراهيم ، ودعا على امرأة أفسدت عليه زوجته فعميت ، فتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

* ومنها : أن صلة بن أشيم مات فرسه في الغزو فقال : اللهم لا تجعل

لمخلوق عليّ مئة ، ودعا الله فأحياه ، فلما وصل إلى بيته قال يا بني حد السرح فإن العرس عارية ، فأخذ السرح فمات القرس .

والعبد لا يصل إلى هذه الدرجة من الولاية ، ومن إجابة الدعوة حتى يصل معها إلى درجات عليّ ، من الرضا بالله عز وجل ومحبيه كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مستجاب الدعوة ، وكان يدعو للناس لمعرفةهم له بذلك . فذهب بصره في آخر عمره ، فقالوا له ألا دعوت لبصرك ؟ فقال : فضاء الله أحب إليّ من بصري .

وكان سعيد بن حبير مستجاب الدعوة ، كان له ديت يوقظه للصلاة ، فما صاح الديك يوماً فقال ما له قطع الله صوته فما صاح الديك بعد ذلك ، فقالت له أمه لا تدعو على شيء بعدها أبداً .

هذا السعيد عدّة الحجاج حتى قتله ، وكان يُمكنه أن يدعو على الحجاج ولم يفعل ، إلا أنه دعا أن يكون آخر من يقتله الحجاج ، وكان كذلك ، ومات الحجاج بعدة بمدة يسيرة .

وينبغي أن يعلم أن أفضل الأولياء هم الأنبياء ، وأفضل الأنبياء هم المرسلون ، وأفضل المرسلين هم أولو العزم منهم ، محمد و نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وأفضل أولي العزم من الرسل رسولنا صلى الله عليه وآله وأفضل الأولياء بعد الأنبياء الصحابة رضي الله عنهم ، وأفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم باقي العشرة ، ثم الدريون ثم أهل الحديثية

واعلموا عباد الله أن الأولياء غير الأنبياء ليسوا بمعصومين ، ما يحور عليهم ما يحور على سائر عباد الله المؤمنين ، لكنهم قد صاروا في رتبة رفعة ومنزلة عليّة فقل أن يقع منهم ما يحالف الصواب ويباقي الحق

والعبد مهما تدرج في صفات الولاية ، لا يستغني عن لكتاب والسنة بحال ، ولا يأتي عليه وقت يقول كما قال بعض جهال الصوفية : حدثني قلبي عن ربي . فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهود له بالولاية من رسول الله صلى الله عليه وآله يشاور أصحابه ويشاورونه ، ويراجعهم ويراجعون ، ويرجعون جميعاً إلى الكتاب والسنة .

قوله : «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» .

أولياء الله عز وجل تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم ، وأعداء الله عز وجل تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم . قال الله عز وجل : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (الممتحنة : ١) .

قال ابن هبيرة : يستفاد من هذا الحديث ، تقديم الإعذار على الإندار . قال الشوكاني : ووجهه أنه لما قدم معاداة من هو بهذه الصفة من الولاية ، فكانه أعذر الله إلى كل سامع ، أن من هذا شأنه لا ينبغي أن يعادى ، بل على كل من عرف أن هذه صفته أن يواليه ويحبه ، فإذا لم يفعل فقد أعذر الله إليه ، ونبهه على أن من عاداه يستحق العقوبة البالغة على عداوته .

ومعنى (أذنته بالحرب) أي : أعلمته بأنني محارب له حيث أنه كان محارباً لي بمعادائه ولياً من أوليائي .

قال الطرمي : لما كان ولي الله سبحانه ممن تولى الله سبحانه بالطاعة والتقوى ، تولاه الله تعالى بالحفظ والنصرة .

قوله عز وجل في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه» .

قال الطوفي : الأمر بالفرائض جازم . يقع بتركها المعاقبة بحلاف النفل في الأمرين ، وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب ، فكانت الفرائض أكمل فلذا كانت أحب إلى الله وأشد تقرباً .

والله عز وجل لا يقبل العاقلة حتى تؤدي المريضة .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله ، والورع عما حرم الله ، وحسن النية فيما عهد الله عز وجل .

ومن أعظم فرائض الله عز وجل ترك المعاصي ، بل دخول فرائض الترك للمعاصي أولى من دخول فرائض الطاعات ، كما يدل عليه حديث «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فلا تقربوه»^(١) .

(١) رواه مسلم (١٠٠/٩ - ١٠١) في الحج : باب فرض الحج مرة في العمر .

قوله . «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»

والنوافل هي ما عدا الفرائض من جميع أحاسن الطاعات ، والمعنى أن العبد إذا أتى بالفرائض وداوم على إتقان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفصى به ذلك إلى محبة الله عز وجل .

وقبل أن العبد يفعل الفريضة مخافة العقاب ورجاء الأجر من الله عز وجل ، ولتقرب إلى الله عز وجل ، أما النافلة فيجعلها بحلاص نية التقرب والتحب إلى الله عز وجل ، فكانت المداومة على النوافل بعد الفرائض ، هي السبب الموصول إلى محبة الله عز وجل .

وقوله : «فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»

قال ابن حجر في الفتح وقد استشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره إلى آخره ؟ والحواب من أوجه ، وذكر سعة أوجه أقربها للصواب أن العبد بكلية يكون مشغولاً بربه عز وجل ، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضي الله عز وجل ولا يستعمل بصره إلا فيما أمره الله عز وجل به ، ولا يستعمل يده إلا في طاعته ولا يحرك قدمه إلا في مرضاته

وقال الشوكاني . إن الله عز وجل يُمدُّ حوارج العبد نور فهذا النور يسمع ، وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشي ، واستدل على ذلك بأدلة منها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ إذا حرج إلى الصلاة «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وخلفي نوراً وفي عصبتي نوراً وفي لحمي نوراً وفي دمي نوراً وفي شعري نوراً وفي بشري نوراً» (١) .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا . إنه توفيق الله عز وجل يحالف العبد ، فإذا سمع فتوفيق الله ، وإذا أبصر فتوفيق الله ، وإذا مد يده فتوفيق الله ، أي

(١) رواه البخاري (١١٦، ١١٧) الدعوات باب الدعاء إذا أسه بالليل ، ورواه مسلم (٤٥/٦) في صلاة المسافرين : باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل

إن الله عز وجل يوفق عبده للصواب ويهديه للرشاد في كل قول وعمل ، وهو من قبل «والله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» .

قوله عز وجل ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَنِي لَأُعْطِيَنَّكَ ﴾ أي إن هذا المحبوب المقرب نصير له عند الله منزلة عالية ، ودرجة سامية ، تقتضي أنه إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه .

روى الحاكم في مستدركه عن أنس عن النبي ﷺ قال : «كم من ضعيف متضاعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك»^(١)

وإن البراء لقي زحفاً من المشركين فقال له المسلمون أقسم على ربك فقال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم فمنحهم أكتافهم ، ثم التقوا مرة أخرى فقالوا : أقسم على ربك فقال أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، وألحقني بنيك ﷺ فمنحوا أكتافهم وقتل البراء رضي الله عنه .

قوله : «ولئن استعاذني لأعيذنه» الاستعاذة : هي الالتجاء طلباً للحماية واللياقة : هي الالتجاء طلباً لمنفعة . كما يقول القائل

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْبِلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ
أي أنه إذا احمى بجباب الله عز وجل حماه الله .

قوله : «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكر الموت وأنا أكره مساءته» .

الموت هو مفارقة الروح للجسد ولا يحصل ذلك إلا بألم عظيم جداً وهو أعظم الآلام التي تصيب العبد في الدنيا .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

(١) ورواه الترمذي والضياء عن أنس

(٢) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٢٩ ، ١٣٠)

قال شيخ الإسلام : رد هذا الكلام طائفة وقالوا إن الله لا يوصف بالتردد وإنما يتردد من لا يعلم عواقب أفعاله . الله أعلم بالعبث والمخاض أن كلام رسول الله ﷺ حق وليس أحد أعلم بالله ورسوله ولا أنصح بالأمم ولا أحسن بيانا منه وقد كان كذلك كان المتحذلق والمتكر من أصل الناس وأجهلهم وأسوأهم أمراً . بل يجب تأديبه وتربيته . يجب أن يصلح كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطنة . لا اعتداد بكذبه .

الترغيب في حج بيت الله الحرام وفضل عشر ذي الحجة^(١)

إن الحمد لله ، نحمده وستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمده عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(ال عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب ٧٠ - ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عباد الله : إخوانكم في هذه الأيام قد عقدوا الإحرام ، وقصدوا البيت الحرام ، وملاؤوا الفصاء بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد والإعظام

(١) أصوه لبيان لشقطي لطائف المعارف لابن رجب - النصرة لاس الحوري

نلبية لنداء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَادِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج ٢٧) .

ولقوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران : ٩٧) .

ولقوله عز وجل : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩) .
وقال ﷺ : «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»^(١) .

وقد ورد في فضيلة هذه العبادة أحاديث كثيرة منها ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : «سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : «إيمان بالله ورسوله» . قيل : ثم ماذا ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله» . قيل : ثم ماذا ؟ قال : «حج مبور» وعنه ﷺ قال : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(٢) وعنه قال : «العمرة إلى العمرة كفارة بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٣) وعن عائشة قالت : «قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال لكن أفضل الجهاد ، حج مبور»^(٤) .

وبر الحج عباد الله يشتمل على أمور :

• منها : الإحسان إلى الناس بجميع وجوه الإحسان ، ففي صحيح مسلم أن

(١) رواه البخاري (٤٩/١) في الإيمان ، ومسلم (١٧٧/١) في الإيمان

(٢) رواه البخاري والسنائي وابن ماجه عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٢٨١/٥) رقم ٦٠٧٣

(٣) رواه البخاري ومسلم والأربعة ومالك وأحمد - صحيح الجامع (٦٣/٤) رقم ٤٠١٥

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٥/١) والبيهقي (٣٢٦/٤) وأحمد (٧٩/٦) من طريق عبد الواحد بن زياد ثنا

حبيب بن أبي عمرة بنعيط قلت : يا رسول الله ألا نعزو ونجاهد معكم ؟ فقال لكن أحسن الجهاد

وأجمله الحج حج مبور ، قالت عائشة . فلا أدع الحج بعد إذ سمعته من رسول الله ﷺ ،

النبي ﷺ سئل عن البر فقال : «حسن الخلق»^(١) .

وكان امن عمر ينشد :

نسي إن السر شيء هين وخه طليق وسان ليس

والإحسان إلى الناس في الحج ، فهو والمعل يحتج إليه كثيراً في السفر . وفي المسند عن جابر عن النبي ﷺ قال : «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة قالوا وما هو الحج يا رسول الله قال إطعام الطعام وإفشاء السلام»^(٢) .

وقالوا : البر هو فعل الطاعات كلها وصده الإثم

قال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾ (البقرة : ١٧٧) .

وكلها يحتاج إليها الحاج ، فلا يصح الحج بدون الإيمان ، ولا يكون مبروراً بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأركان الإسلام مرتبط بعضها ببعض * ومن أعظم أنواع البر عباد الله كثرة ذكر الله تعالى فيه ، قال ﷺ : «أفضل الحج العج والشج»^(٣) .

والعج هو رفع الصوت بالتلبية والذكر ، والشج إراقة دماء الهدايا والسك ومن أنواع البر في الحج كذلك عباد الله استحسان الهدى واستسمائها واستعطامها . قال الله عز وجل : ﴿ والبذن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ﴾ (الحج : ٣٦) وقال ﷺ : «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى

(١) رواه مسلم (١١١/١٦) البر والصلة : باب تفسير البر والإثم

(٢) رواه الطبراني في الأوسط لم يلقه وطيب الكلام ، يدل على من إفشاء السلام وقال الهيثمي : إسناده حسن .

مجمع الزوائد (٢٠٧/٣) - وروى آخر الأول من الحديث الطبراني عن ابن عباس وأحمد عن جابر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٦٥

(٣) رواه الدارقطني (٣١/٢) ، لم يرد في (٨٤١٣) حقه) ومن ماخوذ (٢١٧/٢)

قال لأبي وهب : إسناده حسن ، لا شيء منقطع ثم وجدت في نسخة فالحديث به حسنه - ينصرف من الصحيحة رقم ١٥٠٠ .

الْقُلُوبِ ﴿ (الحج : ٣٢) . وقد أهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة مائة
 * ومن بر الحج كذلك عباد الله اجتناب أفعال الإثم كلها ، من الروث
 والفسوق والمعاصي ، قال الله عز وجل : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في
 الْحَجِّ ﴾ (البقرة : ١٩٧) .

وقال ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١)
 * ومن بر الحج كذلك عباد الله أن يطيب العبد نفقته ، فإن الله طيب لا يقبل
 إلا طيباً .

إِذَا حَجَّجْتَ بِمَالٍ أَصْلَهُ سَخَتْ فَمَا خَحَّجْتَ وَلَكِنْ خَحَّجْتَ الْبَعِيرُ
 لَا يَقْسُلُ اللَّهُ إِلَّا كُلَّ طَيِّبَةٍ مَا كُلَّ مِنْ حَجٍّ نَيْتَ اللَّهُ مَثْرُورُ
 * ومن بر الحج كذلك عباد الله أن لا يقصد العبد نحوه رياء ولا سمعة ، ولا
 مباهاة ولا فحراً ، ولا حيلاء ، ولا يقصد به إلا وجهه ربه ورضوانه ، ويتواضع في
 حجه ، ويستكين ويخضع لربه .

قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما : ما أكثر الحاج قال : ما أقلهم
 وقيل : الركب كثير والحاج قليل .

والحج فريضة العمر عباد الله - روى مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا
 رسول الله ﷺ فقال : «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» . فقال رجل
 أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ : لو قلت
 نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ثم قال ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان
 قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما
 استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(٢)

والحج واجب عباد الله مع الاستطاعة لقول الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى
 النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران : ٩٧) . وحد الاستطاعة
 أن يملك المسلم ما يوصله إلى البيت الحرام ، مع نفقته ونفقة أهله حتى يرجع .

(١) رواه البخاري وأحمد والسنائي وابن ماجه عن أبي هريرة - صحيح الجامع (٢٨١/٥) رقم ٦٠٧٣ .

(٢) رواه مسلم (١٠٠/٩ - ١٠١) في الحج باب فرض الحج مرة في العمر عن أبي هريرة وروى الشطر
 الأول أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس .

أما اللغة فإن أهل اللسان العربي ، مطبقون على أن السيد لو قال لعهده اسقني ماءً ، فلم يفعل فأدبه ، فليس للعبد أن يقول : هذا الأمر على التراخي .
وأما العقل فلو قلنا إن وجوب الحج على التراخي ، فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون ذلك التراخي له غاية معينة ينتهي إليها وإما لا .
والقول بأن له غاية ينتهي إليها ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، وإن قلنا إن تراخيه إلى غير غاية ، فما جاز تركه إلى غير غاية ، دل على عدم وجوبه ، والمفروض وجوبه .

فإن قيل غايته الوقت الذي يغلب على الظن بفاؤه إليه . فالجواب أن البقاء إلى زمن متأخر ليس لأحد أن يظنه لأن الموت يأتي بغتة ، فكم من إنسان يظن أنه يبقى سنين طويلة ، ويخترمه الموت فجأة .

كما قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ (الأعراف : ١٨٥) .

سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأماً ، يترددون إليه ولا يرون أنهم قضوا منه وطراً ، لما أضاف الله تعالى ذلك البيت إلى نفسه ، ونسبه إليه بقوله عز وجل لخليله إبراهيم ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾ (الحج : ٢٦) . تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم ، فكلما ذكر لهم ذلك البيت حنوا ، وكلما تذكروا بعدهم عنه أتوا .

يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق ، ولمن شاهد السائرين إلى دار الأحبة وهو قاعد أن يحزن .

أَلَا قُلْ لِرِزْوَارِ دَارِ الْحَبِيبِ هَمِيئاً لَكُمْ فِي الْجَنَانِ الْحُلُودُ
أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ قَيْضاً فَتَنَحْنُ عِطَاشٌ وَأَنْتُمْ وَرُودُ

لئن ساروا وقعدنا ، وقربوا وبعدنا ، فما يؤمننا أن نكون ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين .

لِسُلَيْمٍ دَرَّ رَكَائِبَ سَارَتْ بِهِمْ تَطْوِي الْقِفَارَ الشَّاسِعَاتِ عَلَى الدُّجَى
رَحَلُوا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَقَدْ شَجَا قَلْبُ الْمُتِمِّ مِنْهُمْ مَا قَدْ شَجَا
نَزَلُوا بِبَابٍ لَا يَخِيبُ نَزِيلُهُ وَقُلُوبُهُمْ بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَا

على أن المتحلف لعذر ، شريك للسائر في الأجر ، كما قال السيوطي
للصحابة وهو راجع من غزوة تبوك «إن بالمدينة أقواما ، ما سرتهم مسيرا ، ولا
قطعتهم واديا ، إلا كانوا معكم خلفهم العذر»

يَا سَائِرِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَعْدُ سَرْتُمْ حُسُومًا وَسَرْمًا نَحْنُ أَرْوَاحُ
إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَقَدْ رَاحُوا وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ كَمَنْ رَاحَ

لما كان الله سبحانه وتعالى قد وضع في نفوس المؤمنين حينا إلى مشاهدة
بيته الحرام ، وليس كل أحد قادرا على مشاهدته في كل عام ، فرض الله عز وجل
على المستطيع الحج مرة واحدة في العمر ، وجعل موسم العشر مشتركا بين
السائرين والقاعدين ، فمن عجز عن الحج في عام قدر في العشر على عمل يعمله
في بيته أفصل من الجهاد الذي هو أفصل من الحج . روى البخاري من حديث
ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « ما من أيام العمل الصالح فيها
أحب إلى الله من هذه الأيام » يعني أيام العشر . « فقالوا : يا رسول الله ولا
الجهاد في سبيل الله قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله
ثم لم يرجع من ذلك بشيء » (١) .

وهذا الحديث يدل على أن العمل المفصول في الوقت الفاصل يلتحق
بالماضل في غيره ويزيد عليه .

فيستحب الإكثار من العبادات كلها في أيام العشر ، كذكر الله عز وجل ،
والصلاة ، والصيام ، والصدقة ، والحمهور على أن عشر ذي الحجة هي
المقصودة بقول الله عز وجل : ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (المجر : ١) .

وكان السلف يعظمون ثلاثة أعشار ، عشر ذي الحجة والعشر الأواخر من
رمضان ، والعشر الأول من شهر الله المحرم .

ودل على استحباب كثرة الذكر في أيام العشر قوله عز وجل ﴿ وَيَذْكُرُوا
اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ (الحج : ٢٨) .

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجة عن أسن ورواه مسلم . ابن ماجة عن حابر - صحيح الجامع
(١٨٩/٢)

فإن الأيام المعلومات هي أيام العشر عند جمهور العلماء ، ومن أيام العشر يوم عرفة ، وهو عيد أهل الموقف ، وفيه أكمل الله عز وجل للمسلمين دينهم ، فرلت ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) .

وهو يوم مغفرة الذنوب ، والتجاوز عنها ، والعشق من النار ، والمساواة بأهل الموقف ، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي الملائكة ، فيقول ما أراد هؤلاء » (١) .

ويستحب صيام يوم عرفة لأهل الأماصار ، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال : « صيام يوم عرفة أحسب على الله ، أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده » (٢) .

ويستحب لأهل الموقف الإفطار لأنهم ضيوف الرحمن والكريم لا يُجوعُ أضيافه .

اللهم وفق إخواننا زوار بيتك الحرام لحج مبرور .

اللهم ارزقنا في عامنا المقبل حجاً مبروراً

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين

معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون

به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا

ما أحبتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ،

وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ،

ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

(١) مسلم (١١٦/٩ - ١١٧) الحج : فضل يوم عرفة .

(٢) مسلم (٥٠/٨) الصيام : استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عرفة ويوم عاشوراء

خطبة عيد الأضحى (١)

إن نحمد الله ، نحمده ويستعينه ، ونستعصره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله
وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعد ، ، ،

عباد الله قد أطلنا أشرف أيام العام عند الله عز وجل ، ألا وهو يوم
الأضحية ، يوم العنق والشح ، يوم الحر ، يوم يصبح فيه الصحيح معصراً لهم ،
يوم الحج الأكبر .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر

الله أكبر ما حج المسلمون بيت الله الحرام ، تنية لداء إبراهيم ﷺ وأذن
في الناس بالحج يأتوك رجالاً ﴿ (الحج ٢٧)

يقولون لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة
لك والملك ، لا شريك لك .

الله أكبر ما طافوا وسعوا وشربوا من ماء زمزم المطهر

الله أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات

الله أكبر ما ابتهلوا فيه إلى الله وعصرت لهم جميع السيئات .

(١) هداية المرشد لعملي محفوظ - فتح قاري لاس حجر العفلاقي - عالية المواظ على الألوحي

اللَّهُ أَكْبَرُ مَا وَقَفُوا بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ شَاكِرِينَ اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاهُمْ إِلَى مَعَالِمِ السَّعَادَاتِ .

اللَّهُ أَكْبَرُ مَا وَصَلُوا إِلَى مِنَى وَنَحَرُوا هَذَايَاهُمْ وَحَلَقَ كُلٌّ أَوْ قَصَرَ .

اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ

لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران : ٩٧) .

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَخَرَجَ مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرُونَ ، فَكَانُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ مَدَّ الْمَصْرَ ، وَقَالَ ﷺ : « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا »^(١) .

فَلَمَّا كَانُوا بِعَرَفَةَ خَطَبَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُطْبَةً جَامِعَةً ، أَرَسَى فِيهَا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ ، وَهَدَمَ فِيهَا قَوَاعِدَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَغَطَّمَهَا حُرُمَاتُ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ ﷺ : « إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بِلَادِكُمْ هَذَا ، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَإِنْ أَوَّلُ دَمٍ أَضْعَ مِنْ دِمَائِ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضْعَ رَبَا الْعِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَا يُوْطِئَنَّ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرَحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ ، كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ ، وَيُنْكِسُهَا إِلَى النَّاسِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ »^(٢) .

فَقَوْلُهُ ﷺ : « إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٩/٤) وَأَبُو يَعْقُوبَ فِي الْمُسْتَدْرَجِ (٢/١٦٦/٢١) وَأَبُو دَاوُدَ (١٩٧٠) وَالسَّائِي (٥٠/٢) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٦٨/١) مُحْتَصِرًا وَأَبُو مَاجَهٍ (٣٢٠٣) وَأَحْمَدُ (٣٠١/٣) - [رَوَاهُ الْعَلِيلُ رَقْمَ ١٠٧٤] .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٢/٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤) الْحَجَّ : مَاتَ حُجَّةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَمْرُ دَاوُدَ (٣٧٥/٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧) الْمَنَاسِكُ : مَاتَ صِفَةُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَوَاهُ أَبُو مَاجَهٍ (١٠٢٥/٢) الْمَنَاسِكُ : مَاتَ حُجَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

شهركم هذا في بلدكم هذا» تعظيم لحرمة المسلم وكان ابن عباس رضي الله
عنه ينظر إلى الكعبة ويقول : (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَكَ وَعَظَمَكَ وَشَرَّفَكَ وَالْمُؤْمِنَ أَعْظَمَ
حَرَمَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ) .

وروى مسلم عنه رضي الله عنه قال : «كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله
وعرضه» ^(١)
ثم قال رضي الله عنه : «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» أعز الله
بهذا السبي الدين وأهله وأذل به الكفر وأهله .

وجعل به كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى
وأول شيء هدمه رسول الله ﷺ شرك الجاهلية ، فأنهم ﷺ سلا إله إلا
الله ، شعار الإسلام وَعَلَّمَ التوحيد ، كلمة تحلح بها جميع الآلهة الباطلة ، ونشبت
بها استحقاق الله عز وجل وحده للعبادة ، فهو الخالق عز وجل وما سواه مخلوق ،
وهو القاهر عز وجل وما سواه مقهور ، قال الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيمُكُمْ ثُمَّ يُخْسِئُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ
سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم : ٤٠) .

واعلموا عباد الله أن الأموات قد أفصوا إلى ما قدموا لا يملكون لأنفسهم
نفعاً ولا ضرراً ﴿ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر : ١٤) .
فلا تدعوا غير الله ، ولا تذبحوا لغير الله ، ولا تنذروا لغير الله ، ولا
تستغيثوا بغير الله ، ولا تحلفوا بغير الله ، ولا تحلفوا بالله إلا صادقين .

ومما هدمه رسول الله ﷺ ووضع تحت قدمه حكم الجاهلية قال تعالى .
﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠)
والتحاكم إلى شرع الله عز وجل من صلب العقيدة ، من صلب التوحيد ،
من صلب لا إله إلا الله قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ ﴾ (يوسف : ٤٠) .

(١) رواء البخاري في النكاح ، وفي الأدب . باب العيبة ، والترمذي (١١٥/٨) البر والصلة . باب ما جاء في
شعقة المسلم على المسلم .

ثم قال ﷺ : «ودماء الجاهلية موضوعة، أهدر النبي ﷺ دماء الجاهلية ، وقال ﷺ : «وأول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، ثم قال ﷺ : «وربا الجاهلية موضوعة وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» فأبطل النبي ﷺ ربا الجاهلية وقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩).

وقال عز وجل : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة : ٢٧٦) .
فاحذروا عباد الله من التعامل مع الهيئات الربوية والسنوك الربوية ومن العمل فيها .

ثم وصى النبي ﷺ بالنساء فقال ﷺ : «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ومن تقوى الله في النساء أن تعلمهن دين الله عز وجل ، وأن نلزمهن بالحجاب الشرعي قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (الأحزاب ٥٩) .

وقال ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(١) .

ثم استشهد ﷺ أمته أنه قد بلغ رسالة ربه فقال ﷺ : «وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ونحن نشهد بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق جهاده ، فجزاك الله عنا خير ما جزى نبي عن أمته .

ومن شرف يوم النحر عباد الله أن الله عز وجل ابتلى فيه الخليل إبراهيم بذبح ولده ، قال الله عز وجل : ﴿ قَلَمًا يَلُغُ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي

(١) أخرجه مسلم (١٥٥/٨) والبيهقي (٣٣٤/٢) وأحمد (٣٥٥/٢ ، ٣٥٦ ، ٤٤٠) عن سهيل بن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً عنه شاهد - الصحيحة (٣١٧/٢) رقم ١٣٢٦

المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ يَا أَيَّتُهَا الْفَاعِلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَتَادَيْنَاهُ أَنَّ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينِ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿ (الصافات : ١٠٢ إلى ١٠٧) .

بلاء مبین عباد الله ، ولكنه الخليل إبراهيم الذي أسكن ولده الرضيع وأمه بواد غير ذي زرع ، لا حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع ، امثالاً لأمر الله عز وجل ، ثم توجه إلى بيت الله فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (إبراهيم : ٣٧)

بلاء مبین عباد الله ، ولكنه الخليل إبراهيم الذي مدحه عز وجل بقوله . ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (الحج : ٣٧) .

بلاء مبین عباد الله ، ولكنه الخليل إبراهيم الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٤) .

بلاء مبین عباد الله ، أب قد رزق ولداً على كبر ، هو بكره ووحيد ، ولما صار الولد يسعى مع أبيه ، يرى الأب في المنام أنه يؤمر بذبح ولده ، ورؤيا الأنبياء وحى ، واستجاب الأب لأمر الله وأثر رضاه على هوى نفسه ، وأحبر الولد تطبيياً لخطره ، وحتى لا يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ، فما كان جواب الولد عباد الله ؟ ما قال : ما ذنبي ؟ ما قال : وهل تطاوعك نفسك أن تقتلني ؟ فيحرك في أبيه عاطفة الأبوة ، بل قال الولد الحليم : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ جواب شديد عباد الله من العلام الحليم .

الوالد هو إبراهيم الخليل والولد إسماعيل عليه السلام جد نبينا ﷺ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ استسلم الابن للقتل وهم الوالد أن ينفذ أمر الله عز وجل ووجه الغلام إلى الأرض ، حتى لا يرى وجهه وهو يذبحه ، الله عز وجل لا يستفيد منا شيئاً ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ (الحج : ٣٧) .

ما الحكمة التي أرادها الله عز وجل من دبح اب لابنه ، إنه الاحتبار والابتلاء .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَقَدْ نَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات : ١٠٤ ، ١٠٧)

عباد الله تدبروا القرآن المجيد ، فقد دلکم على الأمر الرشيد ، وأحضروا قلوبکم عند سماع الوعد والوعيد ، ولازموا طاعة ربکم ولا سيما أيام العيد ، فهذا شأن العيد ، واحذروا غصبه فکم قصم من جبار عيد . ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج : ١٢ : ١٦) .

أين من بنى وشاد وطول ، وتأمر على الناس وساد في الأول ، وظن جهلاً مه أنه لا يتحول ، هيهات عاد الزمان عليه سالماً ما خول ، فسقوا كأساً من الموت على إهلاكهم عول ﴿ أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : ١٥) .

فيا من أنذره يومه وأمه ، وحادثه بالعبر قمره وشمسه ، واستلب منه ولده وأخوه وعُرسه ، وهو يسعى إلى الخطأ مشمراً وقد دنا حبسه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق : ١٦) .

أما علمت أنك مسؤول الزمان ، مشهود عليك يوم تنطق الأركان ، معلوم ما قدمت في زمان الإمكان ، محاسب على خطوات القدم وكلمات اللسان ، ﴿ إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (ق : ١٧) .

يا من يرى العبر بعينه ، ويسمع المواعظ بأذنيه ، والنذير قد وصل إليه ، وكلماته تلقى عليه ﴿ مَا يَلْقَظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق : ١٨) .

كأنك بالموت قد احتطفتك اختطاف البرق ، ولم تقدر على دفعه عنك بملك الغرب والشرق ، وندمت على تفريطك بعد اتساع الخرق ، وتأسمت على ترك الأولى والأخرى أحق ، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (ق : ١٩) .

ثم تَرَحَّلْتُ من القصور إلى القبور ، على رحائل العبدان والظهور ،
وبقيت وحيداً على مر العصور ، كالأسير المأسور ، ﴿ وَتُفَخَّ فِي الصُّورِ ذَلِكَ
يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴾ (ق : ٢٠) .

عباد الله : بادروا إلى ذبح الأصاحي بعد صلاة العيد ، فالأضحية علمٌ
على الملة الإبراهيمية ، والشريعة المحمدية قال الله عز وجل : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ
وَأَنْحَرْ ﴾ (الكوثر : ٢) .

واعلموا عباد الله أن رسول الله ﷺ لم يكن يدع الأضحية ، وكان يضحي
بكبشين أملحين وكان ينحرهما بعد صلاة العيد ، وأُحْبِرَ أن من ذبح قبل الصلاة
فليس من النُسك في شيء ، وإنما هو لحم قُدِّمَ لأهله

وكان من هديه ﷺ اختيار الأضحية ، واستحسانها ، وسلامتها من
العيوب ، ولا يُضْحَى بالعمياء والعوراء ، والعرجاء ، والعجفاء ، ومقطوعة
الآدين ، ومكسورة القرن ، ومقطوعة الذنَبِ ، ويجوز من الضأن ما استكمل
سنة ، ومن غيره سنتان .

ويستحب للمضحي أن يذبح بيده ، إن كان يحسن الذبح ، ويستحب له
أن يأكل من أضحيته ، ويتصدق منها على الفقراء ويهدي منها لجيرانه
وإخوانه .

وفقنا الله وإياكم لإمراضيه ، وجعل مستقبل حالنا وحالكم خيراً من
مَاضِيهِ .

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

صفات عباد الرحمن^(١)

الحمد لله دي العبر المجيد ، والبطش الشديد ، المبدى المعيد ،
الفعال لما يريد ، المستقم ممن عصاه بالار بعد الإندار بها والوعيد ، المكرم
لمن خافه واتقاه بدار لهم فيها من كان حير مزيد ، فسيحان من قسم خلقه
قسمين ، وجعلهم فريقين ﴿ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت : ٤٦) .

أحمدته وهو أهل للحمد والثناء والتمجيد ، وأشكره ونعمه بالشكر تدوم
وتزيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا كفؤ ولا عدل ولا ضد
ولا نديد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الداعي إلى التوحيد ، الساعي
بالصالح للقريب والبعيد ، المحذر للعصاة بار تلظى بدوام الوقيد ، المبشر
للمؤمنين بدار لا ينهد نعيمها ولا يبيد ، صلى الله عليه وآله وأصحابه صلاة لا
تزال على كر الجديدين في تجديد ، وسلم تسليماً .

أما بعد ، ، ،

قوله عز وحل في وصف عباد الرحمن :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ
لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ

(١) التخويف من النار لاسي وجب - نصير ابن كثير - محاسن التأويل للقاسمي

ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً ، يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوث إلى الله متاباً ، والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً ، والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ، قل ما ينبتا بكم ربِّي لو لا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴿ (المرقان . ٦٣ ، ٧٧) .

في هذه الآيات الكريمات من حواتيم سورة العرفان ، يصف الله عز وجل عباده الذين شرفهم بنسبتهم إليه ، فأول أوصافهم أنهم «يمشون على الأرض هوناً» أي بسكينة ووقار وبغير حربة ولا استكبار ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تضعفاً ورياءً ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى فكأنما ينحط من صيب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره السلف رضي الله عنهم المشي بتضعيف وتضع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شاماً يمشي رويداً فقال : ما بالكَ أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة .

قال الحسن البصري . إن المؤمنين قوم دلت والله منهم الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم والله الأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالأخرة ، فقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولا تعظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أكناهم الخوف من النار ، إنه من لم يتغز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا هي مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عدايه .

وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ أي إذا سَفِه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوه عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان سيدهم ﷺ لا تزيد شدة الجاهل عليه إلا حِلماً .

وبعد أن وصف الله عز وجل تهارهم ، أخبرنا أن ليلهم خير ليل ، فقال

عز وجل . ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (السجدة : ١٦) . وأشار عز وجل بقوله : ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ إلى إخلاصهم فيها ابتغاء وجهه الكريم .

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَقْبَلَ كَابِدُوهُ فَيُسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعُ أَطَارِ الْخَوْفِ نَوْمُهُمْ فَقَامُوا وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

ومع اجتهاد عباد الرحمن في طاعة الله عز وجل ، ومواظبتهم ليل نهار على طاعته ، فهم كذلك وجلون مشفقون من عذاب الله عز وجل ، خائفون من عقابه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٥) .

قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام الملازم ما دامت السماوات والأرض ﴿ إِنَّهَا سَاعَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي يشس المنزل منظراً وبشس العقيل مقاماً .

ثم وصف الله عز وجل عباده في النفقة والاقتصاد ، فقال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٧) .

أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (الإسراء : ٢٩) .

وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف .

وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله .

ثم بين الله عز وجل أن عباد الرحمن ليسوا بمعصومين من الذنوب ، ولكنهم يحتشون كائناً الإثم والقواحش ، وإن تلبس أحد المسلمين بشيء من

أنجاس هذه الكسائر ثم تاب وأتاب وحسنت توبته ، فإنه يدخل كذلك في عباد الرحمن فقال : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ (المرقان : ٦٨ : ٧١) .

حدث الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله بدأ وهو خلقك قال ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة حارك^(١) . قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الآية قوله . ﴿ يَلْقَى أَثَامًا ﴾ أي يجد في الآخرة جزاء إثمه وقال عكرمة : أودية في جهنم يعذب فيها الرناة . وقوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أي ذليلاً محتقراً فيجمع له بين عذاب الحسد ، والعذاب المعنوي . قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ أي تاب من جميع ذلك واستمر في الدنيا على طاعة الله عز وجل . قال الحافظ ابن كثير : وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه الآية والنساء ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا مُحَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ (النساء : ٩٣) .

فرد هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، وقد ثبتت السعة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، ثم قال عز وجل : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ . وفي هذه الآية قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ،

(١) رواه البخاري (١٦٣/٨) التفسير باب قوله تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أُنْدَادًا ﴾ ورواه في الأدب والتوحيد ورواه مسلم (٨٠/٢) الإيمان : باب الشرك أعظم الذنوب ورواه الترمذي والنسائي وأبو داود .

وَأَسْلَهُمْ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَسْلَهُمْ بِنِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ نِكَاحِ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ تِلْكَ السِّبْثَاتِ تَنْقَلِبُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحَ حَسَنَاتٍ ، كَمَا ثُبِتَتِ السَّنَةُ بِذَلِكَ ، وَصَحَّتْ بِهِ الْأَثَارُ الْمَرْوُودَةُ عَنْ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي لَا أَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خُرُوجاً مِنَ النَّارِ ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً إِلَى الْجَنَّةِ ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ نَحْنُوا عَنْهُ كِبَارُ ذُنُوبِهِ وَسُلُوءُ عَنْ صِغَارِهَا ، قَالَ فَيُقَالُ لَهُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، كَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : نَعَمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكَرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً . فَيُقَالُ : فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَبْثَةٍ حَسَنَةً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ عَمِلْتَ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا ؟ قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ » (١) .

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ وَالزُّورُ هُوَ الْكَذِبُ وَالْمُسْقُ وَاللَّغْوُ وَالْبَاطِلُ ، وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ ؟ ثَلَاثًا . قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَكَنًّا فَجَلَسَ فَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، فَمَا زَالَ يَكُرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ . وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ قَالَ : أَعْيَادُ الْمُشْرِكِينَ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الزُّورُ الْعَنَاءُ .

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أَيِ إِذَا اتَّفَقَ مَرُورُهُمْ بِأَهْلِ اللَّغْوِ ، وَهُوَ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْعَى وَيُطْرَحَ ، مَرُّوا مُعْرِضِينَ عَنْهُ مَكْرَمِينَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْخَوْضِ مَعَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (الْقَصَصُ : ٥٥)

وَمِنْ صِفَاتِهِمْ كَذَلِكَ عِبَادُ اللَّهِ أَنَّهُمْ إِذَا وَعَظُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَخُوفُوا بِهَا ﴿ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا ضِعْمًا وَعُغْيَاتًا ﴾ بَلْ أَكْبَرُوا عَلَيْهَا سَامِعِينَ بِأَذَانٍ وَاعِيَةٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَصْفِهِمْ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ (الْأَنْفَالُ : ٢) .

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٧/٣) الْإِيمَانُ بَابُ أَحْرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦٢/٧) صَفَهُ جَهَنَّمَ

ولذا قال قتادة فيهم : هم قوم عقلوا عن الله وانتصعوا بما سمعوا من كتابه ، ومن صفات عباد الرحمن كذلك عباد الله حرصهم على صلاح زوجاتهم وذرياتهم ، فهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال الحسن الصري : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً صالحاً ، أو ولد ولد ، أو أخاً ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير بن نصير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمر بنا رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رآيا رسول الله ﷺ ، لوددت أنما رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد ، ففعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً ، ثم أقبل إليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه ، لا يدري لو شهدته كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام ، أكبهم الله على مناكرهم في جهنم ، لم يجيئوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذا أحرركم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ، لقد بعث رسول الله ﷺ على أشرف حال بعث عليها نبياً من الأنبياء ، في فترة جاهلية ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فحاء بهرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، وإن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنها النبي قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١)

(الفهقان : ٧٤) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس ولحسن أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهما . هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وإن يكون هداهم متعدداً

(١) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

إلى غيرهم ، فذلك أكثر ثواباً وأحسن مأياً . وقال بعض السلف بأن في الآية دليل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها .

ثم قال عز وجل بعد وصف عباده وأحبابه : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي المتصفون بما ذكر ، وهو حصر لقوله عز وجل : ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ والعرفة هي الدرجة العالية في الجنة ، أي يجرون بها على صبرهم على مشاق المجاهدات في الدعوة إلى الحيرات ، والدأب على الطاعات واحتساب المحطورات ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي مقيمين لا يظعون ولا يحولون ولا يموتون ، ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً ﴾ (الكهف ١٠٨) . وقوله ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ (الفرقان : ٧٦) أي حسنت منظراً ، وطأت مقبلاً ومنزلاً .

ثم قال عز وجل بعد أن ذكر أوصاف عباده المتقين ومآلهم ﴿ قُلْ مَا يَغْنَىٰ بِكُمْ رَبِّي ﴾ (المزكان : ٧٧) أي لا يبالي بكم ولا بفيكم ﴿ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ قال من عباس : لولا إيمانكم ، وقيل : لولا عبادتكم ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي بما جاءكم من الحق ، إشارة إلى المشركين ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي سوف يكون هذا النأ والذكر الحكيم أو الأمر الجليل أمر الرسالة لازماً وثابتاً ، وقيل : ﴿ لِزَاماً ﴾ أي سوف يكون تكذيبهم مقضياً لعدابكم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ولقد صدق الله وعده ونصر عده وأعرّج عده وهرم الأحزاب وحده . نسأله تعالى خيراً مما عنده .

ونسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عباده الصالحين

تحريم الظلم وامتنان الله عز وجل على عباده بنعمه^(١)

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُضْلِعْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار .

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه
قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا
تظالموا » يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم . يا عبادي

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب - والإنحساب السية في شرح الأحاديث القدسية

كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني اطعمكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا صري فتضروني ولن تبلغوا نفي فتنعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما نقص المحيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد حيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(١) .

كان السلف رضي الله عنهم يعظمون شأن هذا الحديث ، كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث حتى على ركبته .

الله عز وجل ذو الكرم الفياض يمنُّ على عباده بنعمه ، وله الحمد والمنة على كل نعمة ، فقله عز وجل ﴿ يَا عِبَادِيَ إِنِّي خَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ﴾ والظلم هو وضع الأشياء في غير موضعها ، ولذلك كان الشرك بالله عز وجل هو أعظم الظلم ، لأنه وضع المخلوق العاجز المقهور في منزلة الإله القاهر ، والله عز وجل قد حرم الظلم على نفسه فضلاً عنه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (الساء ٤٠) . وقال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت ٦) . وقال عز وجل : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ١٠٨) . وحرم الله عز وجل الظلم بين العباد ، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره ، وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «إن الظلم ظلمات يوم القيامة» وفيهما عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال :

(١) رواه مسلم (١٣٢/١٦ ، ١٣٣) البير والصلة تحريم الظلم ، ورواه الترمذي (٣٠٤/٩ ، ٣٠٥) أبواب صفة القيامة وقال الترمذي : هذا حديث حسن واللفظ لمسلم .

«إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلِبْهُ ثُمَّ قَرَأَ». ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود : ١٠٢)

فالظلم حرام في ذاته حتى ظلم الكافر كما قال الله عز وجل : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة : ٨)

ومن عظم الظلم عند الله عز وجل ، حرم الله عز وجل ذكر عيوب الناس ودنويهم ، وأباح للمظلوم أن ينشر مظلمته حتى إذا نزل بالظالم عذاب الله عز وجل ، علم الناس أن ذلك من شؤم الظلم ، فقال عز وجل : ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ (النساء : ١٤٨) .

ومن عظم الظلم كذلك جعل الله عز وجل دعوة المظلوم مستجابة ، ولو كان كافراً ، فقال ﷺ : «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ جَيِّنُ يَقْطِرُ» وفي رواية حتى يفطر - ودعوة المظلوم - يرفعها الله فوق الغمام ، ويقول : «وعزتي وجلالي لأنصرتك ولو بعد حين»^(١) .

أرسل الأمير نوح إلى أهل سمرقند كتاباً يأمر فيه بأخذ الخراج منهم ، فجمع أميرها الفقهاء وقرأ عليهم رسالة الأمير ، فقال له أبو منصور الفقيه قد بلغت رسالة الأمير فأردد عليه الجواب ردداً ظلماً حتى تزيد في دعاء السحر ، فلم تمض أيام حتى وحدوه مقتولاً ، وفي بطنه رجم مملوك مكتوب عليه

بَغَىٰ وَالْبَغْيُ سِهَامٌ تَنْتَظِرُ رَمَتْهُ بِأَيْدِي الْمَسَايَا وَالْقَدَرُ
سِهَامٌ أَيْدِي الْقَائِنَاتِ فِي السُّحْرِ يَزْمِينُ عَنْ قَوْسٍ لَهُ اللَّيْلُ وَتَرُّ

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال : «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه»^(٢) .

ثم قال «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»

(١) رواه الترمذي (٥/١٠) أبواب صفات الحجة وقال هذا الحديث ليس إسناده بذلك القوي وليس هو عدي معتل ، ورواه أحمد (٣٠٥ - ٤٤٥) ، وابن ماجه في الصيام وقال عبد القادر الأدرناؤوط هو حسن مشواهد (١٣/١١) جامع الأصول .

(٢) رواه البخاري (١٠١/٥) لمظالم باب من كانت له مظلمة ع الرجل فحلها له هل يبين مظلمته =

فالعباد كلهم مفتقرون إلى الله عز وجل ، والهداية نوعان : هداية بمعنى تيسير الهدى من الضلال ، وهذه الهداية يقدر عليها الرسل وأتباعهم ، كما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

وقال عز وجل : ﴿ وَهَدَيْنَا السَّبِيلَ ﴾ (البقرة : ١٠) أي أوضحنا له الطريقين طريق الهدى ، وطريق الضلال . والنوع الثاني من الهداية : الهداية بمعنى شرح الصدر للإسلام ، وهذا النوع لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص : ٥٦) .

ثم قال عز وجل : «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطمعته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم» . والله عز وجل قادر على أن يهدي العباد بغير سؤال منهم ، وأن يطعمهم بغير سؤال منهم ، وأن يكسبهم بغير سؤال منهم ولكنه عز وجل يحب من العباد أن يسألوه عز وجل ، وأن ينزلوا حوائجهم به عز وجل ، وأن يعترفوا بأنهم كلهم في ضلال ، حتى يهديهم الله عز وجل ، كلهم جائعون حتى يطعمهم الله عز وجل ، كلهم عراة حتى يكسبهم الله عز وجل ، كلهم هلكى بذنوبهم حتى يعفر الله عز وجل لهم ، لذا أحب الله عز وجل سؤال العباد له عز وجل ، وتضرعهم إليه عز وجل بل يتلى الله عز وجل الناس بالبلايا والرزايا حتى يتضرعوا إليه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاتَّخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٢) .

وعاتب الله عز وجل العباد بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَبِذَا بِاللَّيْلِ ، والله عز وجل جعل في الليل فرصة للتوبة والإنابة والاستغفار ، فملا الناس الليل قبل النهار بالمعاصي .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضَرُّوْنِي ، وَلَنْ

= والترمذي (٢٥٤/٩) صفة القيامة . باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص بلفظ : « رحم الله عبداً كان لأخيه عنده مظلمة » الحديث

تَبْلُغُوا تَقِيْمِي فَتَنْفَعُوْنِي ﴿ فَشَانَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ اَعْلٰى وَاَعْلٰى مِنْ اَنْ يَنْتَصِرَ سَمْعَاصِي الْعِبَاد ، اَوْ اَنْ يَنْتَفِعَ بِطَاعَاتِهِمْ ، بَلِ الْعِبَادُ اَنْفُسُهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفَعُونَ بِطَاعَاتِهِمْ ، وَهُمْ اَنْفُسُهُمْ يَنْتَضِرُونَ سَمْعَاصِيَهُمْ ، وَاللّٰهُ عَنِّي حَمِيدٌ

قَالَ تَعَالٰى . ﴿ وَلَا يَخْزُنَكَ الَّذِيْنَ يُسَارِعُوْنَ فِي الْكُفْرِ اِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوْا اللّٰهَ شَيْئًا ﴾ (آل عمران : ١٧٦) ،

وَقَالَ تَعَالٰى : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلٰى عَقْبِهٖ فَلَنْ يَضُرَّ اللّٰهَ ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ حَاكِيًا عَنْ مُوسٰى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ اِنْ تَكْفُرُوْا اَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ جَمِيْعًا فَلَاَ اللّٰهُ لَفَنِيْ حَمِيْدٌ ﴾ (إبراهيم : ٨)

وَقَالَ تَعَالٰى ﴿ يَا اَيُّهَا النَّاسُ اَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ اِلَى اللّٰهِ وَاللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيْدُ اِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِيْ بِخَلْقٍ جَدِيْدٍ وَمَا ذٰلِكَ عَلٰى اللّٰهِ بِعَزِيْزٍ ﴾ (طاهر : ١٥ ، ١٦) .

فَاللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحِبُّ مِنَ الْعِبَادِ اَنْ يَعْرِفُوْهُ وَيُحِبُّوْهُ وَيُحَافُوْهُ وَيَتَّقُوْهُ وَيَطِيعُوْهُ ، وَيَحِبُّ مِنْهُمْ اَنْ يَعْلَمُوْا اَنَّهُ لَا يَعْزُرُ الذُّنُوْبَ غَيْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ ، مَعَ اَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِّي عَنْهُمْ وَعَنْ طَاعَتِهِمْ ، ثُمَّ بَيَّنَّ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَا عِبَادِيْ لَوْ اَنَّ اَوَّلَكُمْ وَاٰخِرَكُمْ وَاَنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوْا عَلٰى اَنْفٰى قَلْبِ رَجُلٍ وَّاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذٰلِكَ فِيْ مُلْكِيْ شَيْئًا ، يَا عِبَادِيْ لَوْ اَنَّ اَوَّلَكُمْ وَاٰخِرَكُمْ وَاَنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوْا عَلٰى اَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَّاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِيْ شَيْئًا ﴾ يَمُنُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكَمَالِ مُلْكِهِ ، فَمُلْكُهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَزِيْدُ بِطَاعَةِ الْخَلْقِ ، وَلَوْ كَانُوْا كُلُّهُمْ بِرَّةً اَتْقِيَاءَ قُلُوْبِهِمْ عَلٰى قَلْبِ اَنْفٰى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، وَلَا يَنْقُصُ مُلْكُهُ بِمَعْصِيَةِ الْعَاصِيْنَ ، وَلَوْ كَانَ الْحَنُّ وَالْاِنْسُ كُلُّهُمْ عَصَاةَ فَحْرَةٍ قُلُوْبِهِمْ عَلٰى قَلْبِ اَفْجَرِ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَاِنَّهُ سُبْحَانَهُ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ ، وَلَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ فِيْ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَاَفْعَالِهِ .

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا عِبَادِيْ لَوْ اَنَّ اَوَّلَكُمْ وَاٰخِرَكُمْ وَاَنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوْا فِيْ صَعِيْدٍ وَّاحِدٍ فَسَالُوْنِيْ فَاَعْطَيْتُ كُلَّ وَّاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِيْ اِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرِ اِذَا اُدْخِلَ الْبَحْرُ ﴾ يَمُنُّ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِتَمَامِ قُدْرَتِهِ ، وَكَمَالِ اَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَكَمَالِ غَنَاهُ ، فَلَوْ اَنَّ الْاَوَّلِيْنَ وَالْاٰخِرِيْنَ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ اجْتَمَعُوْا فِيْ مَكَانٍ وَّاحِدٍ ، وَقَامُوْا وَاجْتَهَدُوْا فِيْ اِنْزَالِ الْحَوَاجِّ وَالرَّغَائِبِ بِاللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَكَمَالِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ اَنَّهُ يَسْمَعُ الْجَمِيْعَ فِيْ وَقْتٍ

وحد ، على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم وحوائجهم ، لا يشغله سماع عن سماع ، ولا تعطله كثرة المسائل ، ولا يترم بالإلحاح الملحّين ، ومن كمال قدرته عز وجل يحقق مطالب الجميع في وقت واحد ، لا يشغله إحانة داع عن داع آخر ، ومن كمال عناءه عز وجل لا ينقص مع ذلك ما عبد الله عز وجل إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، فيا يؤساً للقائطين من رحمته ، ويا يؤساً للزاهدين في عطائه ، والمحيط إذا أدخل البحر لا ينقص منه شيئاً ، كذلك ما عبد الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ ﴾ (الحل : ٩٦) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تُفِيضُهَا نَفَقَةٌ - أَي لَا تَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ - سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْضُ - أَي لَمْ يَنْقُصْ - مَا فِي يَمِينِهِ» .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ﴾ يمن الله عز وجل وله الحمد والمنة على كل نعمة على عباده بكمال عدله فيقول : ﴿ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَعَثُّهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَمْثَلًا اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ (المجادلة : ٦) . وقال عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (آل عمران : ٣٠) .

وقال عز وجل : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ٤٩) .

فإن الله عز وجل لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، فيحصى الله عز وجل على العباد أعمالهم ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها ، وتوفية الأعمال يوم القيامة ، فإن المؤمن قد ينال ببركة طاعته في الدنيا ، وينال الكافر بشؤم معصيته كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعة في الرزق ومودة في قلوب الخلق ، وإن

للسيئة ظلمة في الوجه ، وسواداً في القلب ، وضيقاً في الرق ، ونقصاً في قلوب الخلق (أما توفية الأعمال) فيوم القيامة يبال المحسن جراء إحسانه كاملاً ، والمسيء جراء إساءته أو يعمو الله عز وجل . قال تعالى . ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفُّونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥) .

ثم قال الله عز وجل ﴿ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومُنِ إِلَّا نَفْسَهُ ﴾ فلو وجد العبد في نفسه طاعة الله عز وجل فليحمد الله عز وجل ، فما أطيع إلا بفضله ورحمته ، وما عصي إلا بعدله وحكمته ، كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، فلا يستطيع أحد أن يطيع الله عز وجل إلا بمعونة الله عز وجل وتوفيقه ، وإذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده .

كان السلف رضي الله عنهم يجتهدون في الطاعات ، ويحافون من المعاصي حتى لا يلوموا أنفسهم يوم القيامة .

كان عامر بن عبد قيس يقول : (والله لأجتهدن ، ثم والله لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإلا لم ألتمْ نفسي) .

وكان زياد بن عياش يقول لابن المنكدر ولصفوان بن سليم : (الحد الجدد والحدز الحذر فإن يكن الأمر على ما نرجو كان ما عملتما فضلاً وإلا لم تلوما أنفسكما) وكان مطرف بن عبد الله يقول : (اجتهدوا في العمل ، فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات ، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحذر لم نقل ربنا أخرجنا بعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، نقول : قد علمنا فلم ينفعنا ذلك) .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك - ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك - ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا - ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا رقوتنا ما أحبيتنا واجعله الوارث منا - واجعل ثأرنا على من ظلمنا - وانصرنا على من عادانا - ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا - ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

فقه التجارة مع الله عز وجل^(١)

الحمد لله الملك القهار ، العزيز الحبار ، الرحيم الغفار ، مقلب القلوب والأبصار ، مقدر الأمور ، كما يشاء ويختار ، مكور النهار على الليل ، ومكور الليل على النهار ، أسبل ذيل الليل فأظلم للسكون والاستتار ، وأنار منار النهار فأضاء للحركة والانتشار ، وجعلهما مواقيت الأعمال ومقادير الأعمار ، وخلق الشمس والقمر يجريان بحسبان ومقدار ، ويعتقيان في دارة الفلك الدائر على تعاقب الأدوار ، وجعلهما معالم يعلم بهما أوقات الليالي والأيام والشهور والأعوام في هذه الدار ، ويهتدي بهما إلى ميقات الصلاة والزكاة والحج والصيام والإفطار ، حجة قائمة قاطعة للأعداء ، وحكمة بالغنى من حكيم عليم ذي اقتدار .

أحمده وحلاوة محامده تزداد مع التكرار ، وأشكره وفصله على من شكره مدرار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تبرئ القلب من الشرك بصحة الإقرار ، وتبويء قائلها دار القرار .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، البدر جبينه إذا سُر استنار ، واليم يمينه فإذا سئل أعطى عطاء من لا يخشى الإقتار ، والحنيفية دينه القيم المختار . رفع الله بعثته عن أمته الأغلال والأصار ، وكشف بدعوته أذى البصائر وقذى الأبصار ، وفرق بشريعته بين المتقين والفجار ، حتى امتاز أهل اليمين من أهل اليسار ، صلى الله عليه وعلى آله أولي الأقدام والأقدار ، وعلى أصحابه نجوم الأقطار ، صلاة تبلغهم بها في تلك الأوطان نهاية الأوطار ، وسلم تسليمًا .

(١) لطائف المعارف لابن رجب - تفسير ابن كثير - البحر الرائق في الرهد والرقائق للمصنف .

ثم أما بعد ، ، ،

قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف : ١٠ ، ١١) .

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٠٧) .

وقال ﷺ : «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا» (١)

أي مهلكها .

ويقول القائل :

أَقِيمْ لَنَا وَانْقُصْ عُمْرُ الْفَوَائِيَا	أَخِي إِنَّمَا الدُّنْيَا كَسَوْقٍ قَدْ تَرَيْتُ
سَوَاءٌ بِهَذَا كَارِهًا أَمْ رَاضِيَا	وَكُلُّ أَمْرٍ لَا بَدَّ يَدْخُلُ سَوْقَهَا
وَلَا بَدَّ يَمْشِي رَايِحًا أَوْ عَادِيَا	وَلَا بَدَّ مِنْ يَبِيعُ وَلَا بُدَّ مِنْ شَرَا
هِيَ النَّفْسُ لَكِنْ مِنْ يَكُونُ الشَّارِيَا	وَسَلَعَتَهُ الْكَهْرَى الَّتِي يَبِيعُهَا
وَكَانَ لَهُ مِنْ جُمُرَةِ النَّارِ وَاقِيَا	فَإِنْ بَاعَهَا لِلَّهِ أَعْتَقَهَا إِذَنْ
سَيَقْبِضُهُ الْإِسَانُ فَرَحَانُ رَاضِيَا	وَجَنَّةُ رَبِّي كَانَتْ الثَّمَنُ الَّذِي
وَجَلَّ إِلَهِهُ الْمُشْتَرِي جَلَّ رَبِّي	وَقَدْ رِبَحَ الْتَبِعُ الَّذِي تَمَّ عَقْدُهُ

فالدنيا سوق عباد الله ، والتجارة إمام مع الله عز وجل وربحها الحياة الطيبة في الدنيا ، والسعادة الأبدية في جنة الله عز وجل في الآخرة ، وإمام مع الشيطان ، وربح هذه التجارة الشقاء والضنك والهم والغم والحزن في الدنيا ، والشقاء الأبدى والحجيم السرمدي في الآخرة ، كما قال ﷺ : «فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وليس هناك ثالث يساوم على نفس العبد وماله قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله عز وجل وبين الشيطان ، فإن تولاه الله عز وجل لم يقدر عليه الشيطان ، وإن تركه الله عز وجل أخذته الشيطان .

وأعلى تجارة وأغلاها هي التجارة مع الله عز وجل ، ببذل النفس والمال لله

(١) رواه مسلم (٩٩/٣ ، ١٠٠) الطهارة : باب فصل الوصوء ، والترمذي في الدعوات ، والسنائي في الزكاة وأوله «الطهور شرط الإيمان» وموبقها : أي مهلكها

عز وجل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْدَلَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (التوبة : ١١١) .

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لغدوة في سبيل الله أو روحه ، خير من الدنيا وما فيها» (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لو ددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل» (٢) .

وروى الذهبي أن ابن المبارك لما كان مرابطاً بطرطوس سنة سبع وسعين ومائة ، أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العيادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فحورنا سدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	وهج السنايك والعبار الأطيب
ولقد أتانا من مقيال بينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في	أنف امرئ وعبار نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بينا	ليس الشهيد بميت لا يكذب
فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه ، وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصح .	

ثم قال للرسول أكتب الحديث ؟ قال : نعم . قال : فاكتب هذا الحديث كرامة حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا ثم أملاه بسنده رواية لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دُلني على عمل يعدل الجهاد . قال : «لا أجده» . قال : «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ قال : «ومن يستطيع ذلك» (٣) .

(١) رواه البخاري (١٣/٦) الجهاد : باب الغدوة والروحة في سبيل الله وفات قوم أحدكم في الجنة ومسلم (٢٦/٣) الإمارة فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ورواه الترمذي في فضائل الجهاد .

(٢) البخاري (٢١٧/١٣) التمني : باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة وهي الجهاد : باب نهي الشهادة ، ومسلم (٢٣/١٣) الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله ورواه مالك في الجهاد والسنائي في الجهاد كذلك .

(٣) رواه البخاري (٤/٦) الجهاد : باب فضل الجهاد والسير واللفظ له ومسلم (٢٤/١٣ ، ٢٥) الإمارة : باب فضل الشهادة في سبيل الله ورواه مالك في الجهاد والسنائي في الجهاد كذلك .

قال أبو هريرة : إن هرس المجاهد ليست في طوله فيكتب له حسنات ،
والجهاد في سبيل الله أعلى تحارة وأربح تجارة مع الله عز وجل .

وكل عبادة من العبادات أو معاملة من المعاملات الشرعية تجارة مع الله عز وجل ، وكل تجارة مع الله عز وجل فهي رابحة لا تخسر بحال من الأحوال قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ (فاطر ٢٩) .

وكل أحد من الناس إذا أراد معاملة غيره فإلما يريد له نفسه ، ويريد أن يتنفع منه نوع منفعة ، والله عز وجل يريدك لك ، ويطلب منك أن تعامله عز وجل ، حتى تربح أنت عليه أعظم الربح ، وهو عز وجل غني عنك وعن معاملتك قال النبي ﷺ : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » (١) .

فاطر إلى مُصَيِّع الساعات كم يفوته من التحيل .
وقال ﷺ : « اقرأوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه أما إني لا أقول ألم حرف ولكن ألف عشر ولا م عشر وميم عشر » (٢) .
وقال ﷺ : « من صلى في يوم ثنتي عشرة سجدة تطوعاً ، بنى الله له بيتاً في الجنة » (٣) .

أي من صلى السنن الرواتب في كل يوم يبنى له بيت في الجنة كل يوم . ما أربح التجارة مع الله عز وجل ! !

واعلموا عباد الله أن رأس مالنا الأوقات والدخظات ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة ، تستطيع أن تشتري بها كراً لا يفنى أبد الآباد ، فتضييعه

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/١٢٥ - ٢) وابن حبان والحاكم عن جابر مرفوعاً وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وصححه الألباني بشواهده الصحيحة رقم ٦٤

(٢) أخرجه الخطيب في التاريخ (٢٨٥/١) والديلمي (١٣/١/١) وقال الألباني : وهذا إسناد جيد رجاله رجال الصحيح غير ابن الجنيذ ترحمه الخطيب وقال : وهو شيخ صدوق ، ووثقه غيره وروى الترمذي نحوه .

(٣) رواه مسلم (٧/٦) صلاة المسافرين ، فصل السنن الراتبة ، وأبو داود في الصلاة والترمذي في الصلاة ، والسنائي في قيام الليل .

وخسارته أو اشتراء صاحبه به ما يحلب هلاكه ، لا يسمح به إلا أقل الناس عقلاً ، وأكثرهم حمقاً ، والله عز وجل جعل الليل والنهار خلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً

والتجارة مع الله عز وجل ليست كغيرها من التجارات ، فهي معاملة بين العبد الفقير والرب الجليل ، بين المخلوق الضعيف والمخلق القدير ، فهي نوع خاص من المعاملات لا يشبه معاملة المخلوق للمخلوق ، ويسفي عليها عباد الله أن تدرس فقه التجارة مع الله عز وجل ، حتى لا نكون يوم القيامة من المغبونين ، أو من اللذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .
فما هو فقه التجارة مع الله عز وجل ؟

• من فقه التجارة مع الله عز وجل ، أن يعلم العبد أن الله عز وجل غني عن العبد وعن عبادته ، وأن من عمل عملاً أشرك مع الله عز وجل غيره فلا هذا العمل لا يقبله الله عز وجل كما قال تعالى :

﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَا هَبَاءً مَثُوراً ﴾ (الفرقان : ٢٣) .
فكل عمل كان بإرادة غير الله مشروباً معموراً يجعله الله عز وجل يوم القيامة هباءً ماثوراً .

فالله عز وجل لا يقبل إلا الدين الخالص كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر : ٣) .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (البينة : ٥) . فيشترط الله عز وجل على من أراد أن يتأخر معه الإخلاص ، والإخلاص إفراد الله عز وجل بالقصد في العبادة ، وتحرير قصد التقرب إلى الله عز وجل عن جميع الشوائب .

قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه»^(١) .

(١) رواه الهائي (٢٥/٦) الجهاد من غرا يلتمس الأجر والذكر ، وقال الحافظ العراقي في تهريج الإحياء : وإسناده حسن (٢٨/٤) وقال المنذري إسناده جيد (٢٤/١) الترغيب والترهيب

* ومن فقه التجارة مع الله عز وجل أن لا يعمل العبد عملاً إلا نية ، قال عليه السلام : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» (١) .

فالبينة الصالحة تقوى على رفع العمل لمصالح إلى درجة الصالحة ، كما قال بعض السلف : (إِنِّي لَأُحْسِبُ نَوْمِي كَمَا أُحْسِبُ قَوْمِي) ، وقال بعضهم (لا تعملن عملاً إلا بنية) .

ومن فقه التجارة مع الله عز وجل ، أن يجمع العبد في العمل لواحد بيات كثيرة صالحة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» (٢) .

أي إن ثواب العامل على عمله ، بمقدار ثواب البيات التي يجمعها في العمل الواحد ، فمن ذهب إلى المسجد لصلاة جماعة ، وأخذ إخوانه في الله ، وسماع دروس العلم ، وإقامة ذكر الله عز وجل ، وتطيف المسجد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلخ لا يعد من بيات صلواته أو بياتي ، إلى المسجد ، كان ثوبه على هذا العمل بمقدار ثواب البيات الصالحة التي جمعها في ذلك العمل ، ولذلك قالوا (تجارة البيات تجارة العلماء) والعلماء هم الذين يعرفون فقه التجارة مع الله عز وجل ، وكيف يربحون على الله عز وجل أعظم الأرباح .

* ومن فقه التجارة مع الله عز وجل ، أن يتأكد العبد أن عمله موافق لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (٣) .

فكل عمل لا يندرج تحت الشريعة ، ولا تكون شريعة النبي صلى الله عليه وسلم حاكمه عليه بالصحة فهو مردود غير مقبول ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّدِينَ مِنْ بَعْدِي غَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاحِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (٤) .

(١) رواه البخاري (٩/١) بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الإيمان وفي العتق ، ورواه مسلم (٥٣/١٣ ، ٥٤) باب قوله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ورواه أصحاب السنن الثلاثة .

(٢) الحديث السابق .

(٣) رواه مسلم (١٦/١٢) الأقضية باب نقص الأحكام الناطقة وود محذرات الأمور بهذا اللفظ ، وانقضا على إخراجها بلفظ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» .

(٤) أبو داود (١٢/٣٥٩ ، ٣٦٠) السنة باب لزوم السنة ، والترمذي (١٠/١٤٣ ، ١٤٤) أبواب العلم وقال :

قال سفيان الثوري : لا يقل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بمتابعة السنة .

وقال الحسن البصري : السنة والدي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقي ، والدين لم يذهبوا مع أهل البدع في بدعهم ولا مع أهل الإنتراف في إنترافهم ، وصبروا على مستهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك إن شاء الله فكونوا .

• من فقه التجارة مع الله عز وجل أن يجعل العبد معاملته سرّاً بينه وبين الله عز وجل ، فإن الله عز وجل يحب من العباد أن يعاملوه سرّاً .

المحبون يغارون من إطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه . وكان السلف رضي الله عنهم يخفون حسناتهم كما تخفي سيئاتنا .

وفي الأثر : (من استطاع منكم أن يكون له خبيثة من عمل صالح فليفعل) .

• من فقه التجارة مع الله عز وجل أن يحفظ العبد أعماله الصالحة من محيطات الأعمال ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (البقرة : ٢٦٤) .

فالمعصية بالمن بالصدقة على عباد الله ، أكبر من الصدقة ، وكما أن الحسنات يذهبن السيئات ، كذلك السيئات إذا قويت على الحسنات أحبطتها ، ولكن هذا الإحباط ليس كإحباط الكفر للإيمان فإذا عمل العبد عملاً صالحاً ، ينبغي عليه أن يحفظه فلا يمن به على الله عز وجل ، أو على عباد الله ، ولا يعجب به ، ولا يصيبه الكبر بسببه ، بل يعلم أن الله عز وجل هو المتفضل عليه بالتوفيق ، وعليه عز وجل القبول .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا ومعصيتك ، ومن طاعتك

= الترمذي . هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد وابن ماجه رقم ٤٢ في المقدمة باب إتباع سنة العلماء الرشدين ، وابن حبان في صحيحه وصححه الألباني في صحيح السريج والتهذيب (٢٠/١)

ما تبلعنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا .
ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واحعل
ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا .
ولا تجعل الدنيا أكبر همًّا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بدبونا من
لا يخافك ولا يرحمنا .
وصلُّ اللهم وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

صلة الرحم^(١)

الحمد لله المتفرد بوحداية الألوهية ، المتميز بعظمة الربوبية ، القائم على نفوس العالم بأجلالها ، والعالم بتقلبها وأحوالها ، المان عليهم بتواتر الآث ، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه ، الذي أنشأ الخلق حين أراد ، بلا معين ولا مُشير وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير ، فمضت فيهم بقدرته مشيئته ، وفدت فيهم بعزته إرادته ، فألهمهم حسر الإطلاق وركب فيهم تشعب الأخلاق ، فهم على طبقات أقدارهم يمشون ، وعلى تشعب أخلاقهم يدورون ، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمون ، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣٢) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، فاطر السموات العلا ، ومنشئ الأرضين والثرى ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

وأشهد أن محمداً عبده المجتبي ، ورسوله المرتضى ، بعثه بالنور المضي والأمر العرضي على حين فترة من الرسل ودروس من السبل ، فدمغ به الطغيان ، وأكمل به الإيمان ، وأطهره على كل الأديان ، وقمع به أهل الأوثان فصلى الله عليه وسلم ما دار في السماء فلك ، وما سبح في الملكوت ملك وعلى آله أجمعين .

أما بعد ، ، ،

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء - غذاء الالاب للسماري - فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد - تفسير القرطبي - تفسير ابن كثير - فتح الباري شرح البخاري .

واحدةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ (النساء : ١) .

يقول الله تعالى امرأ خلقه يتقوا . وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنهأ بهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء خلقت من ضلعه الأيسر ، وقوله ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أي ذراً منهما أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساءً ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وألوانهم ولعائتهم ، ثم قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ أي اتقوا الله بطاعتكم إياه ، واتقوا الأرحام أن تمطعوها ، ولكن برؤها وصلوها . وقوله ﴿ تَسَاءَلُونَ ﴾ أي كما يقال : أسألت بالله وبالرحم وقيل تتعاقدون وتتعاهدون به

وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (محمد : ٢٢) ، (٢٣) .

قال ابن جريح : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام .

وقال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكماً ، أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ ، قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ ، وَأَقْطَعَ مِنْ قِطْعِكَ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكَ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد : ٢٢) .

والرحم هم قرابة الرجل من طرفي أبيه وأمه فتحب لهم الحقوق الخاصة من المحبة والنصرة وعدم القطيعة ، والقيام بحقوقهم كتمريض المرضى ،

وحقوق الموتى ، من غسلهم والصلاة عليهم ، وغير ذلك من حقوق المسلمين ، وزيادة على ذلك النفقة على المحتاح منهم ، وتفقد أحوالهم ، وترك التعاقل عن تعاهدهم في أوقات صرورتهم ، حتى إذا تراخمت الحقوق ، بدأ بالأقرب فالأقرب .

وقد وردت السنة بتأكيد أهمية هذه العبادة ، فمن ذلك ما رواه في الصحيح عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال : (يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة فقال القوم ماله ما له؟ فقال رسول الله ﷺ : «أَوْبٌ ماله» فقال النبي ﷺ : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم»^(١) .

وفي الصحيح كذلك من حديث أنس : (من أحب أن يبسط له في رزقه ، وَيَنْسَأَ له في أثره فليصل رحمه)^(٢) .

وقوله ﷺ : «ينسأ له في أثره» أي يؤخر أجله وسمي الأجل أثراً لأنه يتبع العمر . قال زهير :

والمرء ممدود له أمل لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر
وأصله من أثر منيه في الأرض ، فإن من مات لا يبقى له حركة ، فلا يبقى لقدمه في الأرض أثر .

قال ابن التين : ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (النحل : ٦١) .

والجمع بينهما من وجهين : أحدهما : أن الزيادة كناية عن البركة في العمر ، بسبب التوفيق إلى الطاعة ، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة ، وصيانتة عن تضييعه في غير ذلك ، مثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وحاصله أن صلة

(١) رواه مسلم (١٧٢/١ ، ١٧٣) الإيمان : باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة ومعنى «أَوْبٌ ماله» أي حاجة جاءت به فدعوه .

(٢) البخاري (٤١٥/١٠) الأدب : باب من يبسط له في الرزق بصلة الرحم ، ومسلم (١١٤/١٦) البر والصلة . باب صلة الرحم وتحريم قطعها ورواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة .

لرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة ، والصيانة عن المعصية ، فيبقى بعده الذكر الجميل فكأنه لم يَمُت .

ثانيهما . أن الريادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر ، وأما الذي دلت عليه الآية بالنسبة إلى علم الله تعالى ، كأن يقال للملك إن عمر فلان مائة مثلاً إن وَصَلَ رحمه ، وستون إن قطعها ، وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع ، فالذي في علم الله لا يتقدم أو يتأخر ، والذي في علم الملك هو الذي فيه الريادة أو النقصان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد ٣٩) . فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك .

وقيل فيه جواب ثالث : وهو أن واصل رحمه تكون له الدرية الصالحة يدعون له من بعده .

وورد كذلك أن من وصل رحمه وصله الله .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «إن الرحم شجنة من الرحمن» . فقال : ﴿ مَنْ وَصَلَكَ وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعَتْهُ ﴾^(١) .

قيل وأصل الشجنة عروق الشجر المشبكة ، وقوله . «من الرحم» أي أخذ اسمها من هذا الاسم ، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في السنن مرفوعاً : «أب الرحم خلقت الرحم وشبهت لها اسماً من اسمي»^(٢) .

قال الإسماعيلي : معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن ، فلها به علاقة وليس معناه أنها من ذات الله تعالى الله عن ذلك . والمعنى الجامع لصلة الرحم إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة . وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في الله هي صلتهم ، بشرط بذل الجهد في وعظهم ثم إعلامهم إذا أصرروا أن ذلك سبب تحلمهم عن الحق ، ولا يسقط مع

(١) البخاري (٤١٧/١٠) الأدب - باب من وصل وصله الله ورواه أحمد وابن أبي عاصم (٥٣٨) بمعناه

(٢) الترمذي (١٠٠/٨) أبواب البر والصلة وقال الترمذي صحيح .

ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر العيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى وقوله «من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته» الوصل هو أعظم ما يعطيه المحبوب لمحبه ، وهو التقرب منه ، وإسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه ، وهو كما يليق بالله عز وجل وعظمته .

روى مسلم وأحمد عن أبي هريرة قال : أتى رجل للنبي ﷺ فقال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعون ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، ويجهلون علي وأحلم عنهم قال : «لئن كان كما تقول كأنما تسفهم الممل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» (١) .

قال النووي : كأنما تطعمهم الرماد الحار ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم ولا شيء على هذا المحسن بل يبالغ الإثم العظيم في طبيعته ، وإذحالههم الأذى عليه .

وقيل إنك بالإحسان إليهم تحزبهم وتحقرهم في أنفسهم ، لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف الممل .

وقد أخبر النبي ﷺ أن الواصل ليس هو من يقابل الإحسان من الأقارب بالإحسان ، ولكنه من يقابل الإساءة منهم بالإحسان إليهم .

ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» (٢) .

قال الطيبي : المعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته من يكافئ صاحبه بمثل فعله ، ولكنه من يتفضل على صاحبه .

وقال البلقيني : المراد بالواصل في هذا الحديث الكامل ، فإن في المكافأة نوع صلة بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه ، فإن فيه قطعاً بإعراضه عن ذلك ، وهو من قيل (ليس الشديد بالصُّرعة) و(ليس الغنى عن كثرة العرض) انتهى .

(١) مسلم (١٦/١١٥) البر والصلة : صلة الرحم وتحريم قطعها .

(٢) رواه البخاري (٤/١١٣) وفي الأدب المفرد (٦٨) وكذا الترمذي (٣٤٨/١) وأحمد (٢/١٦٣ ، ١٩٠ ،

١٩٣) غاية المرام (٢٣٢) رقم ٤٠٨ .

وقال ابن حجر : لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع ، فهم ثلاث درجات مواصل ومكافيء وقاطع ، فالواصل من يتفضل ولا يتفضل عليه ، والمكافيء الذي لا يريد في الإعطاء على ما يأخذ ، والقاطع الذي يتفضل عليه ولا يتفضل . وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين ، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل ، فإن جوزي سمي من جازاه مكافئاً .

وقد وردت الأحاديث كذلك بالوعيد الشديد لقاطع الرحم ففي الصحيحين أن جبير بن مطعم أخبر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قاطع » (١) .

عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » (٢) .

قال الحجاوي : وقطيعة الرحم من الكبائر .

قال البلباني في آدابه . إعلم أنه يحب عليك أن تصل بقية رحمك ، وهم كل قرابة لك من السب ، وقد قرن الله سبحانه الأرحام باسمه الكريم في قوله جل من قائل . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

وذلك تنبيه عظيم على أن صلتها بمكان منه سبحانه ومقرب إليه ، وقطعها خطر عظيم عنده ومبعد عنه سبحانه .

أخرج الطبراني عن الأعمش قال . كان ابن مسعود جالساً بعد الصبح في حلقة فقال : « أنشد الله قاطع رحم لما قام غيًّا ، فإنا نريد أن مدعور ربنا ، وإن

(١) رواه البخاري (٤١٥/١٠) الأدب : باب إثم القاطع ، ومسلم (١١٤/١٦) الرواصلة صلة الرحم وتحريم قطعها .

(٢) رواه ابن المبارك في الرهد (٧٢٤) والبخاري في الأدب المفرد (١٢) وأبو داود (٣٠١/٢ ، ٣٠٢) والترمذي (٨٣/٢) وابن ماجه (٥٥٢/٢) والحاكم وأحمد وقال الترمذي حسن صحيح ، وقال الحاكم صحيح الإسناد وقال الألباني وهو كما قال ابن رحال إسناده ثقات كلهم (الصحيحة - ٩١٧/٦٢٣/٢) .

أبواب السماء مُرْتَجَّةٌ دُونَ قَاطِعِ رَحِمٍ^(١) .

وروي كذلك في الآثار (أن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم ،
وأن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)^(٢)

قال الحافظ في الفتح قال الطيبي يحتمل أن يراد بالقوم الذين يساعدونه
على قطيعة الرحم ولا يسكرون عليه ويحتمل أن يراد بالرحمة المطر وأنه يحبسها
عن الناس عموماً بشؤم التقاطع .

وقال كذلك واعلم أن المراد بصلة الرحم مولاتهم ومحبتهم أكثر من
غيرهم لأجل قرابتهم ، وتأكيد المبادرة إلى صلحتهم عند عداوتهم ، والاجتهاد
في إيصالهم كفايتهم بطيب نفس عند فقرهم ، والإسراع إلى مساعدتهم
ومعاونتهم عند حاجتهم ومراعاة جبر حاطرهم ، مع التعطف والتلطف بهم ،
وتقديمهم في إحاة دعوتهم ، والتواضع معهم مع غناه وفقرهم وقوته وضعفهم
ومداومة مودتهم وبصحتهم في كل شؤونهم ، والبدء بهم في الدعوة والضيافة
قبل غيرهم وإيثارهم في الصدقة والإحسان والهداية على من سواهم ، لأن
الصدقة عليهم صدقة وصلة ، وفي معناه الهدية ونحوها ، ويتأكد فعل ذلك مع
الرحم الكاشح المغض ، عساه أن يرجع عن بغضه إلى مودة قريبه ومحبته .
وفي الحديث . «الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة
وصلة»^(٣) . انتهى .

قال السفاريني : واعلم أن هذا كله ليس بواجب أكثره مندوب كما يعلم .
وينبغي على العاقل كذلك عباد الله أن يبادر إلى صلة ذي الرحم
الكاشح ، وأن يدفع ما عنده من الضغن والبغضاء بالإحسان والإغصاء ، كما
قال تعالى . ﴿ إِذْقِعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ﴾ (فصلت : ٣٤) .

(١) قال الهيثمي : رواه الطبراني ورحاله رجال الصحيح إلا أن الأعمش لم يدرك ابن مسعود - مجمع الروائد
(١٥١/٨) كتاب البر والصلة .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد عن ابن أبي نوق ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان وضعفه الألباني
في صحيح الجامع رقم ٤٦٣

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وأبو حنيفة في مسندهم عن سلمان بن
عامر وصححه الألباني - صحيح الجامع رقم ٣٥٧٢ .

فكيف بالحميم الذي هو القريب .

فصل رَجِمَكَ رَجِمَكَ مولاك ، وحالف بذلك نفسك وهواك ، واصبر على أداهم فإن بذلك نبيك أوصاك ، وبالع في الإحسان إلى من أساء إليك منهم تُحَمَّدُ بذلك عُقْنَاكَ ، وحسن أخلاقك معهم تُرْضِي خَلْقَكَ ، وتتل راحتك ويطيب مثواك .

والله المسؤول أن يوفقني وإياكم وجميع المسلمين والمسلمات لما فيه السعادة ، وأن يرزقنا الحسنی وزيادة ، وصلى الله وسلم على النبي الأواب من جاء بالسنة والكتاب ، وعلى آله وصحبه ما دجت الأحلاك ودارت الأفلاك .

تنفيس كربات المسلمين وإعانتهم وستر عوراتهم والاجتماع على طلب العلم^(١)

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، وجعل أمتنا والله
الحمد خير أمة ، وبعث فينا رسولا منا يتلو علينا آياته ويزكيها ، ويعلمنا الكتاب
والحكمة .

أحمده على نعمه الجمّة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
شهادة تكون لمن اعتصم بها خير عصمة .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله للعالمين رحمة ، وفرض عليه
بيان ما أنزل إلينا ، فأوضح لنا كل الأمور المهمة ، وخصه بجوامع الكلم قربما
جمع أشاتات الحكم والعلوم في كلمة أو شطر كلمة ، قال ﷺ : «بعثت بجوامع
الكلم»^(٢) .

فصلى الله عليه وآله وأصحابه صلاة تكون لنا نوراً من كل ظلمة وسلم
تسليماً .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى . وخير الهدى هدى محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من نفّس عن مؤمن

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب .

(٢) رواه البخاري (٩٠/١) الجهاد وسلم (٥٢٣) المساجد . في فاتحته والترمذي (١٥٥٣) والنسائي

(٤ ، ٣/٦) الجهاد - جامع الأصول (٥٣١/٨) .

كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحففتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١) .

هذا الحديث عباد الله يبين أبواباً من أبواب الخير ، يبينها لنا معلم الخير ﷺ ، وأول هذه الأبواب قوله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» .
والحرء من جس العمل كما قال ﷺ : «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢) .

وقال ﷺ : «إن الله يعذب الذين يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»^(٣) .
والكربة هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب وتنفيسها تخفيفها ، والتفريح أعظم من ذلك وهو أن يزيل عنه الكربة ، فجزاء التنفيس التفيس ، وجزاء التفريح التفريح . وقوله ﷺ : «كربة من كرب يوم القيامة» ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل في التيسير والستر ، وقد قيل في مناسبة ذلك ، أن الكرب هي الشدائد العظيمة وليس كل أحد يحصل له ذلك بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر فإن أحداً لا يكاد يخلو من ذلك وقيل لأن كُرب الدنيا بالنسبة إلى كُرب الآخرة كـلاشيء ، فادخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده لينفس به كرب الآخرة .

(١) رواه مسلم (٢١/١٧ ، ٢٢) الذكر والدعاء : باب فصل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى ذكر ، وأبو داود (٢٨٩/١٣ ، ٢٣٠) الأدب : باب في المعونة للمسلم ، والترمذي في الحدود وفي البر والصلة .
(٢) رواه البخاري (١٥١/٣) الجنائز . باب قول النبي ﷺ : «يعذب الميت بكاء» ، ومسلم (٢٢٥/٦) الجنائز : باب البكاء على الميت ، والأربعة وأحمد في المسند .
(٣) رواه مسلم (١٦٢/١٨) البر : باب الوعيد والتريد لمن عذب الناس بعير حق ، وأبو داود (٢٩٨/٨) في الخراج والإمارة في الشهد في الجبابة .

ويدل على ذلك حديث الشفاعة في الصحيحين بمعناه : (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس منهم فيبلغ الناس من الكرب والغم ما لا يطيقون ولا يحملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض ألا ترون ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم) (١) .

وفيها كذلك من حديث عائشة عن النبي ﷺ قال : «يُحْشَرُ النَّاسُ حِفَاةَ عِرَاقٍ غُرْلًا ، قَالَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؟ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ» (٢) .

وفيها من حديث ابن عمر في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين : ٦) قَالَ : «يَقُومُ أَخَذُهُمْ فِي الرُّشْحِ إِلَى أَنْصَافِ أذْنَيْهِ» (٣) .

ولمسلم من حديث المقداد عن النبي ﷺ قال : «تدنو الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً» (٤) .

وقوله ﷺ : «ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة» وقد وصف الله عز وجل يوم القيامة بأنه يوم عسير ، على الكافرين عير يسير وقال عز وجل : ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان : ٢٦) . فأخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل يسر هذا اليوم على من يسر على

(١) البخاري (٣٧١/٦) الأنبياء : باب قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ، ومسلم (٦٦/٣) ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ : الإيمان : الشفاعة ، والترمذي في صفة القيامة .

(٢) البخاري (٣٧٧/١١) الرقاق . باب الحشر ، ومسلم (١٩٣/١٧) القيامة : هاء الدنيا وبيات الحشر يوم القيامة واللفظ له ورواه الترمذي في القيامة والسنائي في الجائز ، وأحمد في المسند .

(٣) البخاري (٦٩٦/٨) التيسير باب «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» ، مسلم (١٩٥/١٧) صفة يوم القيامة .

(٤) رواه مسلم (١٩٦/١٧) صفة يوم القيامة ، وقال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل أعساة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين .

معسر ، والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين . إما
بإنظاره إلى الميسرة ، وذلك واجب كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ
إِلَى مِيسْرَةٍ ﴾ وتارة بالوصع عنه إن كان عريماً ، وإلا فبإعطائه ما يروى به
إعساره ، وكلاهما له فضل عظيم .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان تاجر يداين
الناس ، فإذا رأى معسراً قال لصبيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ،
فتجاوز الله عنه » (١) .

وفيهما عن حديفة وأبي مسعود الأنصاري سمعا النبي ﷺ يقول : « مات
رجل فقيل له بم غفر الله لك ؟ فقال كنت أباع الناس فأتجاوز عن الموسر
وأخفف عن المعسر ، وخرجه مسلم من حديث أبي مسعود عن النبي ﷺ وفي
حديثه قال الله : « نحن أحنُّ بذلك منه تجاوزوا عنه » (٢) .

وخرج مسلم أيضاً من حديث أبي اليسر عن النبي ﷺ قال « من أنظر
معسراً أو وضع عنه ، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » (٣) .
وقوله ﷺ : « ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » .

وشاهد هذا حديث أبي بردة عن النبي ﷺ قال : « يا معشر من آمن بلسانه
ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من
اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه الله في بيته » (٤) .
واعلم أن الناس نوعان : أحدهما : من كان مستوراً لا يعرف شيء من
المعاصي ، فإذا وقعت منه هفوة أو رلة فإنه لا يجوز هتكها ولا كشفها ولا التحدث

(١) رواه البخاري (٤٩٤/٦) الأنبياء : باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم (٢٢٦/١٠) المساقاة : باب
فضل إنظار المعسر .

(٢) رواه البخاري (٣٠٩/٤) البيوع : باب من أنظر معسراً ، ومسلم (٢٢٤/١٠) المساقاة : باب فضل إنظار
المعسر .

(٣) رواه مسلم (٢٣٠٢/٤) حسن حديث جابر - شرح السنة (١٩٨/٨) بتحقيق شعيب الأرنؤوط .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٣٣) في البر والصلة وسنده حسن من حديث أبي بردة الأسلمي ، وأخرجه أبو داود
(٤٨٨٠) وسنده حسن في الشواهد وقال الهيثمي في المجمع رجاله ثقات - شرح السنة
(١٠٥/١٠٤/١٣) .

بها ، لأن ذلك غيبة محرمة ، وهذا هو الذي وردت فيه المصوص ، وفي ذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (النور : ١٩) .

قال بعض الورراء الصالحين لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام .

والنوع الثاني : من كان مشتهراً بالمعاصي ، معلماً بها ولا يبالي بما ارتكب منها ولا بما قيل له ، فهذا هو الفاجر المعلن ، وليس له غيبة كما نص على ذلك الحسن البصري وغيره ، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتقام عليه الحدود .

ثم قال ﷺ : «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» . بعث الحسن البصري قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل ، وقال لهم : «مُرُوا بِثَابِتِ الْبِنَانِيِّ فَخُذُوهُ مَعَكُمْ ، فَأَتُوا ثَابِتاً فَقَالَ : أَنَا مَعْتَكِفٌ . فَرَجِعُوا إِلَى الْحَسَنِ فَأَخْبِرُوهُ ، فَقَالَ : قُولُوا لَهُ : يَا أَعْمَشُ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ مَشِيكَ فِي حَاجَةِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُجَّةٍ بَعْدَ حُجَّةٍ . فَرَجِعُوا إِلَى ثَابِتٍ فَتَرَكَ اعْتِكَافَهُ وَذَهَبَ مَعَهُمْ» .

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب للحمي أغنامهم ، فلما استخلف قالت جارية منهم الآن لا يحلبها . فقال أبو بكر بلى وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله أو كما قال : وإنما كانوا يقومون بالحلاب لأن العرب كانت لا تحلب النساء منهم ، وكانوا يستقبحون ذلك ، وكان الرجال إذا غابوا احتاج النساء إلى من يحلب لهن .

وكان عمر يتعاهد الأرامل يستقي لهن الماء بالليل ، وراه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة ، فدخل إليها طلحة نهاراً فإذا هي عجوز عمياء مقعدة ، فسألها ما يصنع هذا الرجل عندك ، قالت هذا منذ كذا وكذا يتعاهدني ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى .

فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة أعورات عمر تتبع .

وكان أبو وائل يطوف على ساء الحي وعجائزهن كل يوم ، فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن .

وقال محاهد : صحبت ابن عمر في سفر لأحدمه فكان يخدمني وقوله ﷺ : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » .

وسلك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء ، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم ، مثل حفظه ومدارسته ومداكرته ومطالعة وكتابه والتفهم له ونحو ذلك من الطرق المعنوية التي يتوصل بها إلى العلم وقوله ﷺ : « سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه وسلك طريقه ، ويسره عليه ، فإن العلم طريق يوصل إلى الجنة .

قال بعض السلف : هل من طالب علم فيعان عليه . وقد يراد أيضاً أن الله يسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله تعالى والانتفاع به والعمل بمقتضاه ، فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة بذلك . وقد يدخل في ذلك أيضاً تسهيل طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده ، والعلم يدل على الله عز وجل من أقرب طريق ، بل لا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بمحاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع ، الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، ولهذا سمي الله تعالى كتابه نوراً ، لأنه يهتدى به في الظلمات قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥) .

وما دام العلم باقياً في الأرض فالناس في هدى ، وبقاء العلم ببقاء حملته ، فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال ، كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبضه بقبض العلماء ، فإذا لم يبق

عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»^(١) .
وسئل عبادة بن الصامت عن هذا الحديث فقال : لو شئت لأحبرتك بأول علم يرفع من الناس الحشوع .

وإنما قال عبادة هذا لأن العلم قسمان : أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان وهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله المقتضي لخشيته ومهابته وإحلاله والحصوع له ومحبة ورجائه ودعائه والتوكل عليه ونحو ذلك ، فهذا هو العلم النافع كما قال ابن مسعود : إن أقواماً يقرأون القرآن لا يحاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب ورسخ فيه نفع .

وقال الحسن : العلم علمان علم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم ، وعلم في القلب فذاك العلم النافع .

وأول ما يرفع من العلم العلم النافع ، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها ، ويبقى علم اللسان حجة فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه لا حملته ولا غيرهم ، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حملته ، فلا يبقى إلا القرآن في المصاحف ، وليس ثم من يعلم معانيه ولا حدوده ولا أحكامه ، ثم يُسرى به في آخر الزمان فلا يبقى في المصاحف ولا في القلوب منه شيء بالكلية ، وبعد ذلك تقوم الساعة .

قوله ﷺ : «وما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عتده» .

ودل على استحباب الاجتماع لمدارسة القرآن في الجملة الأحاديث الدالة على استحباب الاجتماع للذكر ، والقرآن أفصل أنواع الذكر .

وفي الحديث الذي نحن بصدده أن الذين يحتلمون في المسجد على الذكر جزاؤهم أربعة أشياء : نزول السكينة عليهم - وغشيان الرحمة - وحفوف الملائكة - وذكر الله عز وجل لهم في ملاه الأعلى .

(١) رواه البخاري (١٩٤/١) العلم : باب كيف يقض العلم ، ومسلم (٢٢٣/١٦ ، ٢٢٤) العلم : باب رفع العلم وقضه وظهور الجهل والعتن في آخر الزمان .

أما نزول السكينة : ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال : (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدور ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال تلك السكينة تنزل للقرآن^(١) . فرأى هذا الصحابي رضي الله عنه السكينة بعيني رأسه مثل السحابة تدور وتقترب لقراءته .

أما غشيان الرحمة : فقد قال عز وجل : ﴿إِنْ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ . وخرج الحاكم من حديث سلمان أنه كان في عصابة يذكرون الله تعالى فمر بهم رسول الله ﷺ فقال : «ما كنتم تقولون ؟ فلاني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأردت أن أشارككم فيها» .

أما حقوف الملائكة : فهي الصحيحين عن أبي سعيد «أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ القرآن في مربد ، إذ جالت فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أيضاً ، قال أسيد فخشيت أن تطأ يحيى (يعني ابنه) قال : فقممت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي ، فيها مثل أمثال السرج ، عرجت في الجو حتى ما أراها ، قال ففدا على النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال : تلك الملائكة كانت تسمع لك ، ولو قرأت لأصبحت تراها الناس ما تستتر منهم^(٢) .

وكذلك حديث الملائكة السبارة وفيه «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»^(٣) .

وأما ذكر الله عز وجل لأهل المجلس : ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين

(١) رواه البخاري (٥٢/٩) فضائل القرآن باب فصل سورة الكهف ، ومسلم (٨١/٦ ، ٨٢) صلاة المسافرين باب نزول السكينة لقارئ القرآن ، والترمذي (١١ ، ١٦) ثواب القرآن باب ما جاء في فصل سورة الكهف .

(٢) رواه البخاري تعليقاً في فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن بصيغة الحرم عن النبي ﷺ وقال الحافظ وصلة أبو عبيد في فضائل القرآن ، ورواه مسلم (٨٢/٦ ، ٨٣) صلاة المسافرين : باب نزول السكينة لقارئ القرآن .

(٣) رواه البخاري (٢٠٨/١١ ، ٢٠٩) الدعوات باب فصل ذكر الله عز وجل ، ومسلم (١٧/١٤ ، ١٥) الذكر : باب فصل محاسن الذكر ، وبين روايتها اختلاف في بعض اللفاظ مع اتحاد المعنى .

بذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم^(١) .

ودكر الله للعبد هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى بين ملائكته ، ومباهاته به ، وتنويهه بذكره .

ثم ختم النبي ﷺ هذه الوصية الغالية بقوله ﷺ : «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ومعناه أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ بِمَا عَمِلُوا ﴾ .

فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات ، فإن الله تعالى رتب الجراء على الأعمال لا على الأنساب ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٠١) .

وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤) .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم فيمر الناس على قدر أعمالهم زمراً زمراً ، أوائلهم كلمح الرق ثم كمر الريح ثم كمر المطر ثم كمر البهائم ، حتى يمر الرجل سعياً ، وحتى يمر الرجل مشياً ، حتى يمر آخرهم يتلبط على بطنه فيقول يا رب لِمَ أبطأت بي ؟ فيقول : إني لم أبطيء بك ولكن أبطأ بك عملك .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

(١) رواه البخاري (٣٨٤/١٣) التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُخَلِّدُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ومسلم (٢/١٧) ، (٣) الذكر والدعاء : باب الحث على ذكر الله تعالى ، والترمذي (٩١/١٣) الدعوات : باب حس الظن بالله .

الأمر بحفظ حدود الله عز وجل وأوامره ونواهيه^(١)

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد ، ، ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ،
وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ومور الاقتباس له كذلك

ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته ،
ومتعه بسمعه وبصره وقوته وعقله . وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو
متمتع بقوته وعقله فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك فقال : هذه جوارح
حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر .

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته ، كما قيل في قوله
تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ (الكهف : ٨٢) الآية أنهما حفظا بصلاح
أبيهما . قال سعيد بن المسيب لابنه : لأزیدن في صلاتي من أجلك ، رجاء أن
أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ .

قال بعض السلف : من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيع تقواه فقد
ضيع نفسه والله غني عنه .

والنوع الثاني . من الحفظ هو أشرف النوعين . حفظ الله للعبد في ديه
وإيمانه . فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة ،
ويحفظ عليه ديه عند موته فيتوفاه على الإيمان ، وقد لا يشعر العبد بذلك
الحفظ ، وقد يكون كارهاً له قال تعالى في حق يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ ﴾ (يوسف : ٢٤) .
وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَنْ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (الأنفال :
٢٤) قال : يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار .

وقال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التحارة والإمارة حتى يسر
له ، فيطر الله إليه فيقول للملائكة اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار ،
فيصرفه الله عنه فيظل ينطير بقوله : سبني فلان وأهاتني فلان وما هو إلا فضل
الله عز وجل .

وقوله ﷺ : «احفظ الله تجده تجاهك» وفي رواية : «أمامك» معناه أن
من حفظ حدود الله وراعى حقوقه ، وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه
يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل : ١٢٨) . قال قتادة : (من يتق الله يكن معه ،
ومن يكن الله معه فمعه الفقة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام والهادي
الذي لا يضل) .

أن الأمة لو اهتمت على أن يصعوك شيء لم يصعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اهتموا على أن يصروك شيء لم يصروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف»

رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي .
«احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً»^(١) .

هذا الحديث عباد الله شريف القدر ، عظيم الموقع ، يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قل بعض العلماء قد ندرت هذا الحديث فادهشي حتى كدت أطيش ، فواسفاً من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه . قوله ﷺ : «احفظ الله» يعني احفظ حدوده وحقوقه وأوامره وبواهيته ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند بواهيته بالاجتناب ، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه ، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه وقال عز وجل ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴾ (ق : ٣١) وفسر الحافظ هنا بالحافظ لأوامر الله ، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها ، وقوله ﷺ : «يحفظك» يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ، فإن الجراء من جنس العمل ، كما قال تعالى . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (البقرة : ٤٠) . وقال : ﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (محمد : ٧) وحفظ الله لعبده نوعان : أحدهما حفظه في مصالح دنياه ، كحفظه في بدنه وأهله وماله قال الله عز وجل ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد : ١١) . قال ابن عباس . هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه .

(١) رواه أحمد (٢٨٦/٤ ، ٢٨٨) ، ورواه الترمذي (٣١٩/٩ ، ٣٢٠) في أبواب صفات القيامة وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، وقال ابن رجب رحمه الله أصبح طرق الحديث طريق حسن الصنعاني التي أخرجه الترمذي وهو إسناده حسن لا بأس به . تنصرف من نور الاقتباس في شرح حديث ابن عباس لابن رجب .

وكتب بعض السلف إلى أخ له . (أما بعد فإن كان لله معك ممر تخاف ، وإن كان عليك فمن ترجو) .

والمعية نوعان : معية خاصة ، ومعية عامة ، فأما المعية الخاصة ففي مثل قول الله عز وجل لهارون وموسى ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه : ٤٦) . وقول موسى ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء : ٦٢) . وفي قوله عز وجل حاكياً عن رسولنا الكريم ﷺ : ﴿ لَا تَخْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) .

وهي معية النصر والتأييد والحفظ والإعانة ، والمعية العامة كما في قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ (المجادلة : ٧) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (النساء : ١٠٨) . وهي معية الإطلاع والمراقبة ، فالمعية الأولى معية الأنس بالله عز وجل والرضا به والتسليم لأمره ونهيه وقضائه وقدره ، والمعية الثانية معية الخوف والحذر .

قوله ﷺ : «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» وهذا كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة : ٥) . فالسؤال هو الدعاء والدعاء كما قال النبي ﷺ هو العبادة .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (النساء : ٣٢) . وسؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل ، والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضر ، ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح السؤل والافتقار إلا لله وحده ، لأنه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه ، كما قال : ﴿ إِنْ يُمْسِكَ اللَّهُ بِضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِذَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (فاطر : ٢) .

والله سبحانه يحب أن يسأل ، ويرغب إليه في الحوائج ، ويُلبَّح في سؤاله ودعائه ، ويغضب على من لا يسأله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤالهم من غير أن يقص من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك كله ، يكره أن يسأل ، ويعجب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته لذا قال وهب بن منه لرجل كان يأتي المملوك . ويحك تأتي من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويواري عنك غناه ، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول : ﴿ اذْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (عافر : ٦٠) .

ويقول بعضهم :

لا تسألن بني آدم حاجةً وسأل الذي أبوابه لا تُحجبُ
الله يغضب إن تركت سؤاله وإذا سألت بني آدم يغضب

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره ، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل ، فمن أعانته الله فهو السعان ومن خذله فهو المخذول .
إذا لم يكن من الله عونٌ لِقَتِي فأول ما يجني عليهِ اجتِهادهُ
ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به ، فصار مخذولاً ، كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز لا تستعن بغير الله فيكلك إليه .

قوله ﷺ : «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» والمراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يصره أو ينفعه فكله مقدور عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له ، وقد دل القرآن على ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة : ٥١) . وقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (الحديد : ٢٢) وقوله : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٥٤) . واعلموا عباد الله أن هذا مدار الوصية كلها ، وما ذكر قبل ذلك وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ، فإن

العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن
اجتهاد الحلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذ أن الله
وحده هو الصار النافع المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل
وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع
ودفع المضار ، ولهذا دم الله من يعبد ما لا يضر ولا ينفع ولا يغني عابده شيئاً ،
فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله ، أوجب له إفراد الله
عر وجل بالعبادة ، والسؤال والتصرع والخوف والرجاء وتقدير طاعته على طاعة
الحلق جميعاً ، وأن يتقي سخطه وإن كان فيه سخط الخلق كلهم ، فيعلم العبد
عد ذلك أن الأمر لله عز وجل والخلق لله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

ويعلم أن الله عز وجل بيده خزائن كل شيء ، وأنه عز وجل يسط الرزق
لمن يشاء ويقدر ، وأن نواصي الخلق كلهم بيد الله عز وجل ، كما قال تعالى :
﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (هود :
٥٦) .

ويعلم كذلك أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن بقلبها كيف
يشاء ، فمدار الوصية على التوحيد وبيان أن الله عز وجل وحده هو المستحق
للعبادة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَقْرَبُكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ
هَلْ مِنْ كَاشِفَاتِ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ مِنْ مُنْصِكَاتٍ رَحْمَتِهِ ﴾ (الزمر :
٣٨) .

وعوله : « رفعت الأقلام وجفت الصحف » هو كناية عن تقدم المقادير
كلها ، والفراع منها من أمد بعيد ، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام
عنه وطال عهده ، فقد رفعت الأقلام وجفت الأقلام التي كتبت بها من مدادها
وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن
الكنايات وأبلغها ، وقد دل الكتاب والسنن الكثيرة على مثل هذا المعنى ، قال
الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد : ٢٢) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(١) .

وفيه أيضاً عن جابر أن رجلاً قال يا رسول الله «فقيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال : فقيم العمل ؟ قال : اعملوا كل ميسر لما خلق له»^(٢) .

ونخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : «إن أول ما خلق الله القلم ثم قال : اكتب فكتب في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٣) .

(١) رواه مسلم (٢٠٣/١٦) القدر باب حماح آدم وموسى عليهما السلام والترمذي (٣٢١/٩) أبواب القدر .

(٢) رواه مسلم (١٩٧/١٦ ، ١٩٨) القدر باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه

(٣) رواه أبو داود (٤٦٨/١٢) السنة باب القدر . والترمذي (٣٢٠/٩) القدر ، ورواه أحمد في المسند (٣١٧/٥) وصححه الشيخ عبد القادر الأرمازوط في جامع الأصول .

أحوال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة^(١)

الحمد لله المتفرد بوحداية الألوهية ، المتمرزة بعظمة الربوبية ، القائم على نفوس العالم بأجاليها ، والعالم بتقليها وأحوالها ، المان عليهم بتواتر الاث ، المتفضل عليهم بسوابغ نعماته ، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير ، وحلوا البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير ، فمضت فيهم بقدرته مشيئته ونفذت فيهم بعزته إرادته ، فألهمهم حسن الإطلاق ، وركب فيهم تشعب الأحلاق ، فهم على طبقات أقدارهم يمشون وعلى تشعب أحلاقهم يدورون ، وفيما قضى عليهم يهيمون ﴿ كَلَّ حَزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣٢) .
وأشهد أن لا إله إلا الله فاطر السموات العلى ، ومنشئ الأرضين والثرى ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٣) .

وأشهد أن محمداً عبده المجتبى ، ورسوله المرتضى ، بعثه بالور المضى والأمر المرصى ، على حين فترة من الرسل ودروس من السبل ، فدمغ به الطغيان ، وأكمل به الإيمان ، وأظهره على كل الأديان ، وقمع به أهل الأوثان ، فصلى الله عليه وسلم ما دار في السماء فلك ، وما سح في الملكوت ملك ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ، ، ، ،

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ

(١) محاسن التأويل للفاسمي - تفسير القرطبي - فتح القدير للشوكاني - البحر الرائق للمصنف

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسَ مَنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ، قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ، أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ، اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ (الحديد : ١٢ - ١٧) .

يقول الله تعالى محجراً عن عباده المؤمنين يوم القيامة ، أنهم يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، وبأيمانهم كتبهم . قال ابن مسعود : (على قدر أعمالهم يَمْرُونَ على الصراط منهم من نوره مثل الحبل ، ومنهم من نوره مثل النحلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ، يَتَّقِدُ مرةً ويطفأ مرةً) .

وعن قتادة بن أبي أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاككم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك . وقيل ليس أحداً لا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفقوا نور المنافقين أحوح ما يكونون إليه ، عند ذلك يقول المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا ﴾ (التحريم : ٨)

وقوله عز وجل : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ (الحديد : ١٢) أي وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ (الإنشقاق : ٧) وقوله عز وجل : ﴿ بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (الحديد : ١٢) . أي يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة بشراكم أي المبشر به جنات ، أو بشراكم دخول الجنات . قال ابن القيم رحمه الله . وكيف يُقَدَّرُ قَدَرُ دَارٍ خَلَقَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ ، وجعلها مقراً لأحبابه ، وملاها من رحمته وكرامته ورضوانه ، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ، وملكها بالملك الكبير ، وأودعها الخير بحذافيره وطهرها من كل

عيب وآفه ونقص ، وإن سألت عن أرضها وقربها فهي المسك والزعفران ، وإن سألت عن سقمها فهو عرش الرحمن ، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر ، وإن سألت عن حصائنها فهو اللؤلؤ والجوهر ، وإن سألت عن بساتنها فلانة من فصة ولبة من ذهب ، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة لا من الحطب والخشب ، وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحُلل ، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبس لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) (السجدة : ١٧)

فيا عجباً ممن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ، ولا تحل المفاجئ بمن نزل بفنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغير إلى أهلها ، كيف يأس بدار قد أذن الله في خرابها ، ويهأأ بعيش دويها ، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحداث ، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنقص من ضرورته .

كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفي أنواع السرور متمتعون ، لهم فيها ما يشهون ، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر إلى وجه الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ،

(١) رواه البخاري (١٣/٦) الجهاد باب العدو والروحة في سبيل الله ، ومسلم (٢٦/١٣) الإمارة باب فصل العدو والروحة .

(٢) رواه البخاري (٣٦٨/٦) بدء الخلق : ما جاء في صفة الجنة ، ومسلم (١٦٦/١٦) الجنة في فاتحته والترمذي في التصير .

ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصابع هذه النعم يترددون ، وهم من زوالها امنون .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قول الله عز وجل ﴿ وَنُودُوا أَنْ تَبْلُغُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) (الأعراف : ٤٣) .

وبعد أن بين الله عز وجل حال المؤمنين ، وكيف أنهم يعطون النور في الآخرة بقدر أعمالهم ، ويحملون كتابهم بأيامهم ، وتشترهم الملائكة بحنة الله عز وجل حالدين فيها ، وأن ذلك هو الفوز العظيم ، بين الله عز وجل أحوال المنافقين إذا حرموا النور يوم القيامة ، أو أطفأ عنهم أحوح ما يكونون إليه .

فقال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديد : ١٣) .

قوله : ﴿ انظُرُونَا ﴾ أي انظروا إلينا ، وقيل بمعنى انتظرونا وهو الذي عول عليه ابن جرير ، وكأنهم يقولون للمؤمنين ذلك حينما يساقون إلى الجنة زمراً ، والمنافقون ما يرالون في عرصات الآخرة وأهوالها وعدابها ، والمراد حينئذٍ من الانتظار الاقتباس من نورهم ، ورجاء شفاعتهم ، أو دخول الجنة معهم ، طمعاً في غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حين يسرع بهم إلى الجنة .

﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ قال الزمخشري طرد لهم وتهكم بهم ، أي ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هناك فمن ثم يقتبس ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه . وهو الإيمان والعمل الصالح ، أو ارجعوا حائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر فلا

(١) رواه مسلم (١٧٥/١٦) صفة الجنة باب في دوام نعيم أهل الجنة ، والترمذي (١٢٥/١٢) التفسير باب ومن سورة الزمر .

سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أنه لا نور وراءهم وإنما هو تحييب وإقماط لهم .

قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن ريد بن أسلم هو الذي قال الله تعالى ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ (الأعراف : ٤٦) قال ابن كثير وهو الصحيح . ﴿ يَاطُنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي الجنة وما فيها وطاهره من بيله العذاب .

والنفاق عباد الله هو الداء العصال ، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به .

وقد هنك الله سبحانه أستار المنافقين ، وكشف أسرارهم ، وخلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر .

هم أحسن الناس أحساماً وأطفهم بياناً ، وأحشهم قلوباً وأضعفهم جناناً ، هم كالخشب المسند الذي لا ثمر لها ، قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها لئلا يطأها السالكون . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ يَخْشَوْنَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْمَقْدُورُ فَاحْذَرُهُمْ فَاتْلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفِّكُونَ ﴾ (المنافقون : ٣) .

يؤحرون الصلاة عن وقتها ، فالصبح عند طلوع الشمس ، والعصر عند الغروب ، ويقرونها نقر الغراب ، إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب ، ويلتفتون فيها التفات الثعلب إذ يتقين أنه مطرود وإذا خاصم فحر ، وإذا عاهد غدر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا اتهم خان ، ما أكثرهم وهم الأقلون ، وما أجهلهم وهم المتعالمون ﴿ وَيَخْلِقُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ (التوبة : ٥٦) .

كره الله طاعتهم لحب قلوبهم وفساد نياتهم فبسطهم عنها وأبعدهم ، وأبغض قريبتهم منه وجوارهم لميلهم إلى أعدائه فطردهم عنه وأبعدهم ، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في القلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (التوبة : ٤٦) .

ثم ذكر حكيمته في تشييطهم وإفعادهم وطردهم عن بابه وإبعادهم ، وأن ذلك من لطفه بأوليائه ، وإسعادهم فقال وهو أحكم الحاكمين ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَتَعُونَكُمُ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة ٤٧)

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وحدتهم عنه باقرين ، فهو شهدت حقائقهم لرأيت بسبها وبين الهدى أمداً بعيداً ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (النساء ٦١) .

كثروا والله على ظهر الأرض وفي أحواف القصور ، لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات ، سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول اللهم أهلك المنافقين فقال : (يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشت في طرفتك من قلة السالك) .

تالله لقد قطع خوف الساق قلب السائقين الأولين ، ساءت ضوبهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحذيفة : (يا حذيفة شددت بالله هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم ؟ قال لا ولا أزكي بعدك أحداً) .

وقال ابن أبي مليكة : (أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف الساق على نفسه ، ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان حرييل وميكائيل) وذكر عن الحسن البصري (ما أمة إلا منافق ، وما حافة إلا مؤمن) قوله : ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغررتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغررتم بالله الفرور ﴾ (الحديد ١٤) .

أي ينادي المنافقون المؤمنين ، أما كنا معكم في الدار الدنيا ، شهد معكم الجمععات ، ونقف معكم بعرفات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات ؟ (قالوا بلى) ند كتم معنا ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغررتكم الأمانى ﴾ .

أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ، وتربصتم أي أخرتم التوبة ، وقال قتادة تربصتم بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي برسالة محمد ﷺ ، وبالبعث بعد الموت ، ﴿ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ ﴾ أي قلتم سيعمر لنا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي ما رلتم في هذه الحالة بغير توبة حتى جاءكم الموت ، ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أي الشيطان ، قال قتادة : كانوا على حدة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار .

قال بعض العلماء : إن للماضي بالماضي معتبراً ، وللأحر بالاول مردجراً ، والسعيد من لا يعتر بالطمع ، ولا يركز إلى الحدد ، ومن ذكر المنية سي الأمية ، ومن أطال الأمل سي العمل ، وعمل عن الأهل

فمعنى قول المؤمنين للمنافقين إنكم كنتم معنا ، أي بالأبدان لا بالقلوب . كنتم معنا بأبدان لا بية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك وترص وعرور . ثم بلغ المؤمنون في توبيخهم وتقريعهم وتقنيطهم ، فقالوا ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه ، كما لا تقبل العديّة كذلك ممن أظهر كفره وعناده .

وقوله تعالى : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هي مصيركم وإليها مقلبكم ، وقوله تعالى : ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتياكم وبئس المصير ، ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد ١٦)

يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتفاد له وتسمع له وتطيعه ، عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من

فلهم من اليهود ولصاري ، لما تطاول عليهم الأمد سدوا كتب لله ائدي
 بأيديهم ، واشتروا به ثمنًا قليلًا ، وسدوه وراء ظهورهم ، وقلدوا على الآراء
 المختلفة والأقوال المتوتكة . وقلدوا الرجال في دين الله ، واتحدوا أحبارهم
 ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يصلون موعظه ،
 ولا تليق قلوبهم بوعده ولا وعيده ، وكثير منهم فاسقون في الأعمال ، فقلوبهم
 فاسدة وأعمالهم باطنة ، كما قال تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْصُهمْ مِنْهَا نُعْطِيهِمْ وَلَعْنَاهُمْ وَحَملْنَا
 قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾
 (المائدة ١٣) ولهدى الله المؤمنين أن يتنسوها بهم في شيء من الأمور
 الأصلية والفرعية ، ثم قال عز وجل ﴿ اغْلُظُوا أُنَّ اللَّهُ يُخَيِّ الْأَرْضَ بِقَدِّ مَوْتِهَا
 قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَنَكُمُ نَعْقِلُونَ ﴾ (الحديد ١٧)

فيه إشارة إلى أن الله عز وجل منس القلوب بعد قسوتها ، ويهدي
 الحيارى بعد صلتها ، ويخرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض لمينة
 المحمدية لهامة ناعيث الهتل الوابل ، كذلك يحيي القلوب سرايين القرآن
 وللدلائل ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسحان
 الهادي بمن يشاء بعد الصلال ، والمصل لمن أراد بعد الكمال ، ائدي هو لما
 يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير
 المتعال .

انتهى بحمد الله تعالى ما تيسر جمعه والله أسأل أن يعتم بفعه وأن يررف
 يوم القيامة بره ودخره ، وكان الانتهاء من المراجعة الهائية يوم الاثنين ١٨ ذو
 الحجة سنة ١٤٠٦ هجرية .

مراجع الكتاب

أ - تفاسير :

١ - الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي

٢ - تفسير القرآن العظيم - لاس كثير

٣ - محاسن التأويل - للفاشي

٤ - فتح القدير - للشوكاني .

٥ - أضواء البيان - للشقيطي

ب - حديث :

١ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - طعة السلفية

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية

٣ - عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق أنادي

٤ - عارضة الأحودي شرح صحيح الترمذي - لابن العربي المالكي

٥ - سنن السائي بشرح السيوطي وحاشية السندي

٦ - سنن ابن ماجه بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي

٧ - مسند الإمام أحمد بفهرس الألباني .

٨ - جامع الأصول لاس الأثير بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط - دار الفكر

٩ - شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط - دار بدر

١٠ - إرواء الغليل - للألباني المكتب الإسلامي

١١ - صحيح الترغيب والترهيب - للألباني المكتب الإسلامي

١٢ - مختصر الترغيب والترهيب لابن حجر بتحقيق د . أسامة عبد العظيم

١٣ - تلخيص الحبير - لابن حجر العسقلاني .

١٤ - مجمع الزوائد - لابن حجر الهيتمي .
١٥ - غاية المرام في تخریج أحادیث الحلال والحرام - للألباني المكتب الإسلامي .

١٦ - تخریج مشكلة الفقر في الإسلام - للألباني المكتب الإسلامي
١٧ - مختصر الشمائل - للألباني .
١٨ - مشكاة المصابيح - للتبريزي بتحقيق الألباني
١٩ - موطأ مالك - رواية محمد بن الحسن الشيباني
٢٠ - دراسة حديث وَنَضَّرَ اللَّهُ امرءاً - لعبد المحسن العباد
٢١ - زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم - لحسن الله الشقيطي
ج - فقه :

١ - المجموع شرح المذهب - للنووي دار الفكر
٢ - فقه الزكاة - للقرضاوي مؤسسة الرسالة .

د - رقائق وآداب :

١ - رياض الصالحين - للنووي .
٢ - عداء الألباب - للسفاريني .
٣ - العقد الفريد - لابن عبد ربه الأندلسي
٤ - صيد الخاطر - لابن الجوزي .
٥ - لطائف المعارف - لابن رجب الحنبلي
٦ - التبصرة - لابن الجوزي .
٧ - غالية المواعظ - للألوسي
٨ - تذكّر السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم - لابن جماعة الكناي
٩ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - للحطّيب العداوي
١٠ - البحر الرائق في الزهد والرفائق - للمصنف .
١١ - جامع العلوم والحكم - لابن رجب الحنبلي
١٢ - اختيار الأولى في شرح حديث احتصام الملاء الأعلى - طبعة مؤسستا
١٣ - نور الاقتباس في شرح حديث امن عاس - طبعة مؤسستا
١٤ - شرح حديث « ما دثبان جائعان . . » - لابن رجب .

- ١٥ - الخطابة لأبي زهرة .
- ١٦ - إصلاح الوعظ الديني - لمحمد عبد العزيز الخولي .
- ١٧ - فضل الله الصمد - شرح الأدب المفرد لفضل الله الجيلاني .
- ١٨ - إحياء علوم الدين - للغزالي بتحقيق العراقي .
- ١٩ - موعظة المؤمنين - للقاسمي .
- ٢٠ - مختصر منهاج القاصدين - لابن قدامة طبعة مؤسستنا .
- ٢١ - التخويف من النار - لابن رجب الحنبلي .
- ٢٢ - روضة العقلاء ونزهة الفضلاء - لأبي حاتم البستي .
- ٢٣ - أهوال القبور - لابن رجب الحنبلي .

- كتب متنوعة :

- ١ - الإعلام بما في دين النصاري من فساد وأوهام - للقرطبي .
- ٢ - حياة الصحابة - لمحمد يوسف الكاندهكوي .
- ٣ - بداية السؤل في تفضيل الرسول ﷺ
- ٤ - الاتحافات السنية بشرح الأحاديث القدسية
- ٥ - مجلة رسالة المسجد العدد الخامس في الدعوة والدعاة
- ٦ - رسالة دمرُوا الإسلام لجلال العالم
- ٧ - اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان - لإبراهيم بن عبيد .
- ٨ - إصلاح المساجد - للقاسمي .
- ٩ - شرح العقيدة الطحاوية - لأبي العز الحنفي .
- ١٠ - الزواجر عن اقتراف الكبائر - لابن حجر الهيتمي .

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
فضل الوعظ والتذكير	٩
أحوال الوعاظ	١٤
لطائف	١٧
آداب الوعظ	٢١
أ - فصل في آداب الواعظ في نفسه	٢١
ب - فصل في آداب الواعظ في مجلس الوعظ	٢٣
آداب الخطب والخطباء	٢٦
مقومات الخطيب الناجح	٢٩
هدى النبي ﷺ في الخطابة	٣٣
من أسباب النصر والتمكين	٣٦
فضائل الصحابة رضي الله عنهم	٤٤
بر الوالدين	٥٢
من شمائل المصطفى ﷺ	٦٠
تكملة شمائل المصطفى ﷺ	٦٨
فضائل شهر رمضان	٧٦
وظائف العشر الأواخر من رمضان وليلة القدر ووداع الشهر	٨٤
خطبة عيد الفطر	٩١
الزواج عن اقتراف الكبائر	٩٨
تحريم موالاة المشركين	١٠٧
في ذم الحرص على المال والشرف	١١٤
فضائل النبي ﷺ	١٢٥
الزكاة	١٣٥
الزهد في الدنيا	١٤٢

١٤٩	اختصاص الملا الأعلى
١٦٠	طريق ولاية الله عز وجل
١٦٧	الترغيب في حج بيت الله الحرام وفضل عشرين الحجة
١٧٥	خطبة عيد الأضحى
١٨٢	صفات عباد الرحمن
١٨٩	تحريم الظلم وامتنان الله عز وجل على عباده بنعمه
١٩٦	قفة التجار مع الله عز وجل
٢٠٤	صلة الرحم
	تنفيس كربات المسلمين وإعانتهم وستر عوارثهم
٢١٢	والاجتماع على طلب العلم
٢٢١	الامر بحفظ حدود الله عز وجل وأوامره وتواحيه
٢٢٨	أحوال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة
٢٣٦	مراجع الكتاب



طبع بمطابع دار الحرمين بالقاهرة

ت : 4820392



البيروت: ١٠٩ شارع النخيل - باكوس ت / ٥٧٤٧٣٩١ فاكس / ٥٧٤٧٠٧٦ / ٣
القاهرة: ٣ درب الأبرار - خلف الأزهر الشريف - ت / ٥١٤٣١٧٤ / ٥

دار الحقيقة